دكتور شوقي ضيف

الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة

فاضل





الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة



الحضارة الإسلامية

من القرآن والسنة

فاضل

دكتور شوقي ضيف



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ شارع كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

الإسلام خاتمة الديانات الربَّانية ، وقد أرْسَى الله ورسوله فيه أسس حضارة إسلامية قويمة لسعادة البشرية ، وهى تتوزع بين أسس عقيدية وأسس اجتماعية وأسس أخلاقية ، مع السمو بالإنسان عن كل ما يشين حياته من المحظورات والموبقات . ولو أن هذه الأسس الإلهية انتظمت – فى عصرنا – حياة الأمم لتوطدت فيها أركان السلام ، ولعمَّت فى جميع البقاع أخوة إنسانية لا تقف عند جماعة دون غيرها من الجماعات ولا عند وطن دون غيره من الأوطان ولا عند قارة دون غيرها من القارات .

وقد أخذت نفسى فى هذا الكتاب بعرض تلك الأسس الربانية فى الحضارة الإسلامية ، وبدأتها بالأسس العقيدية مفتتحا لها ببيان نزول الوحى القرآنى على الرسول صلى الله عليه وسلم طوال ثلاث وعشرين سنة إلى أن لبَّى نِداءَ ربِّه . والقرآن مائة وأربع عشر سورة ، والسورة مقدار معين من آيات القرآن ، وهى تطول مثل سورة البقرة ، وتقصر مثل سورة الكوثر . والآية مقدار محدود من كلام الله .وهو يحمل الرسالة الإلهية الأخيرة لسعادة البشرية فى الدنيا والآخرة .

والله – فى الإسلام – الاسم العام للذات العلية ، ولله فى القرآن أسماء حسنى كثيرة منها : القُدُّوس ، السلام ، المهيمن ، الجبار ، الخالق ، المصوِّر ، الرحمن ، العالم ، القادر ، الغافر . وجوهر العقيدة الإسلامية وحدانيةُ الله وحدانيةً مطلقة فى الذات فلا شريك له ، وفى الصفات فلا تشبه صفاته صفات المخلوقين ، وفى الأفعال فهو – وحده – خالق الكون ومدبِّر قوانينه ، وفى العبادة فهو المعبود وحده ولا شريك له فى عبادته ، وهو منزَّه عن الشبه بالمخلوقين فى الجسم وفى الأبوة والبنوة ، لا يعلم الغيب سواه . وقد أقام الصلة

بينه وبين عباده على المحبة ، ومن قوله فى حديث قدسى يحكيه الرسول عن ربه : « إذا تقرَّب العبد إلىَّ شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعا ، وإذا أتانى مشيا أتيته هَرولة » . وهو لطف وعطف ليس مثلهما عطف ولطف ، ويقول الرسول : « هل الدين إلا الحب فى الله » حبا يسمو بنفس المسلم ويملؤها إيمانا بالله وتقديسا لا يماثله تقديس .

وصَنَع الله رسوله محمدا صنعة ربانية مُثلى ، وأرسله إلى العالم بشيرا ونذيرا وهاديا كما يهدى السراج الوضَّاء فى الليل الداجى ، رفيقا بأتباعه رءوفا رحيما ، يعفو ويصفح عن أعدائه ، ولا يشق على المسلمين فى شريعته ، متواضع لأفقر أصحابه ، متحل بمحاسن الفضائل القرآنية ومثلها الرفيعة . وعنه حمل المسلمون سنته المشتملة لأحاديثه المبينة لآيات القرآن الكريم والمكملة للشريعة الإسلامية ، إذ هى الأصل الثانى لها بعد القرآن . وقد بُنى الإسلام على ستة أركان هى : الشهادة بوحدانية الله ، والإيمان برسوله محمد ورسالته ، وأداء الصلاة تقديسا لله ، وأداء الزكاة لصالح الأمة العام ولكل بائس ومحروم ، وصوم رمضان تطهيرا للنفس ، وأداء الحج نُسكا لله وعبادة . والإيمان يشمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والنبيين ، وتقديمَ الصدقة للمحتاجين ، كما يشمل أداء الفرائض والوفاء بالعهد والصبر الجميل . ويضع الله الكون بسمائه وكواكبها والأرض بزروعها تحت بصر الإنسان ليتأمل فى نظامه وسننه وأسراره فيهديه عقله إلى أن له إلها واحدا صنعه بقدرته وحكمته . وحضارة الإسلام بذلك حضارة عقلية تحتكم دائما إلى العقل . ومرارا وتكرارا يقول الله إنه سخَّر كل ما فى الكون وذلَّله لنفع الإنسان واكتشاف قوانينه العلمية المبثوثة فيه ، ويكرر أنه خلق الكون وكواكبه وكل ما فيه بصور بديعة من الحسن والبهاء مما يغذِّى روح الإنسان بالمتعة الجمالية . وأرسل الله كل رسول إلى قومه إلا محمدا فإنه أرسله إلى الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ليبلغهم الإسلام ، فهو دين عالمى . وعالميته تتضح فى دعوته لأصحاب الكتب السماوية أن يعتنقوه لتصحيح دياناتهم ، وفى أنه طلب إلى المسلمين أن يكفلوا لجميع أصحاب الملل إلهية ووثنية غير إلهية فى ديارهم حرياتهم الدينية فى أداء شعائرهم وأن يصونوا لهم معابدهم وأموالهم ويتعايشوا معهم جميعا معيشة كريمة .

وفى هذا المناخ الإسلامى الحضارى كان يجتمع ذوو الملل المختلفة فى مجالس علماء الكلام بالبصرة وبغداد ويتجادلون ويتناظرون فى نحلهم وعقائدهم بحرية تامة . ويأمر الله رسوله والمسلمين أن يأخذوا أنفسهم بالشورى فى الحكم ، ويصبح إجماع المسلمين لذلك أصلا ثالثا فى الشريعة بعد القرآن والسنة ، وجعل الله ورسوله الاجتهاد فى تبيُّن الأحكام

فى فروع الدين فريضة على كل مسلم ، ولذلك عُدَّ الاجتهاد أصلا رابعا فى الشريعة الإسلامية بعد القرآن والسنة والإجماع . واليُسْر جوهر راسخ فى الإسلام وشريعته ، وكان الرسول دائما ينصح بعدم التشدد فى الدين ويكثر من الرُّخص فيه تيسيرا على المسلمين ، وكان يغضب حين يعلم أن أحد أصحابه يأبى إلا أن يشق على نفسه ولا يأتى إحدى الرخص ، ويقول الدين يُسر لا عسر . وبالمثل يدعو الله والرسول إلى التوسط فى عبادة الله ، وسمَّى الله الأمة الإسلامية (أمة وسطا) أى معتدلة بين الغلوّ فى الدين والتقصير فيه ، ويقول الرسول أَوغِلْ فى الدين برفق دون إرهاق أو عناء شاق .

وأمر الله رسوله والمسلمين أن لا يكرهوا أحدا على اعتناق الإسلام ، وصاغ فى ذلك قانونا عاما التزم به المسلمون طوال عصورهم ، وهو قوله عزَّ سلطانه : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ أى الإسلام ، بل يُترَك الناس أحرارا وما اختاروا لأنفسهم من الدين إلهيًّا وغير إلهى . ودعا الله الرسول والمسلمين إلى التسامح مع أصحاب الديانات إلهية ووثنية أى حتى مع المشركين ، فيتصدَّقون على فقرائهم كما يتصدَّقون على فقراء المسلمين ويحسنون معاملة أُسراهم ويغفرون لمن آذوهم . وهو تسامح عظيم لم يعرف لأى دين ولا لأى أمة قديما أو حديثا مثل الأمة الإسلامية وشريعتها السمحة التى ابتغت وحدة الإنسانية وعمِلت على أن تعم المساواة البشرية . ودعا الله والرسول إلى أن يسود بين الناس العدل الذى لا تصلح حياة الأمم بدونه ، وحثَّا المسلم على أن يكون عادلا فى أقواله وأفعاله ومع زوجته وأبنائه وأقاربه وجيرانه ، وحتى مع أعدائه لتكون حياته حياة أمن وصفاء .

وحضَّ الله والرسول المسلمين على طلب العلم والتعلم ، وفى ذلك نزلت أول آيات القرآن ، وتكررت فيه الإشادة بالعلم والعلماء ، وفضَّله الله فى أوائل سورة البقرة على تسبيح الملائكة إذ أمرهم بالسجود لآدم توقيرا لعلمه ، وفضَّل الرسول طلبه على الجهاد وعلى النسك والعبادة . وبالمثل مجَّد الله العقل وطلب من الناس استخدامهم له فى تأمل الكون ونظامه والإيمان بخالقه ومدبِّره ، ونَعَى على الكفار أنهم لا يستخدمون عقولهم ، فمثلهم مثل الأنعام التى لا تعقل . وأبطل الله ورسوله الإيمان بالخرافات والسحر والتنجيم وكل ضروب الشعوذة ارتفاعا بعقل الإنسان عن الأوهام الباطلة .

والحضارة الإسلامية – بذلك – حضارة تقدس العقل والعلم ، فهى حضارة علمية عقلية إلى أقصى الحدود . وليس بصحيح ما يزعمه خصوم الإسلام من أنه يدعو المسلمين

إلى الإيمان بالجبر والإذعان للقدر ، فآيات القرآن تكرر أن الإنسان يختار – بمحض إرادته – هداه وضلاله ، وأنه يحاسَب على جميع تصرفاته فى دنياه بتشريعات الإسلام فى الحدود والجنايات ، وفى الآخرة بحسابه على أعماله فى حياته ، فإمَّا إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

وحثّ الله والرسول المسلمين مرارا وتكرارا على التقوى ،وهى عبادة الله حق عبادته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، مع الامتناع عن الشهوات الحسية . وحضّ الله ورسوله المسلمين على التوكل الصادق على الذات العلية ، وهو غير التواكل الذميم ، وقديما توكل إبراهيم الخليل على ربه حين ألقى فى النار ،فاستحالت بردا وسلاما . ونوّه الله ورسوله باستشعار العبد الخوف من عذاب ربه وخشيته فى أعماقه . ويفتح الله أبواب غفرانه لمن يرجو منه المغفرة بنية صادقة مهما كانت ذنوبه ، وبالمثل يفتح أبواب غفرانه على مصاريعها للتائب مهما كانت ذنوبه كبيرة ،ويقول الرسول إنه ليفرح بتوبة عبده أكثر من فرحة الأعرابى يضلُّ منه بعيره فى الصحراء ثم يجده فجأة .

٢

وبجانب الأسس العقيدية الحضارية أسس اجتماعية حضارية لمصلحة البشرية والأمة الإسلامية ، وأبدؤها بطلب الله ورسوله من المسلمين نشر تحية السلام بينهم وأن يكرروها فى الصلوات الخمس . والإسلام – بذلك – أول داع للسلام منذ أربعة عشر قرنا ، وتأكيدا لهذه الدعوة جعل الله السلام اسمًا من أسمائه الحسنى ، وسمى الجنة دار السلام . ويستحبُّ الإسلامُ البشرَ والمصافحة عند لقاء الإخوان . ووضع لمن يزور شخصا آدابا حضارية يلتزمها فى زيارته ، ووضع له آدابا مماثلة فى دخول المجالس والجلوس بها والحديث فيها . ويأمر الله المسلمين أن تكون بينهم جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ومع تطور الجماعة الإسلامية جُعل ذلك إلى أولى الأمر للقيام عليه وتطبيقه . ويقرن الله فى القرآن الأمر بعبادته بالأمر برِّ عاية الوالدين وبرِّهما تشريفا لهما ، ويكرر الله والرسول الدعوة إلى هذا البر مرارا ، وبالمثل برُّ الزوجة والأبناء والأقارب توكيدا لروابط الأسرة .وأوجب اللهوالرسول على الرجل حقوقا كثيرة للمرأة ، وقال الله إنهما من أصل واحد هو آدم ،جلبا للائتلاف والائتناس ، وحقا جعل للذكر مثل حظ الأنثيين فى الميراث غير أن ذلك لما يتحمله الرجل من أعباء فى

الحرب وفى الزواج وفى معيشة الأسرة ، وحقا أيضا أنّه رخص للرجل فى الزواج بأكثر من واحدة ، غير أن فى ذلك دَرْءًا لمفاسد اجتماعيةً كثيرة . وقد كفل الإسلام للمرأة – دون جميع الديانات والحضارات – التصرف التام فى أموالها ، وأوجب لها على الزوج المودَّة والرحمة .

وأرْسَى الإسلام قواعد أخوة وثيقة بين المسلمين ، فالمسلم يبرُّ أخاه المسلم ويمد إليه يد العَون متكافلا معه اجتماعيا واقتصاديا . وبالمثل أرسى الإسلام قواعد مساواة تامة بين المسلمين فلا فرق بين غني وفقير فى الحياة ، كما لا فرق بينهما فى الصلاة والصوم وأداء الحج وملابس الإحرام . وهى مساواة تجعل من المسلمين أمة واحدة يسند بعضها بعضا ويدعمه . وينهى الإسلام نهيا مكررا عن البطالة والكسل ، ويدعو المسلم إلى العمل وأن يسعى لكسب عيشه ، حتى لا يكون عالة على المجتمع ، وحتى لا يتكفف الناس سائلا منهم العَون . وشدَّد الرسول فى الرفق بالعمال وإعطائهم الأجور المجزية . وأوصى الله والرسول بالصدقة على الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل وجعلها الله قرضا له يتضاعف جزاؤه إلى سبعمائة ضعف . وفرض على المتصدق آدابا فلا يؤذى الفقير ولا يمنُّ عليه ، ويقول الرسول إن الصدقة وقاء من النار مهما كانت قليلة ، حتى لو كانت بنصف تمرة . ونوَّه الله والرسول بأمانة المسلم وألزما المؤتَمَن أن يؤدى الأمانة إلى صاحبها فى موعدها المحدد ، وإن أنكرها كانت خيانة عظمى وإثما كبيرا . ودعا الله والرسول إلى الوفاء بالعهد : عهد الله فى عبادته ، وعهد الزوجة والأبناء فى رعايتهما ، وعهد الأفراد فى العلاقات ، وعهد الأمم فى المعاهدات . وبالمثل دعا الإسلام إلى أداء الحق فى عبادة الله وأداء حقوق الأسرة والمجتمع والأمة ، وسمَّى نفسه الحقَّ تشريفا له . وجعل الإسلام الجهاد ضد الأعداء فريضة على كل مسلم حماية لدينه ووطنه وأمته . ومجَّد الله والرسول العفو عن الإساءة مهما عظمت وحتى عن إساءة المشركين ، وحثًّا على الرفق والتلطف فى الكلام تحببا إلى الناس وأن يلقى المسلم أخاه بالسلام والبشر والكلمة الطيبة .

وأوصى الله والرسول بالبِّر والمواساة للمحتاجين ، وأعظم مواساة تمت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم مواساة الأنصار للمهاجرين إليهم فى المال والحقِّ والميراث ، وإيثار المسلمين أسرى المشركين بالطعام والغذاء . والإسلام يكتظ بالرحمة فى شريعته بين الناس بحيث يتراحمون ويتعاطفون وتمتلئ قلوبهم شفقة ورأفة لا على الإنسان فحسب ، بل أيضا

على الحيوان ، فلا يجوز أن يشقّ المسلم على دابّة فيما تحمل ، فضلا عن أن ينالها بأى صورة من صور الضرب المؤلم . وحثّ الله والرسول وصىّ اليتيم على رعايته رعاية حسنة ، وأن لا يأخذ من ماله ما يتجاوز أجر كفالته وقيامه على ماله ، وأن يردّ على اليتيم ماله حين يصبح راشدا ، ويتوعّد الله آكل مال اليتيم بالجحيم عقابا له . وأوصى الله والرسول بالضيف وحسن استقباله وإكرامه ، كما أوصيا بالجار وما له من حقوق الجوار ، ويقول الرسول : الجار ثلاثة : جار مشرك له حق واحد هو حق الجوار ، وجار مسلم وله حق الجوار وحق الإسلام ، وجار مسلم من ذوى الرحم ، وله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم . ودعما لأواصر التعاطف بين المسلمين أوصى الرسول مرارا بزيارة المرضى توثيقا للمودة مع المريض وأهله ، كما أوصاهم بالمشاركة فى تشييع الجنازات والصلاة على الميت مواساة لأهله ، وكان الرسول يزور القبور للدعاء للموتى وللاعتبار أو العبرة . وحثّ الله والرسول المسلمين مرارا على فعل الخير لإخوانهم من المسلمين وأيضا لأعدائهم من المشركين ، إذ الإ سلام دين عالمى يجمع كل البشر تحت لوائه .

٣

وهذه الأسس الاجتماعية فى الحضارة الإسلامية تسندها أسس أخلاقية حضارية ، منها ما دعا الله والرسول إليه من إخلاص النية لله فى عبادته وفى كل ما يصنع المسلم من أعمال خيِّرة ، ويقول الرسول لو نوى المسلم صنع حسنة ولم يصنعها كُتبت له حسنة ، فإن صنعها وأداها كتبت له عشر حسنات . والله بذلك يجزى على النية وإن لم يتبعها العمل . ويحث الله والرسول المسلم على استشعار العزة واعتزازه بكرامته ، وأن لا ينطق دائما إلا بالحق ويجهر به ولا يخشى فيه لومة لائم ، وبالمثل يحثان المسلم على التمسك دائما بالصدق ، وبالنصح المخلص لمن يطلب النصيحة ولأئمة المسلمين عند الحاجة فيما ينهضون به من مصالح الأمة . ومجّد الله والرسول التواضع لأنه يوثق المودة بين المسلم وأخيه إذ لا يزهو عليه ولا يستعلى مهما كان ثريا أو من أسرة رفيعة ، بل يخفض له جناحه ، ويتواضع تواضعا كريما يؤكد الأخوة التى أرادها الله والرسول للمسلمين . وأوصى الرسول بالحياء الذى يجعل المسلم يترفع عن الدنايا ويتحلى بالفضائل . وحث الله والرسول على العفاف ، وهو الكف عما لا يحلّ من المحظورات كفا تاما .

وأوصى الله والرسول بالحِلمْ وكظم الغيظ عند الغضب ، ويقول الرسول : ليس الشديد من يغلب فى المصارعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . وحث الله والرسول المسلم على استشعار الصبر ، وهو أقسام : صبر على أداء الطاعات وامتثال أوامر الله ، وصبر عن ارتكاب المعاصى المحرَّمة ، وصبر على ما ينزل بالمسلم من الخطوب والمحن ، وصبر فى الحرب وجهاد الأعداء ، والصابر فى كل ذلك مأجور ومثاب .

وأوصى الله والرسول بكتمان السر وأن لا يذيعه من اؤتمن عليه ، وقديما قيل : سِرُّك من دَمِك فلا تُفشه إلا إليك . وبالمثل أوصيا بالستر على ذنوب المسلمين ، ويقول الرسول : من يستر ذنبا أو إثما على مسلم فلا يذيعه ولا يفضحه به فإن الله يستره فى الدنيا والآخرة . وامتدح الله والرسول القناعة ، وأن يرضى المسلم باليسير والعيش الكفاف وأن لا ينظر إلى ثراء الأغنياء متمنيا أن يكون مثلهم ، فالثراء الحقيقى ليس ثراء المال وإنما ثراء النفس بالتقوى . ويذكر الله الرزق فى القرآن مرارا وهو ما يحصل الشخص عليه بعمله لسد ضروراته وحاجاته فى معيشته ، وهذا هو الرزق الظاهر لمنفعة الأبدان ، ويقابله رزق باطن لمنفعة العقول والقلوب مثل خشية الله التى تغذى القلوب ، ومثل العلوم والآداب التى تغذى العقول . ويقول الله إنه يبسط الرزق ويوسِّعه على من يشاء ، ويقترّه ويقلّله على من يشاء لما له فى ذلك من الحكم . وينبغى على الشخص الرضا بما قسم الله له من رزق فهو صاحب الأمر كله . وحثَّ الله والرسول المسلم على العمل الصالح من عبادة الله والتمسك بتعاليم شريعته وبحسن الخلق والمعاملة الطيبة وبِرِّ الفقراء والمحتاجين . وكلُّ ما ينهض به المسلم من العمل الصالح يجزيه ربه عنه الجزاء الأوفى .

٤

وبجانب الأسس الحضارية السابقة الأخلاقية والاجتماعية والعقيدية محظورات تُعَدّ جزءا لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية ، والأصل فى الأشياء أنها حلال ، إلا ما نصَّت الشريعة على أنه حرام ، فالمطعومات مثلا مباحة إلا مانص عليه الله ورسوله من الطعام الخبيث المذكور فى سورة المائدة ، ومنه الميتة والدم ولحم الخنزير . وبجانب هذه المحظورات من الطعام المحرم محظورات أخرى حرَّمها الله ورسوله ارتفاعا بحياة الإنسان وتطهيرها من جميع

الموبقات ، وفى مقدمتها « الزنا » كبيرة الكبائر الذى ينتهك فيه الشاب أو الرجل حرمة فتاة عذراء أو سيدة ويصمهما بالعار . ويقول الرسول : ما من ذنب بعد الشرك بالله أعظم من الزنا ولذلك شدَّد الإسلام فيه الحدَّ أو العقوبة على الرجل والمرأة .

ومن الكبائر الرِّبا ، وهو كل قرض يؤخذ به أكثر منه ، وتوعد الله ورسوله صاحبه بعذاب الجحيم فى الآخرة لابتزاز أموال المحتاجين بدون عوض . وليس من الربا استثمار المال فى البنوك ، لأن صاحبه يصون ماله ويحفظه فى البنك ، وتعود له فائدة منه تعينه فى معيشته وحياته . ومن الكبائر تعاطى الخمر والميسر ، والخمر كل شراب مسكر ، وحرَّمها الشارع لتخديرها العقل وتعطيله ، ولما تدفع إليه من الغواية ، ولإنفاق المال عبثا ، وكان عمر بن الخطاب يقيم الحدَّ على شاربها حتى يكفَّ عنها . ومثلها فى التحريم والتشديد فيه الميسر أو القِمار لتضبيع المال عبثًا ، ولما يصحبه من العداوة والبغضاء بين المتقامرين . ومن الكبائر الظلم فى حقوق الله ورسوله أو فى حقوق الآباء والزوجة والأبناء والأقارب أو فى حقوق الناس ، وكان الرسول يحذر من الظلم وعذابه فى الآخرة ، ويقول إن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . ومن الكبائر الكبر والعُجب ، والكبر : التعاظم على الناس والشعور بالاستعلاء عليهم ، ويقول الرسول : لا يدخل الجنة مَن كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . والعُجب زَهْوُ الإنسان بنفسه أو بأدبه أو بعلمه مستشعرا الخيلاء وأنه فوق الناس . ومن الكبائر الكبرى شهادة الزور ، وهو الباطل قولا أو فعلا يشهد الشاهد به على غيره افتراء وبهتانا ، وقَرَنه الرسول إلى الشرك بالله ، بل قرنه به ربّ العزة فى سورة الفرقان : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر﴾ ثم قال بعدها : ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ .

ومن الذنوب الكبرى الحسد ، وهو تمنى الشخص زوال نعمة غيره أو تحولها إليه دونه ، وهو غير الغبطة إذ هى تمنى الشخص أن تكون له النعمة التى يراها لغيره دون تمنى زوالها عنه . ومن الذنوب الكبرى الكذب وإذا اشتهر به شخص سقط من أعين الناس ولم يصدِّقوا له نبأ ولا خبرا ، وقد يصبح من الكبائر إذا أخبر صاحبه شخصا يكرهه – كيدا له – عن فجيعة كذبا ، أو كذب على الله ورسوله ، ويقول الرسول : من كذب علىَّ – متعمدا – فليتبوَّأ مقعده من النار . وشدَّد الله والرسول فى اليمين الكاذبة وأن إثمها عند الله كبير ، أما يمين اللغو فمعفوٌّ عنها . ومن الذنوب الكبرى الخداع ، وهو إخفاء ما ينبغى إظهاره للشخص بقصد إلحاق المكروه به ، ومنه الغشّ فى البيع ، ويقول الرسول ليس منا من غشَّنا .

وشدَّد الرسول فى اللعن للمسلم وسَبِّه وشتمه ، وكرر النهى عنه حتى مع الخادم ، وحتى مع الحيوان . ومن المحرمات الظن السيئ بالمسلم لما قد يؤدى إليه من تهمة كاذبة . ومن أسوأ صور التجسس الأثيم على المسلم ما يؤدى إلى معرفة عورة له ، فيذيعها المتجسس وكان ينبغى أن يسترها ، ويقول الرسول : من ستر على أخيه المسلم عورة فكأنما استحيا موءودة من قبرها . والتجسس المذموم هو الذى يراد به الكيد ومعرفة العورات ، أما تجسس الشرطة على الجناة والتجسس على الأعداء فمحمودان . ومن المحرمات الغيبة ، وهى التحدث عن شخص غائب بما يسوءه ، ومثَّل الله من يغتاب أخاه المسلم بآكل لحم أخيه الميت تفظيعا للغيبة وما ينتظر صاحبها يوم القيامة من العذاب الأليم . وأسوأ من الغيبة النميمة التى تبتر المودات بين الناس وتحدث بينهم العداوات ، ويقول الرسول : لا يدخل الجنة نمَّام . ومن المحظورات المحرمة سخرية المسلم بأخيه المسلم استهزاء به لما فى ذلك من الإهانة له والإزراء الشديد به . ومثلها الشماتة وهى الابتهاج بمحنة تنزل بمسلم ، وبدلا من أن يمد الشامت يده لأخيه عونا له ومساعدة حين تقع به كارثة أو محنة يشمت به ويبتهج كما يشمت الأعداء ويبتهجون . وكل أولئك لن يفلتوا من عذاب الله وعقابه .

٥

تلك – بإيجاز – الأسس الإلهية للحضارة الإسلامية التى بثَّها الله ورسوله فى دين الإسلام خاتمة الديانات الربانية لإنقاذ البشرية من مهاوى الضلال والانحراف وردِّها إلى الهدى والتآلف والتعاون والمودة . والمسلمون – فى عصرنا – جديرون بأن يعودوا إلى التمسك فى حياتهم بتلك الأسس جميعا كما تمسك بها آباؤهم الأولون فدانَ لهم العالم وفتحت لهم الأمم ديارها من الهند وأواسط آسيا شرقا إلى المغرب الأقصى وإسبانيا غربا ، وتعايشوا مع سكان تلك الديار جميعا معيشة كريمة قرونا متعاقبة عمَّ فيها السلام والأمن والرخاء للبشرية .

وإنى لمؤمن أشد الإيمان بأن هذه الأسس الحضارية التى أهداها الله للعالم فى دين الإسلام خاتمة الديانات لابد أن تسود – يوما – حياة الأمم فى الأرض شرقية وغربية ، وتخلِّص الإنسان من المطامع المادية ومن زلازل الإباحية والانحلال الخلقى ، وتُرَدّ إليه روحه الربانية ، ويعيش الناس فى جميع ديارهم متوادين معيشة إخاء وأمان وبرٍّ وعدل ورحمة وعفاف وعفو ورفق وتسامح ومواساة ، مع الكفِّ عن المحظورات المحرمة والأخلاق الذميمة الضارة .

وقد التزمت مع عرض كل أساس إلهى من أسس الحضارة الإسلامية أن أستهلّه بآيات من القرآن الكريم تصوِّره ومعها سورهَا ورقم الآية فى السُّوَر وأتبعها بأحاديث من السنة النبويَّة تبين معانيها بتأييد إلهى محكم مع تعليقات لى ، من فيض إشعاعاتهما المضيئة . وأفدت فى الكتاب فوائد واضحة من كتب التفسير وخاصة تفسير ابن كثير ، وبالمثل من كتب السنة الشريفة وخاصة من كتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النووى وكتاب الموطأ لمالك والمسند لابن حنبل وكتب الصحاح الستة وفى مقدمتها صحيح البخارى وصحيح مسلم . وكل ما كتبته وعلَّقت به فى الكتاب إنما هو محاولة بدائية فى بيان أسس الحضارة الإسلامية . ولا أشك فى أنه ستتلوها محاولات وبحوث خصبة أكثر استفاضة وعمقا ، والله أسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

القاهرة فى ١٥ من شوال سنة ١٤١٧ هـ .

شوقى ضيف

القسم الأول

أسس عقيدية



١ – الوحي إلى رسول الله

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ – ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

الشورى : ٥١

٢ – إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

النجم : ٤ – ١٠

٣ – ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

النساء : ١٦٣ ، ١٦٤

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ

الإسراء : ٣٩

الأحاديث

١ – قال رسول الله صلى الله عليه وسَّلم : إن روح القدس نفث فى رُوعى أن نَفْسًا لن تموت حتى تستكملَ رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب (رواه صحيح ابن حبان) .

٢ – عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوَحْيُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم : أحيانا يأتيني مثل صَلْصلة الجرس وهو أشَدُّه علىَّ فيَفْصُم(١) عنى وقد وعيتُ ما قال ، وأحيانا يتمثَّل لىَ الملك رجلا ، فيكلِّمنى فأَعى ما يقول . وقالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوَحْيُ فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد(٢) عرقا (رواه البخارى) .

٣ – عن عروة بن الزبير أن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أول ما بُدِىءِ به رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من الوَحْى الرؤيا الصادقة(٣) فى النوم ، فكان لا يرى رُؤْيا إلا جاءتْ مثل فَلَق(٤) الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء(٥) فكان يخلو بغار حِراء(٦) فيتحنَّث(٧) فيه (وهو التعبد الليالىَ ذوات العدد) قبل أنْ ينزع إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك . ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزوَّد لمثلها ، حتى فجأه(٨) الحق ، وهو فى غار حِراء ، فجاءه الملك ، فقال اقرَأْ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى ، فغطَّنِى(٩) حتى بلغ منى الجهد ،

---

(١) فمعصم : فينفصل .

(٢) يتفصَّد : يسيل .

(٣) فى البحارى . الصالحة .

(٤) فلق : ضياء .

(٥) الخلاء . الحلوة .

(٦) عار حراء : غار . كهف ، وحراء . جبل على بعد ثلاثة أميال من مكه على يسار الداهب إلى منى .

(٧) يتحنث . فسر بالتعبد .

(٨) فحأه الحق : حاءه بغتة

(٩) غطَّى : عصرنى عصرا شديدا

ثم أرسلنى فقال لى اقرأ قلتُ : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فَغطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقْرأْ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطَنى الثالثة ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : ﴿اقْرأْ باسم ربِّك الذى خَلق . خَلق الإنسان من عَلَق . اقرأْ وربُّك الأكرمُ .الذى علَّم بالقلَم .علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يَرْجفُ فُؤاده[1] حتى دخل على خديجة بنت خويلد زوجته ، فقال : زَمِّلونى[2] ، زَمِّلونى زَمِّلونى ، فزمَّلوه ، حتى ذهب عنه الرَّوْع (رواه البخارى مثل الحديث السابق فى مفتتحه ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان فى صحيحه) .

٤ – عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وهو يتحدَّث عن فتره الوحى : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحِراء جالسٌ على كرسى بين السماء والأرض فرُعبتُ منه ، فرجعت ، فقلت زَمِّلونى ، فدثِّرونى[3] ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿يَاأيُّها المدَّثِّر . قُمْ فأنْذِرْ . وربَّك فكبِّر . وثيابَك فطَهِّرْ . والرُّجْزَ[4] فاهْجُرْ﴾ . ثم تتابع الوحى (رواه البخارى ومسلم) .

والله – تقدَّس اسمه – يذكر فى الآية الأولى الطرق التى يكلم الله بها رسله ، وهى ثلاثة : ﴿إلا وحيا﴾ ويراد به فى الآية الإلهام بدليل مقابلته للكلام من وراء حجاب ، وهو الطريق الثانى لكلام الله لموسى . والطريق الثالث : الكلام بإرسال ملك إلى الرسول يُبْلغه كلام الله ، ويسمعه منه ويعيه ، ويُبْلغه إلى الناس .

والإلهام هو ما يجده الرسول فى نفسه دفعةً فى اليقظة أو فى الحلم ، على نحو ما قالت السيدة عائشة فى أول الحديث الثالث من أن أول ما بُدىء به الرسول صلىَّ الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، وظل هذا الإلهام – أو الرؤيا الصادقة – يرافق الرسول طوال حياته كرؤياه أنه سيدخل مكة مع أصحابه آمنين محلِّقين رءوسهم ومقصِّرين ، وفى ذلك يقول الله تبارك اسمه – ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤْيا بالحق لَتَدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلِّقين رءوسكم ومقصِّرين لا تخافون﴾ وتحققت الرؤيا ، وكان الرسول

---

(١) فى صحيح مسلم : ترجف بوادره ، وهى ما بين المنكب والعنق

(٢) زملونى : غطونى بالثياب .

(٣) دثرونى : غطونى .

(٤) الرجز : عبادة الأوثان .

قد بشرَّ بها أصحابه . وهذا هو النوع الأول من الإلهام للرسل عن طريق الرؤيا الصادقة ، والنوع الثانى الإلهام في اليقظة وهو ما أدخل فيه الإمام الشافعى السنة النبوية ، أى أنها إلهام من الله لرسوله صلَّى الله عليه وسلم ، ومن ذلك الحديث الأول إذ يقول الرسول إن روح القدس (أى جبريل) نَفَثَ فى رُوعى (أى ألهمنى) أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها . فاتقوا الله وأجملوا (أى اتئدوا واعتدلوا فى الطلب) فإن كل شخص ميسَّر لما خُلق له . والطريق الثانى من كلام الله لرسله طريق الكلام من وراء حجاب كما حدث لرسوله موسى فى البقعة المباركة . وسأل موسى ربه رؤيته بعد تكليمه فحُجب عنها . والطريق الثالث فى كلام الله لرسله أن يرسل إليهم رسولا أى ملَكًا (فيوحى بإذنه ما يشاء) على نحو ما أرسل جبريل بالقرآن إلى رسولنا صلَّى الله عليه وسلم .

والله – جَلَّ شأنه – يقول فى آيات سورة النجم : ﴿إن هو﴾ أى القرآن المعلوم من السياق ﴿إلا وَحْى﴾ أى عن طريق ملك هو جبريل ﴿يوحى﴾ إلى رسولكم محمد صلَّى الله عليه وسلم ﴿علَّمه﴾ القرآن ﴿شديدُ القوى﴾ أى ملك شديد القوى ، وهو جبريل ﴿ذو مرَّةٍ﴾ أى ذو طاقة قوية ﴿فاستوى﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ قبل هبوطه إلى الأرض ﴿ثم دنا﴾ أى قرب ﴿فتدلَّى﴾ أى اشتد قربه من الرسول حتى أصبح منه ﴿قابَ﴾ أى قدر ﴿قوسين أو أدنى﴾ أى أنه صار منه على بعد قوسين محدودين فقط ﴿فأوحى﴾ ربّ العزة ﴿إلى عبده﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ما أوحى﴾ من القرآن العظيم .

وفى الحديث النبوى الثانى سأل الحارث بن هشام رضى الله عنه الرسول صلَّى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى ؟ فقال أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه علىَّ ، فينفصل عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول . وصوَّر الحديث الثالث بدء نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم تصويرا بديعا ، وكانت سورة العلق : ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أول سورة نزلت عليه صلى الله عليه وسلم . وأبطأ عليه الوحى بعدها فترة ، وتحدث الرسول صلَّى الله علسه وسلم عنها وما رآه فى انتهائها قائلا كما فى الحديث الرابع : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحِراء جالس على كرسى بين السماء

والأرض فرُعبت منه ، فرجعت . فقلت زَمِّلونى ، فدثِّرونى ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها المدَّثِّر . قُمْ فأنذرْ . وربَّك فكبِّرْ . وثيابَك فطهِّر . والرُّجْزَ فاهْجُر﴾ – والمدثر بذلك ثانية السور نزولا على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويخاطب الله – عزَّ شأنه – رسوله صلى الله عليه وسلم فى آية سورة النساء قائلا : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنَّبيين من بعده﴾ ، وفى ذلك ما يفيد أن الأنبياء يوحى إليهم مثل الرسل ، غير أن الأنبياء لا يؤمرون – مثل الرسل – بالتبليغ وهم يدعون إلى الخير والعمل الصالح ، ولكن دون تبشير بثواب وإنذار بعذاب . ونوح أول رسول فى الأرض ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ (ابنه من هاجر المصرية) ﴿ وإسحاق﴾ (بن إبراهيم من سارة ابنة عمه فيما يقال) ﴿ ويعقوب﴾ (بن إسحاق الملقب بإسراءيل) ﴿والأسباط ﴾ (أى أسباط إسحاق وأحفاده) ﴿وعيسى بن مريم وأيوب﴾ وهو نبى مثل يعقوب وإسحاق) ويونس (رسول نينوى مدينة الأشوريين) وهرون (أخو موسى مرسل مثله إلى بنى إسرائيل) وسليمان (بن داود) وداود أنزل الله عليه كتابه الزبور . ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ﴾ فى آيات القرآن مثل هود ولوط وصالح وشعيب وإلياس واليسع وزكريا ويحيى ﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ لم نذكرهم فى القرآن ﴿وكلَّم الله موسى تكليما﴾ تشريفا له وتكريما .

ويقول الله – عزَّ سلطانه – لرسوله فى الآية الرابعة عقب الوصايا الإحدى عشرة التى ذكرها فى سورة الإسراء فى خمس عشرة آية من قوله تعالى : ﴿وقضى ربك﴾ إلى قوله ﴿ مكروها﴾ . (ذلك) أى ما ذكره من هذه الوصايا وما فيها من الأوامر والنواهى ﴿مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ التى ينبغى على كل مسلم أن يعمل بها مخلصا صادقا .

٢ - القرآن

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ

البقرة ١٨٥

٢ - هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾

آل عمران ٧

٣ - وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ

المائدة ٤٨

٤ - ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾

الإسراء ٨٨

الأحاديث

١ - عن وائلة بن الأسقع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أُنْزِلتْ صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان .

(رواه ابن حنبل فى مسنده وابن كثير فى تفسيره)

٢ - عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلا الآية الثانية وقال : فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىَّ الله فاحذروهم . (رواه البخارى فى تفسير الآية ومسلم فى كتاب القدر من صحيحه وأبو داود فى سننه) .

٣ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن - معاشرَ الأنبياء - إخوةٌ لعَلاَّتٍ[1] ، ديننا واحد . (رواه البخارى وابن كثير فى تفسيره) .

٤ - عن أنس بن مالك وقد سُئل عن تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن .

فقال : كان يمدّ مدًّا ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ومدَّ بسم الله ومدَّ بالرحمن ومدَّ بالرحيم . (رواه البخارى فى باب الترتيل فى القراءة) .

والله تبارك اسمه - فى الآية الأولى يذكر أن القرآن أُنزل على رسوله محمد فى شهر رمضان ، وقد اختار هذا الشهر - جلَّ جلاله - لينزل فيه كتبه الإلهية على رسله : إبراهيم وموسى وعيسى كما يوضح ذلك الحديث الأول الذى رواه ابن حنبل فى مسنده ، وقد أُنزل القرآن - والرسول فى سن الأربعين - فى ليلة القَدْر كما قال تعالى : ﴿إنا أنزلناه فى ليلة

(١) بنو العلات : بنو الأمهات الضرائر .

القدر﴾ وقال أيضا ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ . والله – بذلك – يذكر بَدْءَ نزول القرآن على رسوله . وقد أخذ ينزل بعد ذلك على الرسول مفرقا حسب الأحداث والوقائع طوال ثلاثة وعشرين عامًا . والقرآن هو اسم جميع الكلام الموحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المدوَّن في المصاحف المشتمل على مائة وأربع عشرة سورة أولاها الفاتحة وآخرها سورة الناس . وأصل هذا الاسم مصدر كالغفران والشكران ، والله اختاره علما على وحيه المنزَّل على رسوله محمد ، وهو أشهر أسمائه ، وأكثرها ذكرا في آياته ودورانا على ألسنة المسلمين . وله أسماء أخرى ذكرها الله في آياته أصلها مصادر ، وأهمها خمسة : الكتاب كما في قوله تعالى : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ والفُرْقان كقوله تعالى : ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده﴾ والوَحي كما في مثل : ﴿قُلْ إنما أنذركم بالوحي﴾ والذكر في مثل : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس﴾ والتنزيل في مثل : ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ . والآية فيه قدر من كلام الله محدود قد يطول كآية الدَّين في سورة البقرة ، وقد يقصر حتى يصبح كلمة واحدة مثل : ﴿ مدهامَّتان﴾ في سورة الرحمن . والسورة فيه مأخوذة من السور المحيط بالبناء ، وهي مقدار معين من آيات القرآن معلومة الأول والآخر وأقلها ثلاث آيات مثل سورة الكوثر ، وقد تطول إلى مائتين وست وثمانين آية مثل سورة البقرة . وأسماء السور وترتيب الآيات فيها بتوقيف من الرسول صلَّى الله عليه وسلم .

والله – جلَّ شانه – يقول في الآية الأولى إنه أنزل القرآن هُدًى وإرشادا للناس حتى يقيهم الضلال والانحراف عن صراط الله المستقيم ، ويقول إنه ﴿ بينات﴾ أي دلائل وحجج تكشف عن الحقائق للهدى . والفُرْقان : الفارق بين الرشد والضلال .

والله – تقدَّس اسمه – يقول في الآية الثانية إن في القرآن آيات محكمات ﴿هن أمُّ الكتاب﴾ أي أصله ومرجعه ، وهي آيات العقيدة والشريعة الإسلامية بأوامرها ونواهيها وآيات المواعظ وما يتصل بها من قصص الأنبياء . وفيه آيات متشابهات تقابل المحكمات ، وهي قليلة بالقياس إلى الأولى وتدل على معان متشابهة ويمكن أن يفسَّر المحكم بما يتضح معناه بمجرد سماعه ، والمتشابه بما يحتاج إلى تفكير وتدبُّر مثل الآيات الكونية كخلق الله للسموات والكواكب والشمس والفَلَك والبحار والأنهار والأشجار والنباتات وتسخيرها جميعا لمشيئته الربانية ، ومثل الآيات المتصلة برب العزة كقوله تعالى : ﴿ثم اسْتَوَى إلى السماء – الرحمن على العرش اسْتَوى – وكان عرشه على الماء – يَدُ الله فوق أيديهم – وَسع كرسيُّه السموات والأرض﴾

مما يحتاج إلى تأويل إذ الله منَزَّه عن التجسيم وعن كل ما يفيد شبها بالآدميين . ويقول الله في الآية : ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ﴾ أى انحراف عن اتباع الحق ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أى يعكفون على الحديث والخوض فيه ﴿ابتغاء الفتنة﴾ أى الإغراء والإضلال لأتباعهم ﴿وابتغاء تأويله﴾ أى تحريف معناه . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى : إذا رأيت الذى يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله (أى فى الآية) فاحذروهم . ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم﴾ : الذين فقهوا علم الكتاب وعرفوا احتمالات عباراته وتأويلها تأويلا سليما بما يستقيم مع استعمالات الكلام العربى البليغ وما يجرى فيه من مجاز وتمثيل واستعارة ﴿يقولون آمنا به﴾ أى بالمتشابه ﴿كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ أى العقول السليمة الذين يتدبرون معانى الآيات تدبرا سديدا . وكثير من أهل السنة يقفون فى الآية على قوله تعالى : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ وحده . ثم يقرءون ﴿والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ .

والآية الثالثة توضح موقف القرآن الكريم وشريعته الإسلامية إزاء التوراة وشريعتها اليهودية والإنجيل وشريعته المسيحية ، فهو مصدق للشريعتين فى توحيد الله وفى الأحكام التى لا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأمم والعصور ، وفى ذلك يقول الرسول الحديث الثالث وهو أن الأنبياء فى دعواتهم الدينية لعبادة الله وتوحيده كأنهم إخوة من أمهات ضرائر لأب واحد . والقرآن مهيمن على التوراة والإنجيل وشريعتيهما مسيطر عليهما يبطل وينسخ بعض الأحكام فى الشريعتين لمصلحة الأمم كما قال تعالى : ﴿ما ننسخ من آية﴾ من آيات الكتب السماوية ﴿أو نُنسها﴾ أى نؤجلها ﴿نأتِ بخير منها أو مثلها﴾ للمكلفين فى الشريعة الإسلامية وتشهد لذلك الآية رقم ١٥٧ فى سورة الأعراف ، إذ تنصُّ على أن الشريعة الإسلامية تضع عمن يسلم من اليهود والنصارى ﴿إصرَهم والأغلال التى كانت عليهم﴾ فى شريعتيهما ، وهى الأوامر والنواهى الشاقة المكلفون بها . والقرآن — بذلك — يهيمن على التوراة والإنجيل بنَسْخه لبعض أحكامهما ووضعه بدلا منها أحكاما جديدة يُرْعى فيها المصلحة لعباده أتباع الشريعة الإسلامية آخر الشرائع الدينية .

والآية الرابعة تذكر أن القرآن كتاب معجز ببيانه وبلاغته وأنه لو اجتمعت الإنس والجن واتحدوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى الفصاحة والبلاغة ما استطاعوا سواء حين يتحدث عن عبادة الله ووحدانيته وجلاله أو عن خَلْقه للكون أو عن البعث والنشور أو عن الشريعة

التى تحقق للناس السعادة فى الدارين أو عن الآداب والمواعظ . وقد عجزت قريش والعرب عن أن يأتوا بما يماثله ، ودخلت الجزيرة جميعا فى دين الله ، ومضى المسلمون ينشرون أضواء القرآن المعجزة الباهرة على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرينيه على حدود فرنسا .

ويشير الحديث الرابع إلى ما وضعه الله من آداب فى تلاوة القرآن والاستماع إليه ، أما فى التلاوة فقال لرسوله فى سورة المزمل : ﴿ورتّل القرآن ترتيلا﴾ أى اقرأه على تمهل فكان يمدُّ الألفاظ كما يقول الحديث الرابع . وأحاديث كثيرة تدل على استحباب الترتيل وتحسين الصوت فى القراءة كقول الرسول : زيِّنوا القرآن بأصواتكم . ويقول الله فى سورة الأعراف : ﴿وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرحمون﴾ ولذلك لا يجهر المصلون وراء الإمام فيما يجهر به ، أما حين لا يجهر فيقرأ المصلون خلفه الفاتحة سرا . والقرآن الكريم يزيد على ستة آلاف آية واختلف الأسلاف فى المزيد فمنهم من قال المزيد نحو مائتين ، ومنهم من زاد على ذلك . منها خمسمائة لأحكام الشريعة ، وأكثر البقية للتوحيد وقصص الأنبياء والعظة .

٣ - الله

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

الإخلاص ١ ـ ٤

٢ - ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾

الأنبياء ٢٢

٣ - ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾

الأنعام ٥٩

٤ - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾

الشورى ١١

الأحاديث

١ – عن عبادة بن الصامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة (رواه البخارى) .

٢ – عن أبى موسى الأشعرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أحد أصبر على أذًى سمعه من الله : إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم (رواه البخارى ، ومسلم بصحيحه فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) .

٣ – عن ابن مسعود أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم أىُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك (رواه البخارى ومسلم) .

٤ – عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ : ﴿إن الله عنده علمُ الساعة﴾ الآية فى آخر سورة لقمان (رواه البخارى) .

والله – تبارك وتعالى – يقول فى آيات سورة الإخلاص : ﴿قل هو الله أحد﴾ وكلمة ﴿هو﴾ ضمير تفسره الجملة التالية له ، وهى ﴿الله أحد﴾ والصوفية يطلقون (هو) على الله فيما اعتادوه من ذكر ، فيهتفون : (هو – هو) بسكون الواو ، وكأنها – عندهم تعيِّنه وحده ، إذ لا يحسُّون موجودا بعيون بصائرهم سواه . و ﴿الله﴾ علم دال على الذات العلية دلالة مطلقة ، يجمع كل معانى أسمائه الحسنى وما تصوره من التعظيم والتمجيد والتقديس والكمال والجلال والربوبية ، و ﴿أحد﴾ اسم بمعنى واحد يقرر وحدانية الله من كل الوجوه : فى الذات والصفات والأفعال والعبادة ، أما أحديته أو وحدانيته فى الذات فمعناها أنه مستقل بوجوده ، وأن وجوده أزلى ، ومنه انبثق الوجود كله وكائناته التى أوجدها بعد عدم ، إنه واجب الوجود الذى لا أول لوجوده ولا آخر . وهو ﴿أحد﴾ فلا إله سواه ، وإن إشراك أى شىء أو أى قوة من قوى الطبيعة التى خلقها له فى الألوهية شِرْك وكفر . وكان العرب فى الجاهلية قد عبدوا آلهة متعددة من الكواكب السماوية مثل الشمس والقمر والزهرة ومن الطير مثل النسر ومن الشجر والصخر مثل مناة . وكان منهم من عبد إلهين : إلها للنور وإلها للظلمة مثل أهل إيران . وكان منهم من قال إن الله ثالث ثلاثة من الآلهة ،

فأعلن القرآن الكريم مرارا وتكرارا أن الله لا شريك له وأن كل من عبد غيره مشرك كافر يستحق غضب الله وعذابه الأليم ، ولن يعفو عنه ، ولن يغفر له كما قال تعالى فى سورة النساء ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويَغْفر مادون ذلك لمن يشاء ومَنْ يُشْرِكْ بالله فقد ضلَّ ضلالا بعيدًا﴾ . ووحدانية الصفات تعنى تنزيه الله فيها عن صفات المخلوقين من البشر ، فهو منفرد بصفاته تفرده بذاته ، وما جاء فى القرآن الكريم من وصفه بأنه سميع أو بصير أو متكلم فإن ذلك لا يعنى أن لله – جلَّ شأنه – اذنا أو عينا أو لسانا أو جوارح كجوارح الإنسان ، إذ هو فوق كل تكيُّفٍ حسى وكل تشكل مادى ، إنما يعنى ذلك انكشاف الأشياء له ، وأن هذه الأشياء تتعلق بذاته تعلق إدراك لا بجارحة شأن البشر . وصفات الله فى القرآن الكريم ، منها ما يصور عظمة الله وجلاله مثل : المتعال – العظيم – الحميد – المجيد – القدوس . ومنها ما يصور خلق الكون والوجود مثل : البارىء – المصور –الخالق –البديع . ومنها ما يصور القدرة الإلهية مثل : القادر – القهار – المهيمن . ومنها ما يصور العلم الربانى مثل : العليم –الخبير – الحكيم . ومنها ما يصور رحمة الله بعباده مثل : الرءوف . الرحمن . الرحيم ، إلى غير ذلك من صفات قد تلتقى بصفات البشر ، ولكنها تختلف عنها فى الجنس والنوع هى وكل ما يتصل بالذات الإلهية . وأحدية أو وحدانية فى الأفعال : وهى خلق الكون وتدبير قوانينه كقانون خلق الأشياء من زوجين كما قال تعالى فى سورة يَس : ﴿سبحانَ الذى خلقَ الأزواج كلَّها مما تُنْبِتُ الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ . ووراء هذا القانون قوانين أخرى منبثَّة فى الكون تمسكه أن يزول : قوانين صانع الكون ومبدعه دون أى شريك ، إذ لو كان له شريك أو شركاء لفسد الكون كما سيوضح ذلك فى الآية التالية ، إنه لصانع واحد أبدع كل ما فى الوجود إبداعا يدل على تفرده فى الخلق والتكوين . وأحدية الله فى العبادة أو وحدانيته هى عبادته وحده ، وكان العرب فى الجاهلية يعبدون آلهة متعددة كما أسلفنا ، فاستأصل الله فى نفوسهم هذه العبادة الوثنية ، وأصبحوا معتنقين لوحدانية الله مؤمنين بكتابه ورسوله وبالبعث والمعاد . وكل من آمن بذلك حقت له الجنة كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول : من شهد بوحدانية الله ولم يشرك به أحدا وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة .

﴿الله الصمد﴾ أى المقصود فى المطالب والحاجات وحده ، فهو الملجأ وهو الملاذ

المستعان المستغاث ، إنه الخالق الوهاب الحافظ ، كل شىء بيده وفى قبضته ، المحيى المميت ، وكل حى يتجه إليه شاعرا بضعفه وأنه محتاج إلى عونه وبِرِّه ، وقد فتح - بلطفه - ابوابه أمام عباده ليسألوه ويُنيلهم ما يطلبون ، وفى ذلك يقول فى سورة البقرة : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الدَّاعِ إذا دعانِ فَلْيَسْتجيبوا لى ولْيؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ وفى الحديث النبوى ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : اما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدَّخرها له ، وإما أن يكفُّ عنه من السوء بمثلها . ولابد للداعى من حسن طاعته لربه فى أوامره ونواهيه وشريعته ، مع التضرع فى الدعاء والثناء على الله . وينبغى أن يكون الدعاء فى أغراض ومقاصد حسنة .

والله منزَّه .. كما فى الآية الثالثة - عن أن يكون أبا للملائكة كما كان يقول العرب أو أبا لعزير كما كان يقول اليهود أو أبا للمسيح كما يقول النصارى . وفى ذلك يقول جلَّ شأنه - فى سورة الأنعام : ﴿بديعُ السموات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كلَّ شيىء وهو بكل شيىء عليم﴾ والله ينزه نفسه عن مماثلة الآدميين فى اتخاذ الصاحبة أو الزوجة واتخاذ الأولاد ، وهو خلقهم جميعا .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما فى الحديث الثانى - لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم ويدفع عنهم كل أذى وشر ، وكيف يكون المسيح إلها كما يقول المسيحيون ، وهو مخلوق لربه حملت به أمه ، ولما وضعته أرضعته مثل غيره من الأولاد ، وكان هو وأمه السيدة مريم يأكلان الطعام كما فى سورة المائدة . وينزِّه الله نفسه فى الآية عن أن يكون مولودًا إذ لو كان مولودا لكان حادثا بعد عدم واحتاج إلى من يوجده وبطلت ألوهيته . ويختم الله آيات السورة بقوله : ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾ أى ولم يكن إنسان مثيلا له فهو منزه عن الشبه بالمخلوقين تنزيها يليق به ، ولا أحد يماثله فى أى شىء من الأشياء . وقد رَدَّ بعنفٍ فى القرآن الكريم مرارا وتكرارا على من جعلوا له أندادا أى أشباها ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

ويقول الله - تقدَّس اسمه - فى آية سورة الأنبياء : ﴿لو كان فيهما﴾ أى فى السموات

والأرض ﴿آلهة إلا الله لفسدتا﴾ أى لاختلَّ نظام الكون ، إذ لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفا بصفات الألوهية من الإرادة المطلقة والقدرة الكاملة على التصرف ، مما ينشأ عنه بينهم تعارض فى القدرة والإرادة ، وأوضح الله ذلك فى سورة المؤمنون فقال : ﴿وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق﴾ وانفرد به فلم ينتظم الوجود ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ إذ كان كل منهم يطلب قهر الآخرين والعلو عليهم ، فتتضارب إراداتهم ويتصارعون والغالب يكون هو الإله . ولو فرضنا أن للعالم إلهين أحدهما أراد خلق شيء والآخر لم يرد ذلك ، فإن حصل مراد أحدهما كان هو الله ، وانتفت الألوهية عن الثانى لعجزه عن تنفيذ إرادته . والمشاهد فى الكون تحت أبصار الخلق أنه منتظم غاية الانتظام ومتسق غاية الاتساق مما يدل على أن صانعه وواضع قوانينه إله واحد لا شبيه له ولا منازع . ووحدانية الله أساس الديانات السماوية جميعا ، والقرآن ملىء بتثبيت هذه العقيدة وأن من يؤمن بأن لله ندا أو شريكا فقد كفر به واستحق عقابه وعذابه الأليم . ويسأل ابن مسعود – فى الحديث الثالث – رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعظم الذنوب عند الله فيقول له : أن تجعل له نِدًّا أى شريكا وهو خلقك . وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل : أتدرى ما حق الله على العباد ؟ فقال الله ورسوله أعلم ، فقال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ثم قال الرسول له : أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ، ثم قال : أن لا يعذبهم .

ويقول الله – تقدس اسمه – فى الآية الثالثة : ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ وفسَّر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المفاتح للغيب بخمسة أمور مغيبة عن الناس . كما جاء فى الحديث الرابع وقرأ فى بيانها آخر آية فى سورة لقمان ، وهى : ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ أى يوم القيامة ومتى يكون ﴿وينزِّل الغيث﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل وهل ينزل ليلا أو نهارا ﴿ويعلم ما فى الأرحام﴾ فلا يعلمه أحد أذكرا أو أنثى وبأى لون أو صورة ﴿وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غدًا﴾ وهل تكسب قليلا أو كثيرا وماذا تكسب أخيرا أم شرا ﴿وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت﴾ أفى موطنها أو خارجه وفى أى مكان . وهذه المغيبات الخمسة من أحوال الناس ، سميت بمفاتح الغيب لأنها مجهولة لهم . وتدل بقية آية الأنعام على أن علم الله يحيط بكل مافى البر والبحر من أشياء حتى الورقة حين تسقط من شجرتها وحتى الحبة من بذور النبات حين تُبْذَرُ فى ظلمات الأرض وطبقاتها العميقة ، وما يسقط من رطب ولا يابس ﴿إلا فى كتاب مبين﴾ أى إلا فى علمه – جَلَّ شأنه – والآية تثبت خطأ بعض فلاسفة الإسلام فى قولهم إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات .

والآية الرابعة تنزه الله عن أن يكون له مماثل إذ ﴿ليس كمثله شيء﴾ أى ليس فى الموجودات شىء مماثل له فى صفات ذاته العلية ، ويجمع أهل السنة والمعتزلة ومتكلموهم على تنزيهه عن الجوارح والأعضاء ، وما ورد فى القرآن الكريم مما قد يوهم تشبيها يثبته أهل السنة مع تنزيه الله - جَلَّ شأنه - عن ظاهره إذ لا خلاف بينهم وبين المعتزلة فى أن ﴿ليس كمثله شىء﴾ وأنه لا مثيل له ولا شبيه . أما المعتزلة فيؤوِّلون ما يوهم تشبيها مثل تأويل وجه الله فى سورة البقرة وغيرها بأنه ذاته ومثل ﴿عينى﴾ فى صورة طه بأنها العلم والرعاية ومثل ﴿يد الله﴾ فى سورة الفتح بأنها قدرته . والقرآن - بذلك - ينزِّه الله تنزيها مطلقا عن شبهه بالإنسان وبأى شىء ، تقدست ذاته وسمت سموا عظيما .

٤ – محبة الله لعباده

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ – ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

آل عمران ٣١

٢ – ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

التوبة ٤ و ٧

٣ – ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

البقرة ٢٧٢

٤ – ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾

الإنسان ٨

الأحاديث

١ – عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله عليه وسلم قال فى حديث قدسى يرويه عن ربِّه عز وجل : إذا تقرب العبد إلىَّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرَّب منى ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا أتانى مشيا أتيته هرولة (بلفظ البخارى فى كتاب التوحيد ، ورواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء) .

٢ – عن أبى هريرة قال رسول الله : إن الله قال فى حديث قدسى ما تقربَّ إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنّه (رواه البخارى فى كتاب الرقاق) .

٣ – عن أبى هريرة قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : إن الله تعالى يحبُّ فلانا فأَحْبِبْه ، فيحبه جبريل : وينادى فى أهل السماء : إن الله .. يحبُّ فلانا فأَحِبُّوهُ ، فيحبّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض (رواه البخارى ، ومسلم فى كتاب البر والصلة) .

٤ – عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هل الدِّين إلا الحب فى الله والبغض فى الله (رواه مسلم وابن كثير فى التفسير) .

والله – عزَّ وجل – يأمر فى الآية الأولى رسوله أن يقول للمؤمنين ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ أى إن كنتم تريدون أن يسبغ الله عليكم محبته فاتبعوا شريعتى . ومحبتهم لله إنما هى لذاته ولكمالاته فى خلقه للكون وما أشاع فيه من النظام ، وكمالاته فى الشريعة الإسلامية وما أشاع فيها من الرحمة والخير للإنسان . وتستلزم هذه المحبة من المسلم أن يطيع الله فى أوامره ونواهيه ويجتنب كل ما حرَّمه ويغضبه ، وأن يعبده حق عبادته ملتزما كل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، شاكرا لله هدايته إلى هذا الدين القويم ، وشاكرا له أنعمه التى لا يحصيها عدد ، حينئذ يضفى الله عليه محبته العظمى ، وأى محبة ! إنها محبة الله التى لا تماثلها محبة ، إذ تغمره وتكتب له الغفران ، ويفيض الله عليه من كرمه إذ هو أجود الأجودين ، كما يصورها الحديثان الأول والثانى ، فإن العبد المحب إذا تقرَّب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا ، وإذا تقرب ذراعا تقرب منه باعا ، وإذا مشى إليه أتاه هرولة . وكل ذلك تمثيل فى الجانبين ، والمراد منه أن من أدَّى إلى ربه شيئا من الطاعات والعبادات فإنه

يتقبلها ويجزيه عليها جزاءً مضاعفا ، وكلما زاد فيها زاده الله فى الرضا والثواب أضعافا مضاعفة .

والحديث الأول من الأحاديث الدالة على محبة الله لعباده الصالحين محبة تفوق الوصف ، ومثله الحديث القدسى الثانى ، والله فيه يقول إن أى عبد من عباده الصالحين إذا تقرَّب إليه بالنوافل وهى كل ما يتطوع به المسلم الصالح من أنواع العبادات كقراءة القرآن الكريم التى تعد من أعظم ما يتقرَّب به لربه ، ومثلها الذكر القائل فيه رب العزة : ﴿ فاذكرونى أذكركم﴾ وبالمثل الورع والتوكل على الله حق التوكل والتقوى . والله يكرر فى القرآن – كما فى الآية الثانية ، أنه يُحب المتقين ، ويقول الله إن عبده الصالح لا يزال يتقرَّب إليه بالنوافل حتى يحبه ، فإذا أحبه أثابه مثوبة كبرى ، فصار حافظ سمعه الذى به يسمع وبصره الذى به يبصر ويده التى بها يبطش ، ولا يبطش بها إلا أعداء الله وما أحلّ له البطش به . ومعنى الحديث أن من يحبه الله يحفظ جوارحه وأعضاءه ويصونها بحيث لا يسمع ولا يبصر ولا يبطش بيده ولا يمشى بقدمه إلا فيما ورد به الشرع ، والله معه دائما يعينه ويؤيده . والصوفية يستغلون هذا الحديث فيما يزعمونه من الاتحاد بالله وحلوله فيهم ، وكأنهم يفهمونه فهما ظاهريا زاعمين أنه على حقيقته ، تعالى الله عما يزعمون علوا كبيرا . والحديث الثالث يعرض صورة من صور الكرم الإلهى فى الحب ، فإن الله إذا أحبَّ شخصا أعلم بحبه له جبريل فأحبه ، ونادى أهل السماء من الملائكة بأن الله يحبه فيحبونه ، ويكتب له القبول بين أهل الأرض ، فيوده كثيرون منهم . ويؤكد الحديث الرابع أن الدين ليس إلا الحب فى الله ، وكأنه يدعو المسلمين جميعا إلى محبة ربهم حتى ينالوا محبته ورضاه .

وقد أحبَّ الله ضعفاء الأمة الإسلامية من الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل وأبناء السبيل ، ففرض لهم الزكاة فى الشريعة الإسلامية ، ووضعها فى المرتبة العليَّة من العبادات ، فلم يأمر بإقامة الصلاة فى آية قرآنية إلا أمر معها بالزكاة وأن يقدم كل شخص من ماله حقا مقررا معلوما للضعفاء المذكورين آنفا وللصالح العام . وبذلك أصبح لهم حق ثابت فى مال الأغنياء ، وأضاف إليه الصدقة ودعا إليها ذوى اليسار دعوة واسعة ، حتى ينالوا مثوبته ونعيم الآخرة الخالد ، وسمَّاها تلطفا قرضا حسنا قائلا : ﴿من ذا الذى يُقْرِض الله قرضا حسنا فيضاعفَه له أضعافا كثيرة﴾ وكأن من يعطى فقيرا أو مسكينا أو يتيما محتاجا أو أرملة أو ابن سبيل إنما يعطى ربه ، ويستثمره عنده استثمارا لا يمكن أن يبلغ مقداره استثمار فى بنك من البنوك ، إذ

جعله يتضاعف إلى سبعمائة ضعف أو أكثر قائلا فى سورة البقرة : ﴿مثلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبَّة أنبتتْ سبعَ سنابلٍ فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾ ويقول : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالّليل والنّهارِ سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ . وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قمت على باب الجنة فإذا عامة مَنْ دخلها المساكين .

وهذا الحب الإلهى والعطف الربانى على ضعفاء المسلمين شفعه الله فى القرآن الكريم بعطف مماثل على الفقراء والمحتاجين من المشركين ، فقد ذكر المفسرون أن سبب نزول الآية الثالثة – كما قال ابن عباس – أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأن لا تعطى الصدقة إلا للمسلمين ، فامتنعوا أن يعطوها للمشركين من قريش ، فنزلت الآية تقول للرسول إن إسلام هؤلاء المشركين الفقراء وهداهم ليس مفوضا إليك ، بل هو مفوض لله ، ويقول الله ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ أى أن المتصدق إذا تصدق وقع أجره على الله ، ولا عليه إن كان من أعطاه الصدقة مسلما أومشركا إذ هو مثاب عليه كما تقول بقية الآية : ﴿وما تنفقوا من خير يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ وبذلك جوَّز الله الصدقة لفقراء الكفار المختلطين بالمسلمين عطفا منه ولطفا إذ هم من عباده . ويقول اللهفى وصف الأبرار بسورة الإنسان ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ أى وهم فى حاجة إليه ﴿مسكينا ويتيما﴾ من المسلمين ﴿ وأسيرا﴾ من الكفار ويشهد لذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر ووقوع سبعين من قريش أسرى فى أيدى المسلمين أن يكرموهم . وكل ذلك يشهد بعطف الله على الفقراء من عباده حنفاء مسلمين أو مشركين كافرين .

٥ - محمد رسول الله

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾

الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦

٢ - لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

التوبة : ١٢٨

٣ - لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

الأحزاب : ٢١

٤ - وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

القلم : ٣ ، ٤

الأحاديث :

١ – عن جابر رضى اللهعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا ، فجعل الجنادب[1] والفراش يقعن فيها وهو يَذُبُّهن عنها ، وأنا آخذٌ بحُجَزِكم[2] عن النار ، وأنتم تفلَّتون من يدىَّ (رواه مسلم فى صحيحه بكتاب الفضائل) .

٢ – عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :لا تُطْرُونى كما أطْرَت النصارى ابنَ مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله (رواه الترمذى فى الشمائل) .

٣ – عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس ، فيُفْرَضَ عليهم (رواه البخارى ومسلم) .

٤ – سُئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول صلَّى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

والله– تقدَّس اسمه – فى آيتى سورة الأحزاب يصف الرسول – صلَّى عليه وسلم – بخمس صفات أولها أنه شاهد ، ولها تأويلان أنه شاهد بشريعته على شرائع الديانات السماوية السابقة بحيث تستبقى منها ما فيه مصلحة أمته والبشر ، وتنسخ ما لا يتفق مع تلك المصلحة كما قال تعالى فى سورة المائدة :﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ بشريعة كتابك التى تهيمن وتسيطر على ما قبلها من الشرائع بحيث تبطل منها ما لا يتفق ومصلحة العباد فى عصر الرسول وبعد عصره . وكما قال – جَلَّ شأنه – فى سورة الأعراف إن الرسول يأمر اليهود والنصارى بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التى كانت عليهم﴾ أى أوامر شريعتيهما الثقيلة .والتأويل الثانى لشاهد أن يكون الرسول شاهدا على أمته يوم القيامة كما قال تعالى فى سورة النساء : ﴿وجئنا بك على هؤلاء﴾ أى أمتك ﴿شهيدا﴾ ، ويقول جل شأنه : ﴿ ومبشِّرًا﴾ أي مخبرا بأخبار مفرحة سارة لمن يتبعون دينك ويطيعون الله ورسوله

(١) الجنادب : نوع من الجراد

(٢) حجزكم : معاقد ثيابكم

﴿ونذيرا﴾ للعاصين لله ورسوله من المشركين والكفار بأن مصيرهم إلى النار وعذاب شديد . وما أروع الحديث الأول الذى ضرب به الرسول صلى الله عليه وسلم مثله مع قومه ، وهو يريد أن ينجيهم من النار وعذاب ربه باعتناق دينه ، بمثل رجل أوقد نارا والجنادب والفراش تقع فيها وهو يذبها عنها كما يذب الرسول قريشا والعرب عن النار الإلهية ، وأنه ليأخذ بمعاقد ثيابهم عطفا عليهم ، وهم أو بعبارة أدق مشركوهم يتفلّتون من يديه . ويقول - جلّ وعز - ﴿وداعيا إلى الله بإذنه﴾ أى داعيا الناس إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿وسراجا منيرا﴾ آخر الصفات الخمس للرسول أى تهدى إلى الحق وشريعة الله كما يهدى السراج الوضاء فى المكان المظلم ، وكما ينبلج نور الصباح فى أعقاب الليل الداجى .

ويمتنُّ الله - تبارك اسمه - على العرب فى آية سورة التوبة بأنه أرسل إليهم رسولا من ذات أنفسهم وصميم أنسابهم العريقة يتلو عليهم قرآنا بلغتهم كما قال تعالى : ﴿وإنه لذكر﴾ حسن ﴿لك ولقومك﴾ فحرى بهم أن يفخروا به ويتبعوك ويلتفّوا حولك . ويقول - جَلَّ شأنه - ﴿عزيز عليه ما عَنِتُّم﴾ أى أنه يعزُّ عليه ويشقُّ ما يُعْنِتكم ويصيبكم بعنتٍ وشِدَّة ، ولذلك كانت شريعته سهلة يسيرة كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿يريد الله بكم اليُسْر ولا يريد بكم العُسْرَ﴾ ويقول فى سورة الحج : ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ . وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها فى الحديث الثالث : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبدعُ العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيُفْرَضَ عليهم ، ولذلك كان ينهى أصحابه عن كثرة السؤال فى الأشياء ، ومن قوله : دعونى ما تركتكم ، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتم . ويصفه الله بأنه ﴿حريص عليكم﴾ أى حريص على هدايتكم ، بالمؤمنين ﴿رءوف رحيم﴾ وهما وصفان إلهيان لربه فى مثل قوله تعالى : ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ وقد أسبغهما على رسوله ، وكان رءوفا بالمؤمنين منتهى الرأفة ، رحيما بهم منتهى الرحمة ، رفيقا بهم منتهى الرفق لين الجانب ، وفى ذلك يقول الله فى سورة آل عمران : ﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم﴾ ولان قلبك تأليفا لهم وتحبُّبا . وتقول السيدة عائشة أم المؤمنين إنه لم يكن ينتصر لنفسه من مظلمة ظُلم بها قط ولا يجزى السيئة بالسيئة .

ويشهد له خادمه أنس بن مالك برفقه ورأفته المتناهية إذ يقول : لزمت رسول الله صلّى الله عليه وسلم عشر سنوات فما قال لى : أفٍّ قط ، ولا قال لشىء فعلتهُ لِمَ فعلته ؟ ولا لشىء

لم أفعله ألا فعلته . ووصفته السيدة خديجة أم المؤمنين حين نزل عليه الوحى لأول مرة وجاءها فزعا ، فطمأنته قائلة : إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ[1] وتُكسب المعدوم[2] وتَقْرى[3] الضَّيْفَ وتعين على نوائب الحق . وهى بذلك تصفه قبل مبعثه وأنه كان يحسن إلى ذوى رحمه ويكفل الكلّ أى المعيى الضعيف ويكسب المعدوم الفقير ويكرم الضيف ويساعد فيما ينزل بالقرشيين من كوارث وخطوب . وإذا كانت هذه خصاله قبل البعثة ، فما بالنا به وقد أصبح نورا هاديا لأمته ؟ لا ريب في أن كل هذه الأخلاق الحميدة تضاعفت . ووصاياه بعون الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل والضعفاء وأبناء السبيل لا تحصى ، وسُئِل أى الإسلام خير ؟ فقال : أفضل الإسلام إطعام الجائع . ودائما رأفة ورفق ورحمة ، ولكأنه أب شفيق لكل أصحابه سهل الخلق لا يذم أحدا ولا يعيبه ، ودائما يعفو ويصفح حتى عن أعدائه .

والآية الثالثة دعوة من الله– جلّ شأنه – للمسلمين كى يأتسوا بالرسول صلّى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وجميع أحواله ويقتدوا به فى كل ما حثّهم عليه من أصول العقيدة الإسلامية وفروعها من الأوامر والنواهى والأخلاق الكريمة من مثل الحلم والصبر والكرم والشجاعة والعفة والوفاء بالعهد ورعاية المرأة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والشفقة على المسلمين ورحمتهم وستر عوراتهم وبر الوالدين والأقارب والأمانة والإخلاص والمبادرة إلى كل ما فيه خير للأمة والجماعة مع التمسك بفضيلة العقل ونبذ السحر والكهانة والخرافة والشعوذة ونبذ الظلم وتحريم شهادة الزور . ومن خير ما يصور اقتداء المسلمين بالرسول على مر العصور واتخاذه مثلا أعلى لأسمى الفضائل قول ابن حزم الأندلسى فى كتابه : الأخلاق والسِّير فى مداواة النفوس : مَنْ أراد خَيْرَ الآخرة وحكمة الدنيا وعَدْل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فَلْيَقْتد بمحمد رسول الله صلَى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسِيَره ما أمكنه . أعاننا اللهعلى الائتساء به بمنّه وكرمه .

والله – جَلّ شأنه – يقول لرسوله صلَى الله عليه وسلم فى آيتى سورة القلم : ﴿وإنّ لك لأجرا غير ممنون﴾ أى أجرا متصلا غير منقطع على إبلاغك للناس رسالة ربك وصبرك على أذاهم ، والأجر : الثواب ، وهو عناية الله ورعايته ونصره له فى الدنيا ، ورعاية وعناية

(١) الكل : المعيى الضعيف .

(٢) المعدوم . الفقير

(٣) وتقرى : تكرم وتطعم .

وثواب أكبر فى الآخرة ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ والخلق هو الخصال والشمائل الخبرة ، والخلق العظيم هو الخلق المثالى الرفيع . وهى شهادة ربانية ليس وراءها شهادة ، وسُئلت السيدة عائشة أم المؤمنين عن خلقه فقالت لسائلها : كان خلقه القرآن أى كل ما فيه من الأخلاق الحميدة ، وبحق قال : إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق بفضل ما أسبعه الله عليه من الشمائل والمحامد .ومن أهم محامده وفضائله التواضع الكريم ، وفى الحديث أنه خرج على نفر من أصحابه ، فقاموا له إجلالا ، فنهاهم عن ذلك قائلا : لا تقوموا لى كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان ينهى الصحابة عن المبالغة فى الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى بن مريم وقولهم إنّه ابن الله ، ويقول إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد . وكان لا يستشعر أى عظمة أو تجلة أو قدسية فذلك كله لله وحده . وهذه إحدى الفوارق الكبرى التى تفصل بين الإسلام ودين اليهود والنصارى ، فليس فيه عبودية ولا قدسية للأشخاص ، كما يحدث عند اليهود فى تقديسهم لأحبارهم ولعُزَير وقولهم عنه إنه ابن الله ، وكما يحدث عند النصارى فى تقديسهم لرهبانهم وقولهم عن عيسى إنه ابن الله . وقد نهى الإسلام ورسوله عن عبادة الأشخاص وقدسيتهم ، فالرسول – مثل صحابته – من عباد ربه ، وفى الحديث النبوى أن رجلا قام بين يدى الرسول فأخذته رعدة شدية وهيبة عظيمة ، فبادره الرسول قائلا له : هَوِّنْ عليك فإنى لست بملك ولا جبَّار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد[1] بمكة . وسُرِّى عن الرجل وزال عنه التهيب والفزع ونطق بحاجته والرسول يهشُّ له . ولم يكتف الرسول بذلك فقد خطب فى صحابته قائلا : أيها الناس إنى أوحى إلىَّ أنْ تواضعوا ، ألا فَلْتتواضعوا ، حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد ، وكونوا عباد الله إخوانا . وكان يجالس الفقراء والمساكين ويعود مرضاهم ويعينهم عونا عظيما .

(١) القديد من اللحم ما قُطِّع ومُلِّح وجُفِّف فى الشمس والهواء .

٦ – السُّنَّة النبوية

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ – ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

النحل ٤٤

٢ – ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

النساء ٥٩

٣ – ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

الحشر ٧

٤ – ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

الأحزاب ٣٦

الأحاديث

١ – من أحاديث العمل بالسُّنّة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم بسنّتى وسنة الخلفاء الرّاشدين عَضُّوا عليها بالنواجذ[١] (رواه الترمذى وأبو داود) .

٢ – وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمرٍ فأْتوا منه ما استطعتم (رواه البخارى ومسلم وابن حنبل والترمذى) .

٣ – عن أبى موسى الأشعرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن مثلِ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ[٢] والعُشْب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس ، فشربوا منه وسَقوْ وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قِيعان لا تُمْسِكُ ماء ولا تنبت كَلأً . فذلك مثل مَنْ فَقُه فى دين الله ونفعه مابعثنى الله به ، فعلِم وعَلَّم ، ومثلُ مَنْ لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلتُ به (رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم فى كتاب الفضائل) . ويابسه .

٤ – عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ كذب علىَّ متعمّدًا فَلْيتبوأْ مَقْعِدَه من النار (رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم فى المقدمة) .

والله – تقدَّس اسمه – فى الآية الأولى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنزلنا إليك الذكر﴾ أى القرآن الكريم وما فيه من الشريعة الإسلامية ﴿لتبيِّن للناس﴾ بيانا دقيقا ﴿ مانُزِّل إليهم﴾ من أصول الدين وأحكامه التى ذكرت فيه مجملة ، فالصلاة والزكاة مثلا ذُكرتا فى القرآن مرارا مجملتين بمثل قوله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ والرسول هو الذى بيِّن الصلوات الخمس : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وكيفية كل منها وما يكون فيها من تكبيرَ الله والقرآن وذكر الله وتسبيحه واختتامها بالتحيات ، كما بَيَّن الرسول القواعد فى الزكاة وأنْصِبَتها من الزروع والأنعام والأموال وتوزيعها على الفقراء والمستحقين لها .

وسُمِّى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لأحكام القرآن ونواهيه باسم الحديث وباسم

---

(١) النواجذ . الأضراس .

(٢) الكلأ : العشب : رطبه ويابسه .

السنة ، والحديث لغة الجديد ضد القديم ، وفى اصطلاح المحدِّثين كل مارُوى عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خِلْقى مثل صفته بأنه كان أبيض مشربا بحمرة أو وصف خُلُقى مثل نعته بالحلْم والكرم والعفو والصفح عند المقدرة ، وأضاف بعض المحدثين إلى ذلك سيرته الطاهرة قبل البعثة . والمراد بالتقرير أن يفعل أحد فعلا أو يقول قولا أمام الرسول ويسكت الرسول ولا ينكره . والسنة أصلها اللغوى العادة والطريقة ، وفى اصطلاح المحدثين العادة أو الطريقة الشرعية التى جرى عمل المسلمين بها فى حياة الرسول ، وعادة تكون حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به ونهى عنه وندب إليه قولا أو فعلا ، ولذلك يقال : أصول الشرع : الكتاب والسنة أى القرآن والحديث . وهى بذلك – مثل الحديث – مُبيِّنة للقرآن الكريم وشارحة له ومصورة لأحكام الشريعة عمليا ولمبادىء الإسلام الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية . والرسول – صلى الله عليه وسلم – يوصى المسلمين فى الحديث الأول أن يعضّوا عليها بالنواجذ أى يحرصوا عليها وعلى ما تحمل من أوامر الشريعة ونواهيها ، فإنها مبينة لها وموضحة .

ويقول الله – جَلَّ شأنه – فى الآية الثانية للمؤمنين : ﴿فإن تنازعتم فى شىء﴾ أى فى أى شيئ من أصول الدين وفروعه وأحكامه ﴿فردوه إلى الله﴾ أى إلى القرآن الكريم ﴿ ورسوله﴾ أى إلى الرسول وسنته . وردّه إلى الرسول فى حياته بعرضه عليه ، أما بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى فبعرضه على أقواله وأفعاله التى تحصيها وتستوعبها السنة . والآية توجب على المسلم الاعتداد بالسنة أصلا أساسيا فى الدين ، ومن ينكرها ولا يعتد بها مطلقا يُعَدّ خارجا على أصول الإسلام ، ولذلك أكمل الله الآية بقوله : ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ وكأن من لا يعترف بالسنة لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أو المعاد . وحذّر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين من إنكار السنة فقد روى أبو داود فى سننه عن أبى رافع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا ألفينّ[1] أحدكم متكئا على أريكته[2] يأتيه الأمر مما أمرتُ أو نهيتُ عنه ، فيقول : لا نَدْرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه . أى أنه ينكر السنة وما جاء بها من الأحاديث ، ويقول نكتفى بالقرآن وما فيه من أحكام ، وهو بذلك ينكر صريح السنة التى تعد جزءا لا يتجزأ من الدين الحنيف .

(١) ألفينّ : أجدنّ .

(٢) الأريكة : مقعد منجّد .

والآية الثالثة تأمر المسلمين أن يتقبّلوا كل ما يأتيهم به الرسول صلّى الله عليه وسلم ويبلّغه إليهم من أوامر الشريعة وأحكامها ، فيعملوا بها جميعا ممتثلين لأوامره وكافّين عن نواهيه ، وفى ذلك يقول الرسول صلّى الله عليه وسلم حديثه الثانى : إذا أُمرتكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتم أى قدر ما تستطيعون ، وهو تخفيف لما يأمر به حتى لا يشق على المسلمين ، إذ الإسلام بنى على اليسر لا العسر . أما مانهى عنه فأمر باجتنابه والكفٌ عنه كفا قاطعا . والآية الرابعة عامة فى جميع الأمور الدينية ، وتعمّ جميع المؤمنين رجالا ونساء ، فلا يجوز لمؤمن ولا مؤمنة ﴿إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم﴾ الاختيار فى قبوله أو رفضه . والمراد أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحكامه الشرعية . وذِكْرُ الله مع الرسول للإشارة إلى أن طاعة الرسول طاعة لله كما قال تعالى فى سورة النساء : ﴿مَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ . ويصور الحديث الثالث المتلقين عن الرسول للقرآن والسنة فيجعلهم ثلاثة أقسام : قسما كالأرض الطيبة تلقت غيثا فانتفعت به ونفعت الناس فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وهم الفقهاء والمعلمون للناس ، وقسما كالأرض الصلبة تمسك الغيث لا تنتفع به وينتفع الناس فيشربون منه ويسقون ويزرعون وهم حاملو الشريعة لا ينتفعون بها وينتفع بها الناس ، وقسما كالأرض المجدبة لا تمسك الغيث ولا تنبت عُشْبًا ، وهم حاملو الشريعة لاينتفعون بها ولا ينفعون بها الناس . وعمل الرسول – بقوة – على نشر السنة وما تحمل من أحاديثه ، ونراه فى خطبة حجة الوداع يعقب على كل حكم بقوله : « ألا فليبغ الشاهد الغائب » . وكان يقول دائما للوفود العربية التى قدمت عليه من الجزيرة لإعلان إسلامها : « احفظوا أحاديثى وأخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر والقبائل » ومن أحاديثه المشهورة : نضَّر الله امرءا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها للناس .

وعادةً يتقدم نص الحديث النبوى فى السنة رواته ، ويسمون باسم السند ، ولم يدون منه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا معاهداته ورسائله إلى حكام بيزنطة وإيران والإمارات العربية لاعتناق الإسلام ، وما أمر بكتابته للناس فى أنصبة الزكاة ، وإلا بعض أحاديث كتبها نفر من الصحابة أمثال عبد الله بن عمرو بن العاص . وفكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخلافته فى تدوين الحديث ثم عدل عن ذلك خشية التباسه بالقرآن ، وظل الصحابة يروونه غالبا شفاها ، وأخذ بعدهم ينتقل من جيل إلى جيل شفاها ، وبذلك تكوَّن رواته أو بعبارة أدق تكونت أسانيده . وكان أول من أمر بتدوينه تدوينا عاما عمر بن

عبد العزيز فى خلافته (٩٩ – ١٠١ هـ) واستجاب له ابن شهاب الزهرى ، وأضاف إلى أحاديث الرسول أقوال الصحابه حملة الشريعة عن الرسول ، وأضاف إليها الإمام مالك فى كتابه الموطأ فتاوى التابعين . وكأنما كان الرسول يعرف ما سيحدث من وضع الفرق والأحزاب السياسية بعض الأحاديث على لسانه ، فقال حديثه الرابع : مَنْ كذب علىّ متعمدا فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار . ونشأت – منذ القرن الثانى – لعلماء السنة حركة ضخمة لتنقية الأحاديث من كل زيف ، وألفت فيه كتب كبرى بالغة الصحة مثل موطأ الإمام مالك الذى ذكرناه آنفا ، ومثله كتب المسانيد التى تجمع أحاديث الصحابة ، كل منهم على حدة ، مثل مسند الإمام أحمد بن حنبل . وأُلِّفت فى القرن الثالث الهجرى كتب الصحاح الستة لأئمة المحدثين ، وهى الجامع الصحيح للبخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجة وسنن أبى داود وجامع الترمذى وسنن النسائى . وتعد تلك الكتب جميعا أمهات السنة والحديث وأصولهما ومراجعهما الوثيقة .

٧ – الإسلام – الإيمان

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ – إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ

آل عمران ١٩

٢ – وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

آل عمران ٨٥

٣ – ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

البقرة ١٧٧

٤ – ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا

المائدة ٣

الأحاديث

١ – عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بُنِىَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان (رواه البخارى فى كتاب الإيمان وكذلك مسلم) .

٢ – عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلَّى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفَّيه على فَخِذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا[١] قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال الرسول : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر : خيره وشَرِّه قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة؟ قال : المسئول عنها ليس بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربَّتها ، وأن ترى الحُفاةَ العُراة العالة[٢] رِعاءَ[٣] الشاة يتطاولون فى البنيان . ثم انطلق (الرجل) فلبثت مَلِيًّا .[٤]ثم قال : ياعمر أتدرى من السائل ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال الرسول : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان واللفظ لمسلم) .

٣ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإيمان بِضْعٌ[٥] وسبعون شُعْبة[٦] أو بضع وستون ، وأفضلها قول لا إله إلا الله (رواه البخارى ، ومسلم فى كتاب الإيمان) .

٤ – عن العباس بن عبد المطلب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) سبيلا : قدرة .
(٢) العالة : الفقراء .
(٣) رعاء : رعاة .
(٤) مليا : فترة أو زمنا .
(٥) بضع : العدد من ثلاثة إلى تسعة .
(٦) شعبة هنا : خصلة .

ذاق طعَم الإيمان مَنْ رضِى بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

والآية الأولى تقرر أن الدين عند الله الإسلام أى الدين الكامل ، وأصل معنى الدين الجزاء ثم أطلق على عقيدة جماعة من الناس أو أمة ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان الرسول : ﴿لكم دينكم ولى دين﴾ والإسلام علم على دين محمد صلّى الله عليه وسلم وشريعته ، وسُمِّى أتباعه باسم المسلمين ، وهى تسمية ربانية كما فى قوله جَلَّ شأنه فى سورة النحل : ﴿ ونزَّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ وتتكرر الكلمة فى القرآن كثيرا .

والإسلام من السلام ومعناه السلامة والأمان ، واشتق منه أسلم إسلاما بمعنى خضع وانقاد ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ أى اخضعوا وانقادوا له . ثم عَمَّ استعمال أسلم فيمن دخل فى الدين الحنيف وأطاع الله ورسوله ، ومنه كلمة الإسلام بمعنى الدين المحمدى . والآية الأولى تجعله الدين المقبول عند الله .

والآية الثانية تقرر أن من يعتنق دينا غير الإسلام بعد مجيئه وتبليغه له ﴿فلن يقبل منه﴾ فرسالة محمد صلَّى الله عليه وسلم عامة لجميع البشر ، وهو ما لم يسبقه إليه رسول ، إذ جميع الرسل بنصوص القرآن الكريم وآياته أرسلوا إلى أقوامهم فحسب ، أمَّا الإسلام فأرسل إلى البشر جميعا كما قال – جَل شأنه – ﴿وما أرسلناك إلا كافَّة للناس بشيرا ونذيرا﴾ . ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم فى الحديث الأول إن الإسلام بُنى على خمسة أركان هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان . والإسلام – بذلك – يشتمل على توحيد الله واعتناق الرسالة النبوية ، وأعمال العبادة وهى الصلاة وما فيها من تلاوة القرآن ومن التكبير والتسبيح ، والزكاة وما يؤديه المسلم من ماله للصالح العام وللفقراء والمساكين ، والحج المفروض على المستطيع ماديا وصحيا وما فيه من نسك وذكر لله وعبادة ، وصوم شهر رمضان ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ تبتلا لله . والإسلام – بذلك يطلق على أعمال العبادات فى الدين الحنيف ، كما يوضح ذلك أيضا الحديث الثانى حين سأل جبريل عليه السلام الرسول صلَّى الله عليه وسلم عن الإسلام ماهو؟ فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ؟ وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

والإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها لما جاء به الرسول ، وسأل جبريل عليه السلام الرسول فى الحديث الثانى عن الإيمان ما هو ؟ فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . والحديث يجعل الإيمان خاصا بالاعتقاد القلبى بالله وتوحيده ، وما فى العالم الغيبى من الملائكة الذين ينزلون بالوحى على قلوب الرسل ،والاعتقاد القلبى بالرسل وما جاءوا به من كتب سماوية ختامها القرآن الكريم ، وأيضا باليوم الآخر وأن الناس مبعوثون بعد موتهم للحساب على أعمالهم . وهذا الإيمان أو الاعتقاد القلبى فى الحديث يقابله الإسلام الذى يطلق على أعمال العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج . وفرّق القرآن الكريم بين الإسلام بمعنى الدخول فى الدين الحنيف وبين الإيمان وهو التصديق القلبى فى قوله تعالى بسورة الحجرات : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ أى دخلوا فى الإسلام ولم يستحكم فى قلوبهم كما قال تعالى : ﴿ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾ .

وتوسّع الآية الثالثة معنى الإيمان ، إذ تجعل البر أى الخير الكامل فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، ثم تضيف إلى ذلك الصدقة على ذوى الرحم واليتامى والمساكين وابن السبيل الغريب والسائلين المحتاجين ﴿وفى الرقاب﴾ أى فى فداء الأسرى وتحرير العبيد ، وفى إقامة الصلاة وإيتاءالزكاة لصالح المجتمع ، والوفاء بالعهد والصبر ﴿فى البأساء﴾ أى البؤس والفقر ﴿ والضرّاء﴾ أى الضرر صحيًّا وغير صحىٍّ ﴿وحين البأس ﴾ أى فى جهاد المشركين وقتالهم ، ويختم الله الآية بقوله تعالى : ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ أى حققوا الإيمان القلبى فى العقيدة والأعمال الدينية . وبذلك يلتقى الإيمان فى الآية بالإسلام وعباداته العملية وكل ما جاءت به شريعته من مبادئ خيرة فى تربية المسلم الخلقية والاجتماعية ، وهو ما جعل الرسول صلّى الله عليه وسلم يقول : فى الحديث الثالث الإيمان بضع وسبعون شعبة أى خصلة ، وذكر من خصاله وشعبه توحيد الله ، وفى رواية أخرى جعل من شعبه إماطة الأذى وتنحيته عن طريق المسلمين ، وأهم من ذلك أنه جعله فى الحديث الرابع مطابقا للإسلام إذ قال : مَنْ ذاق طعم الإيمان والمتاع به رضى بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولا . وبالمثل يلتقى الإسلام بالإيمان فى مثل قوله تعالى : ﴿أسلمتُ وجهى لله ومن اتبعنى﴾ أى أسلمت نفسى لله وجعلتها ملكا له أنا ومن اتبعنى مما يقتضى اكتمال العبودية لله وتمام الإيمان والإخلاص القلبى له والتصديق الكامل لكل ما غُيّب عنا وأنبأنا به القرآن .

وبهذا المعنى وهو أن الإسلام يشمل الإيمان والتصديق القلبى أطلقه الله على الدين الحنيف وجعله علما عليه فى آية سورة المائدة الرابعة : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أى شريعتكم وكل ما ارتبط بها من عقائد وأعمال وأوامر ونواه ، بحيث أصبحت كاملة لا ينقصها شئ ﴿وأتممت عليكم نعمتى﴾ بنصركم على أعدائكم وانتشار دينكم ﴿ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ منذ اليوم وهو يوم نزول الآية فى حجة الوداع ، وهو إعلان ربَّانى واضح بأن اسم الدين الحنيف الإسلام ، وسيظل اسمه على الدهر إلى أبد الآبدين ..

٨ - الصلاة ـ الزكاة

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ

المائدة : ٦

٢ - حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

البقرة : ٢٣٨

٣ - وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

البقرة : ٤٣

٤ - مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

البقرة : ٢٤٥

الأحاديث

١ - عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : مامنكم من أحد يتوضّأ فيسبغ الوضوء ثم قال :أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء (رواه فى كتاب الطهارة أبو داود ، والترمذى والنسائى) .

٢ - عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ[1] بسبع وعشرين درجة (رواه الإمام مالك فى الموطّأ وابن حنبل فى مسنده والترمذى والنسائى وابن ماجة) .

٣ - عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم حين بعث معاذًا رضى الله عنه إلى اليمن قال له : ادْعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدّ على فقرائهم (رواه البخارى فى باب وجوب الزكاة) .

٤ - فى حديث قدسى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : يقول الله - عزّ وجَلّ - يوم القيامة : يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال ابن آدم : ياربٌ كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه (رواه مسلم) .

والآية الأولى فى شرع الوضوء والتيمم خلفا له استعدادا للصلاةوالإخلاص فيها لله ، ولذلك عُدّ الوضوء والتيمم السابقان لها جزءا لا يتجزأ منها وفريضة مكتوبة لا تصح الصلاة بدونهما . وواضح أن الوضوء يرمز إلى أن الإسلام يحرص على نظافة المسلم إذ لا يزال يتوضأ لكل صلاة طوال اليوم ، وهو والتيمم الذى تذكره الآية يومئان إلى أن المسلم يأتى الصلاة عن نية خالصة لوجه ربه . وقوله تعالى : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أى إذا عزمتم على أدائها فاغسلوا الأعضاء التالية ، والوضوء قبل الصلاة واجب على المحدث ، أما غيره فلا يجب عليه . وقد صلّى الرسول صلّى الله عليه وسلم يوم فتح مكة الصلوات الخمس بوضوء واحد ، وكان يتوضأ عند كل صلاة فى غير هذا اليوم استحبابا ، وكان ابن عمر رضى

---

(١) الفذ : المنفرد .

الله عنهما يداوم على الوضوء لكل صلاة اقتداء به . والوضوء كما ذكرت الآية غسل الوجوه والأيدى إلى المرافق والمسح بالرءوس وغَسل الأرجل إلى الكعبين ، وما زاد على ذلك من المضمضة والاستنشاق سنة عند مالك والشافعى وأبى حنيفة ، وواجب عند ابن حنبل . ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم فى الحديث الأول : مَنْ أسبغ (أى أتمَّ) الوضوء وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد عبده ورسوله فُتحت له أبواب الجنة الثمانية ليدخل فيها من أيِّها أراد . ويقول الله إن التطهر واجب بعد الجنابة ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ أى أحدثتم ﴿أو لامستم النساء﴾ أى أفضيتم إليهن ﴿فلم تجدوا ماء﴾ للوضوء فى هذه الأحوال ﴿فتيمموا صعيدا طيبا﴾ أى اقصدوا وجه الأرض الطيب من التراب ونحوه . والتيمم فى الشريعة : استعمال التراب فى الوجه واليدين على هيئة مخصوصة .

ويأمر الله – تقدس اسمه – فى الآية الثانية المؤمنين بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى . والصلاة شعار عقيدة الإسلام وأهم أركانه بعد الإيمان بالله ورسوله ، وهى خمس صلوات يوميا : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وكل صلاة إنما هى تكبير لله وتلاوة لفاتحة الكتاب وما فيها من الإيمان بوحدانية الله وصفاته وبالبعث والمعاد ، والاستعانة به ، والهداية إلى أعمال البر والخير ، مع تسبيحه مرارًا ، ومع السلام على رسوله والصلاة عليه . وهى راحة لنفس المسلم وطمأنينة ، وفى الحديث أن الرسول صلَّى الله عليه وسلم كان كلما حزبه[1] أمر فزع إلى الصلاة لتفرِّج عنه ما نزل به . ومن شأن الإخلاص فى أدائها أن يدفع المسلم إلى أن يحيى حياة طيبة يستشعر فيها الفضائل التى حضَّ عليها الدين الحنيف . وإن أدركه ارتكاب لبعض الخطيئات والآثام غسلتها صلاته المتكررة خمس مرات يوميا ، وفى ذلك يقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم فى حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه[2] شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء ، قال : فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس ، يمحو الله بهنَّ الخطايا . وهو تمثيل رائع ،

---

(١) حزبه أمر : اشتدَّ عليه .

(٢) الدرن : الوسخ .

فالصلوات الخمس كنهرٍ جارٍ متدفق على أبواب المسلمين ، وكما أن النهر يغسل الدرن والوسخ الحسِّىّ فإن نهر الصلوات الخمس الربَّانى يغسل الوسخ والدرن المعنوى من الذنوب والآثام ويمحوها محوا .

والصلاة الوسطى فى الآية اختُلف فيها فقيل هى الصبح لتوسطها بين صلاة الليل : المغرب والعشاء وصلاة النهار : الظهر والعصر ، وأيضا فإن الله خصَّها بالذكر فى قوله : ﴿وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ وهو قول عمر وابنه عبد الله والسيدتين عائشة وحفصة وعلى والإمامين مالك والشافعى . وقيل بل هى العصر لتوسطه بين الصبح والظهر والمغرب والعشاء ، وهو قول ابن مسعود وأبى هريرة وابن عباس والإمام أبى حنيفة . ﴿وقوموا لله قانتين﴾ المراد بالقيام هنا القيام فى الصلاة ، وقانتين أى خاشعين متذللين . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قوله : مهما ركعت للصلاة حتى يصبح جسمك محنيًّا كالسَّرْج ، ومهما صمت حتى تصبح مشدودا كوتر القوس فإن الله لن يقبل أعمالك حتى تضم إليها التذلل . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحضُّ بقوة على صلاة المسلمين فى المساجد أو بيوت الله ، من ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة من أنه قال : من تطهَّر (أى توضَّأ) فى بيته ، ثم مضى إلى بيت (أى مسجد) من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته : إحداها تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة . وكان يقصد بذلك أن ينتظم المسلم – ما استطاع – فى صلاة الجماعة بالمساجد ، لأن فى ذلك دعما للإخاء والمساواة الصادقة بينه وبين المسلمين ، إذ يقف معهم فى الصلاة خاشعا ضارعا لربه ، يكبِّر معهم ويركع ويسجد متوجها بقلبه إلى الله مستعينا به ومستغفرا دون أى شعور بالتفاوت بينه وبين أحد من إخوانه المسلمين . ومن أجل هذه الغاية من توثيق رابطة الأخوة بين المسلمين نوَّه الرسول صلى الله عليه وسلم بصلاة الجماعة فى المساجد مرارا وتكرارا بمثل قوله فى الحديث التالى إن الصلاة فى الجماعة أفضل من صلاة المنفرد وحده بسبع وعشرين درجة ، وقيل إن الجماعة فى الحديث أعم من أن تكون صلاتها فى المسجد أو فى غيره حيث كانت .

والقرآن الكريم يقرن الزكاة بالصلاة فى الآية الثالثة وفى كثير من الآيات ، وهى مثل الصلاة فريضة مكتوبة على كل مسلم ، إذ أراد الله للمسلمين أن يكونوا أمة مثالية يسود فيهم البر والتعاطف بين المسلم وأخيه وبين المسلم والمصلحة العامة للأمة فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضا للجماعة ، ومن أجل ذلك وُضع فى الإسلام نظام الزكاة ، وعدَّتها

الشريعة ركنا أساسيا فى الدين الحنيف ، فواجب على كل مسلم أن يقدم للفقراء من ماله سنويا حقا مكتوبا معلوما عليه ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حديثه الثالث إذ يوصى معاذ بن جبل حين بعثه إلى أهل اليمن أن يأخذهم بالرفق واللين ، فيدعوهم أولا إلى الشهادة بوحدانية الله وأنه رسول منه إلى الناس فإن آمنوا بذلك فقل لهم إن الله افترض عليكم خمس صلوات فإن آمنوا بذلك وأدّوا الصلاة فقل لهم إن الله افترض عليكم صدقة (أى زكاة) تؤخذ من أغنيائكم وترد على فقرائكم . وارتضوا الزكاة كما ارتضوا الصلاة ، ودخلوا فى دين الله أفواجا . ومعروف أن الزكاة فى الإسلام هى : العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع دون مئونة ، ونصف العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع بالآلات ، وربع العشر فى رءوس الأموال وبالمثل فى عروض التجارة .

والإسلام – بذلك – يقيم ضربا من العدالة الاجتماعية فى الأمة ، إذ جعل واجبا على المسلم الغنى أن يردَّ بعض ماله على الفقير وأشباهه المذكورين فى آية مصارف الصدقات بسورة التوبة ، وسنفصل القول عنهم بحديثنا عن الصدقة فى غير هذا الموضع . وبذلك يترابط الأغنياء فى الأمة مع الفقراء وأشباههم ترابطا اقتصاديا ، وهو ترابط أوجبه الإسلام كما رأينا ، ولذلك كان أبو بكر خليفة الرسول الأول مصيبا كل الإصابة حين رأى قتال مانعى الزكاة من العرب ، إذ رأى فى ذلك نقضا لركن من أركان الإسلام الخمسة وخروجا على الدين الحنيف . ولما راجعه عمر بن الخطاب فى عزمه على قتالهم قائلا كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله . فرد عليه أبو بكر قائلا : أليس قال : إلا بحقّها . لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وجعلهم أبو بكر خارجين عن الإسلام مرتدين ، ونشبت حروب الردة ، وانتصر أبو بكر . وكان ذلك تثبيتا للإسلام ورسالته الدينية ، وهى مفخرة عظيمة له على مدار الزمن ، وأرفقها بالفتوح الإسلامية وإرسال الجيوش للجهاد فى سبيل الله ، وهى مفخرة عظيمة ثانية له .

ويقول الله – عزَّ شأنه – فى الآية الرابعة : ﴿مَنْ ذا الذى يُقْرِض الله قرضا حسنا﴾ أى يُسْلفه أو يقدم له سلفا صدقة مفروضة وهى الزكاة أو صدقة مندوبة وسماها الله قرضا لما سيقدِّم لصاحبها من الجزاء المضاعف عليها ، ونعت الله القرض بالحسن يريد أنه لا يخالطه أذى من رياء أو تفاخر ، ووعد المقرض بأنه سيضاعف جزاءه ﴿أضعافا كثيرة﴾ ويقول إنه

﴿يقبض ويبسط﴾ أى أنه يقبض الصدقات ، ويبسط أو يتوسع فى الجزاء عليها ﴿وإليه ترجعون﴾ يوم القيامة فترون جزاءها العظيم . ولما تلا الرسول الآية على الصحابة قال له أبو الدحداح الأنصارى : أو يريد الله منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح قال : أرنى يدك ، فناوله يده ، قال : فإنى قد أقرضت ربى – عزّ وجلّ – حائطى (بستانى) وكان فيه ستمائة نخلة . فبشره الرسول بالجنة بُشْرى عظيمة . وآيات كثيرة يعد الله فيها المسلم الذى يبذل الصدقة المفروضة وهى الزكاة والصدقة المندوبة بالجزاء العظيم يوم القيامة ، وبالمثل أحاديث كثيرة تحث على الصدقتين ، مثل الحديث القدسى الرابع الذى يقول الله فيه لبعض عباده يوم القيامة : طلبتُ منك الطعام فلم تطعمنى إذ طلبه منك عبد من عبادى فلم تطعمه ، وكأن من يطعم فقيرا جائعا يطعم الله . وما أعظمها من منّة على عباده الفقراء والمساكين ..

٩ - الصيام - الحجّ

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

البقرة ١٨٥

٢ - وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ

البقرة ١٨٧

٣ - إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ

إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

آل عمران ٩٦ ، ٩٧

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

البقرة ١٩٧

الأحاديث

١ – عن أبى هُرَيْرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (فى حديث قدسى) : قال الله : كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيامَ فإنه لى وأنا أجْزِى به ، والصِّيامُ جُنَّةٌ(١) ، وإذا كان يومُ صومِ أحدكم فلا يَرْفُثُ ولا يَصْخَبُ فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتله فَلْيَقُلْ إنىِّ امرؤٌ صائم ، والذى نفسُ محمد بيده لخُلوف فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المِسْكِ . وللصائم فَرْحتان يَفرحُهما : إذا أفطر فَرِحَ ، وإذا لقِىَّ ربَّه فَرِح بصومه (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الصوم) .

٢ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ صام رمضان إيمانا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الصوم) .

٣ – وعن أبى هريرة : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجُّوًا ، فقال رجل : أكلَّ عامٍ يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال

---

(١) جُنَّة : وقاية من الشهوات .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلتُ نعم لوجبتْ ولما استطعتم ، ثم قال : ذَرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيىءٍ فأْتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه (رواه مسلم فى كتاب الحج) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ حجَّ لله فلم يَرْفُث ولم يَفْسقْ رجع كيوم ولدته أمه (رواه البخارى فى كتاب الحج) .

والله – تقدَّس اسمه – يقول فى الآية الأولى : ﴿شهر رمضان الذى أُنْزِل فيه القرآن﴾ وهو الشهر التاسع القمرى فى السنة العربية التى تفتتح بالمحرم ، وقد تشرَّف بإنزال القرآن فيه ﴿هُدًى للناس﴾ وإرشادا لهم إلى الدين الحنيف كى يؤمنوا به ويتبعوا رسوله ﴿ وبينات﴾ أى ودلائل وحججا بيِّنةً واضحة على صحة ما جاء به ﴿من الهدى﴾ المضيئ المنافى للضلال المظلم ﴿ والفرقان﴾ الفارق بين الحق المرسَل به محمد والباطل الوثنى الذى عبده العرب قبل الإسلام ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ أىَ حضره فى بلده أو موطنه ، وقيل شهده أى رأى هلاله الذى يثبت بدءه كما أوضحتْ ذلك السنة بحديث : صوموا لرؤيته (أى الهلال) وأفطروا لرؤيته (أى فى أول شوال) فإنْ غُمَّ عليكم (أى لم تروه) فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما . ﴿ فَلْيَصُمْه﴾ أى إن صيام شهر رمضان فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة .

والصيام فى اللغة الإمساك ، وفى الشرع الإمساك عن الطعام والشراب من الفجر إلى غروب الشمس ، رياضة روحية للمسلم البالغ على ترك الشهوات والملذات فترات طوال شهر ، ويتجه فيه بقلبه إلى ربّه آملا أن يسمو إلى مرتبة التقوى التى يحثه القرآن دائما على بلوغها . وتلك إحدى فوائد الصيام ، فهو إعلاء للروح ، وتطهير للنفس من شهواتها وملذاتها ، ومحاولة لبلوغ المسلم مرتبة التقوى المنشودة ، وهو غذاء قوى لتمرينه على الصبر وتحمله لمشاق الحياة فى السلم والحرب . ومن شأن جوع الأغنياء وظمئهم فيه أن يجعلهم يعطفون ويشفقون على إخوانهم الفقراء فى الأمة ، فيمدوا لهم يد العون والمساعدة بالمال والطعام ، وبذلك يتوطد ما يريده الإسلام لأتباعه من الإخاء الحقيقى والمساواة مثلما وطدتهما الزكاة والصلاة . ويريد الله بعباده المسلمين البالغين فى الصيام اليسر قائلا : ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعِدَّة من أيام أخر﴾ وبذلك أُعْفى المريض والمسافر والمرأة فى عادتها الشهرية من الصيام ، على أن يؤدوا فى غير رمضان هذا الصيام فى أيام أخر بعدد أيام إفطارهم . واختلف الفقهاء فى المرض ومقداره ، وأولى الآراء أنه المرض الذى يسبِّب

مشقة للصائم ، إذ أطلق الله المرض ولم يحدِّده ، أما السفر فإن شاء المسلم الإفطار كما رخصت له الآية أفطر ، وإن شاء صام لأحاديث كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك . ويصور الحديث الأول – وهو حديث قدسى – مدى ما للصيام عند الله من ثواب عظيم ، وفيه يقول الله : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لى وأنا أجزى به أى جزاءً عظيما . ويقول الله فى هذا الحديث القدسى : الصيام جُنَّة أى وقاية من التورط فى الآثام الدنيوية ومن عذاب الله فى الآخرة ومن الأمراض التى يسبِّبها الإفراط فى الملذات والمأكولات . ويطلب الله من المسلم فى صيامه أن يحافظ فيه على سموه الروحى ، فلا يرفث أى لا يتكلم بكلام فاحش لزوجته أو غيرها وأن لا يصخب فيُعْلى صوته غضبا أو استياء ، وإن سبَّه أحد وشتمه أو نازعه وخاصمه فَلْيَقُلْ له إنى صائم ، لعله يزدجر ويكفّ عن سبّه ومخاصمته . ويقسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن خُلوف الصائم أى رائحة فمه المتغيرة من جوعه أطيب عند الله من رائحة المسك . وللصائم فرحتان : فرحة عاجلة فى الدنيا حين يفطر ، وفرحة آجلة فى الآخرة لما سيرى من ثوابه حين يلقى ربه . ومعروف أنه رُخِّص للشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم أن يفطر ويطعم عن كل يوم أفطره مسكينا .

ورمضان وحده هو الذى فُرض فيه الصوم ويستحبُّ صوم ستة أيام من شوال بعده لقوله صلى الله عليه وسلم : من صام رمضان ثم أتبعه ستة من شوال كان كصيام الدهر . ولا يدخل فيها يوم العيد . كما يستحب صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء . ويقول الله – جَلَّ شأنه – فى الآية : ﴿يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العُسْرَ﴾ واليسر دائما صفة أساسية فى الشريعة الإسلامية . وذكر الله ذلك عقب فريضة الصيام لما فيها من المشقة إيماء إلى أنه أراد بها اليسر على المسلم إذ خصَّ شهرا من شهور السنة بتلك الرياضة الروحية تطهيرا لجسمه وسموا بإقباله على الله ولفتا قويا إلى عون إخوانه من الفقراء والأرامل والمساكين . ويقول الله إنه رخص للمريض والمسافر الإفطار على أن يصوما أياما أخرى بدلا منها فى غير رمضان إكمالا لعدة الشهر . وحرى بالمسلمين أن يكبِّروا الله ويعْظموه لما شرع لهم من فريضة الصيام التى تصفىٍّ قلوبهم وتشدّ أزرهم بعون المحتاجين من أمتهم وتعوِّدهم تحمل المشقة فى الجهاد وغير الجهاد .

ويحدِّد الله فى الآية الثانية فترة الصوم فى اليوم وأنها تبدأ من الفجر حين يمتد بياض النهار على سواد الليل وعبر القرآن عن ذلك تعبيرا رائعا بقوله : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين

لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ أى خيط النهار من خيط الليل والظلام ، ويقول — جل شأنه — ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أى حتى غروب الشمس . وبدء الصيغة بكلمة « ثمَّ » التى تدل على التراخى يفيد أن الصيام يبدأ بعد الفجر لا مباشرة ولكن مع شئ من التراخى تيسيرا على الصائم . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى : (مَنْ صام رمضانَ إيمانا) أى صادقا بنية مخلصة (واحتسابا) أى محتسبا به قاصدا وجه ربه (غُفر له ما تقدم من ذنبه) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر : إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة أى للصائمين .

والحج من أركان الإسلام مع الصيام والزكاة والصلاة ، ويقول الله — تبارك اسمه — فى آية آل عمران إن أول بيت لعبادته ﴿وُضع﴾ أى أقيم وأنشئ لتوحيد الله ﴿لَلَّذى ببكَّة﴾ وبكة من أسماء مكة ، ويريد — جَلَّ شأنه — البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ، وقد جعله الله — كما يقول فى الآية الثالثة — ﴿مباركا﴾ زائدا فى الخير لسكَّانه ومنارة هدى للناس ، و ﴿فيه آيات بينات﴾ أى واضحة هى ﴿مقام إبراهيم﴾ وما فيه من الصخرة التى رَقِى عليها لبناء الكعبة ورفع قواعدها ، وكان قد اتخذ هذا المقام لصلاته وطوافه ، ويقال إنه اتخذه ملاصقا للكعبة ، وهو اليوم فى مكان مستقل ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ من كل سوء . ويذكر الله فريضة الحج ، وهى واجب على المكلف مرة فى العمر بدليل الحديث الثالث لأبى هريرة وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الصحابة يوما فقال : أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجُوا ، فقال رجل : أكلَّ عامٍ يارسول الله وكرر ذلك ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال : ذَرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأْتوا منه ما استطعتم . وفى الحديث ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقصد قصدا إلى اليسر فى الدين وشريعته ، وفيه أن الحج واجب على المسلم مرة واحدة فى العمر ، وما يزيد على ذلك تطوع . ووجوبه إنما هو على المكلف السليم صحيا القادر ماديا ، ويجوز لغير القادر من الشيوخ والمرضى أن ينيبوا عنهم ، ويجوز أن يحج الطفل لما روى البخارى من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاز الحج لطفل ابن سبع سنوات ، ولما روى مسلم من أن الرسول لقى ركبا فى حجة الوداع ، فرفعت له امرأة صبيا ، وقالت له : ألهذا حجٌّ ؟ قال نعم ولك أجر .

ويقول الله — تقدَّس اسمه — فى الآية الأخيرة ﴿الحج أشهر معلومات﴾ وهى شوال

وذو القعدة وذو الحجة﴿فمن فَرضَ فيهنَّ الحجَّ﴾ أى أحرم به من الميقات ﴿فلا رفث﴾ أى أن الكلام الفاحش يحرم عليه ﴿ولا فسوق﴾ أى ولا عصيان لله ، بل طاعة وتلبية مستمرة ﴿ولا جدال﴾ أى ولا مراء يجرُّ إلى سبٍّ ومخاصمة . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع مَنْ حَجَّ لله فلم يفحش فى قوله ولم يأت معصية أو ذنبا رجع من حجه إلى موطنه وقد محيت عنه ذنوبه بعفو ربه ، وأصبح كيوم ولادته طاهرا من كل ذنب ومعصية .

والحج نسك وعبادة لله وتلبية فى الطواف بالكعبة والسعى بين الصفا والمروة وأداء شعائر الله فى عرفة ومنى ، وفيه يتوثق الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله معبودهم مؤمنين بوحدانيته شاكرين لأنعمه ، وقد اجتمعوا من أطراف الأرض ومشارقها ومغاربها بملابس الإحرام التى ترمز إلى المساواة التامة بين الأغنياء والفقراء .

وكأنما الحج أريد به أن يكون مؤتمرا كبيرا للمسلمين يتدارسون فيه أحوالهم وحاضرهم ومستقبلهم فى كل عام . وبحق يُعَدُّ الحج عيد المسلمين الأكبر ، وفيه تقدَّم الأضاحى من الإبل وغيرها لإطعام أهل مكة وإطعام الفقراء والمحتاجين . وكانوا ينضحون دماء أضاحيهم على مذابحها وعلى حيطان الكعبة قربانا لله ، فحرَّم الله ذلك عليهم قائلا : ﴿لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها﴾ إنما شرعت الأضاحى لإطعام أهل مكة يوم عيدهم الأكبر وإطعام البؤساء والجائعين ، بعد أن أدَّى المسلمون قبل عيدهم مباشرة ما ينبغى عليهم من التلبية والتهليل والتكبير والتسبيح ، ولذلك يقول الله إنما ﴿يناله التقوى منكم﴾ أو بعبارة أخرى إنما ينال الله النسك الصادق الذى يرافقه الإخلاص وطهارة القلب وصفاؤه .

١٠ – آيات الله الكونية

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾

البقرة :١٦٣ ، ١٦٤

٢ – ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾

يس ٣٧ ــ ٤٠

٣ - وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

الرعد ٣ ، ٤

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾

الأعلى : ١ ـ ٣

الأحاديث

١ - عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنه لما نزلت آية آل عمران : ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ بكى الرسول ليلتها طويلا ثم قال : وَيلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها (رواه ابن كثير فى تفسير الآية)

٢ - عن على بن أبى طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عبادة كالتفكر (رواه ابن حبان)

٣ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال أشهد أن لكِ رباً وخالقا اللهم اغفر لى ، فنظر الله إليه ، فغفر له ، رواه الثعلبى) .

القرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يضع الكون بنظامه وخلق كائناته وتدبيرها المحكم الدقيق أمام عقل الإنسان ليؤمن بأن له إلها واحدا صنعه عن قدرة وعلم وحكمة بالغة .

والله – تقدّس اسمه – يقول فى الآية الأولى إن إلهنا إله واحد ، وأكد وحدانيته بقوله تعالى : ﴿لا إله إلا هو﴾ ، فالألوهية مقصورة عليه ، وليس للناس إلهٌ سواه ﴿الرحمن الرحيم﴾ المتفضل على الخلق بنعمه ، بل أكثر من ذلك برحمته التى أسبغها على الإنسان . ويتكاثر فى القرآن الاستدلال على وجود الله ووحدانيته بخلقه للكون أى للسموات والأرض وصنعته العجيبة لهما . والسموات جمع سماء ، ويراد بها ما فوق الأرض من الفضاء الذى يشبه قبة زرقاء ، وفيه تسبح الكواكب مزيِّنة له كما قال تعالى : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ اى بكواكب تزينها . وفى سورة البقرة وغيرها أنها سبع ، وهو رمز لكثرتها وكثرة نجومها ومجرّاتها وما تدل عليه من مدبر عظيم يقوم على نظامها ونظام ما يتصل بها من الأفلاك . ﴿والأرض﴾ أى خلقها بكل ما فيها من الناس والحيوانات والزروع والبقول والكلأ والثمار والفواكه والرياحين . وفى كل ذلك آيات دالة على موجدها ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بتعاقبهما وتفاوتهما طولا وقصرا ﴿والفلك التى تجرى فى البحر﴾ طافية على سطحه المذلل لها ﴿بما ينفع الناس﴾ من التجارة وحمل الناس إلى البلد الذى يريدونه وللحج والجهاد ﴿وما أنزل الله من السماء﴾ أى السحاب ﴿من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ بأنواع النباتات والزروع والأشجار ﴿وبَثَّ فيها من كل دابة﴾ من أنواع الدواب وحشيةً وأليفة ، يرزقها ويعلم مأواها . وبجانب هذه الآيات العجيبة من خلق الله ﴿تصريف الرِّياح﴾ أى هبوبها بإذن الله وركودها ، وتصريف ﴿السحاب المسخَّر بين السماء والأرض﴾ أى المذلَّل لحمل الأمطار فى أماكن مختلفة . وفى كل ذلك دلائل واضحة على وجود الله الصانع للكون ووحدانيته الذى وضع بحكمته نظامه . وبحق قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى الآية المماثلة لتلك الآية بسورة آل عمران ، كما فى الحديث الأول : ويل وعذاب لمن يقرأ تلك الآية ، ولم يتفكر فى بدائع صنع الله والكون ، مما يدفعه إلى الإيمان به إيمانا راسخا عن عقل بصير .

والله – جل شأنه – يذكر فى أول آيات سورة يٓس قسمته اليوم للإنسان بين نهار خلقه مضيئا للناس كى يعملوا فيه لمعاشهم وليل خلقه مظلما ينسلخ وينحسر منه النهار كى يستجمّوا فيه للراحة والنوم . وبذلك أتم الله على الإنسان نعمته بجعله النهار معاشا والليل

سكنا . ولو كانت الدنيا نهارا خالصا لكلَّت قوى الإنسان ، ولو كانت ليلا صرفا لبطلت حركته ، ويقول الله فى سورة القصص : ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سَرْمَدًا[1] إلى يوم القيامة مَن إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سَرمدًا إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه﴾ ليلا ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ نهارًا ﴿ولعلكم تشكرون﴾ . ويقول الله عزَّ ذكره – فى آيات سورة يس : ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾ أى حتى مكان غروبها اليومى أو زمانه ، والله يشير بجرى الشمس وسيرها إلى ما يترتب عليه من فصول السنة وأنها تسير بنظام كونى دقيق قدَّره الله ﴿العزيز العليم﴾ . والقمر يجرى مثل الشمس وتختلف صوره من ليلة إلى ليلة حتى يصبح كعُرْجون النخل القديم البالى وهو مجتمع شماريخه المشبه للهلال بتقوسه واصفراره . وهى مسيرة للشمس والقمر مقدرة بنظام محكم أحكمه إله قدير يبسط سلطانه على الكون ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر﴾ فلكل منهما مداره ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ فلكل منهما وقته المحدد المعلوم .

وتلك آيتان كونيتان عظيمتان : النهار والليل والشمس والقمر تدلان بوضوح على عظمة مدبرهما وحكمته الباهرة . وإن المتأمل فى ملكوت الله وما أودع فيه من قدرة عظيمة لا تحدها حدود ليمتلىء قلبه إيمانا به وتمجيدا لصنعته الربانية وتسبيحا له لما كفل للكون من أنظمة وقوانين محكمة . وإن مداومة التفكير في ذلك ليشبه العبادة لخالق الكون . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى : لا عبادة كالتفكر فى الكون وما فيه من عجائب الخلق . وقد تأمل رجل ذات ليلة فى السماء والنجوم فعرف أن لها ربا وخالقا فقال اللهم اغفر لى فغفر الله له كما فى الحديث الثالث .

ويقول الله – تبارك اسمه – فى آيتى سورةالرعد : ﴿وهو الذى مدَّ الأرض﴾ وجعلها للناس مهادا لهم وبساطا يتقلَّبون فيه وسوَّاها مبسوطة ليسلكوا منها طرقا مختلفة ، وأرسى فيها جبالا شاهقة دالة على عظمته ، وشق فيها أنهارا تروى الناس والأنعام ، وجعل فيها من كل الثمرات زوجين أى صنفين كالحلو والحامض ، والليل بظلمته يغطى النهار لراحة الناس من العمل اليومى . إن فى ذلك لآيات بديعة فى الخلق لمن يفتحون عيونهم ويتفكرون فيما تحت أبصارهم من صنع الله . ﴿وفى الأرض قِطَعٌ متجاورات﴾ وكل قطعة تنبت

---

(١) سَرْمدًا : دائما .

ما لا تنبته لصيقتها المجاورة لها من الزروع والثمار ﴿وجنّاتٌ﴾ أى بساتين ﴿من أعناب وزرعٌ﴾ من كل شكل ﴿ونخيل صنوانٌ﴾ تخرج فيه النخلتان والثلاث من أصل واحد ﴿وغير صنوان يُسقى بماء واحدٍ﴾ ومع ذلك تختلف فى الطعم وهى نعمة من نعم الله أن بنوع للإنسان فيما يطعم حتى فى النوع الخاص مثل التمر وإن ألوانه وطعومه لتعد بالعشرات .

وتبدأ آيات سورة الأعلى بتسبيح الله وتنزيهه عما لا يليق وتوحيده وتمجيده وتعظيمه و ﴿الأعلى﴾ من العلو ، وهو ليس علو جهة ولا مكان تعالى عن أن يحيط به مكان أو جهة إنما هو علو ألوهية واستحقاق وكمال . ويقول الله – جل وعز – إنه ﴿خلق﴾ أى أبدع ﴿ فسوّىٰ﴾ أى جعل صورة المخلوق سويّة معدة لأداء وظيفتها ، فاللسان فى الإنسان مثلا للتكلم والبصر للنظر والأذن للسمع واليد للبطش والرجل للمشى ، ولا تفاوت بين عضو وعضو فى الإنسان كأن تكون إحدى اليدين أقصر من الأخرى . ومن التسوية النظام المطرد فى الأشياء كنظام الأفلاك والكواكب ونظام الفصول السنوية ، ولا خلل ولا عوج ولا فساد فى خلق أى كائن فى الكون ، مما يدل بوضوح على كمال الخلق الإلهى . ﴿والذى قدر فهدى﴾ : الذى أعطى كل شىء قدره كما قال تعالى : ﴿قد جعل الله لكل شىء قدرا﴾ فى الخلق ، وأعطى كل كائن فى الكون القدرة على البقاء إلى أجل معلوم ، وقدّر له أحوال وجوده وبقائه ، وكل شىء يهتدى إلى ما فيه فائدة له ولغيره إما اختيارا وإما تسخيرا . ويكرر الله أنه سخر كل ما فى الكون للإنسان قائلا : ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه﴾ فكل ما فيهما من أفلاك وبحار وأنهار وجبال ووديان ودواب سخره للإنسان كى ينتفع به أكبر نفع من جهة وليكتشف قوانينه الفلكية والطبيعية والكيميائية والرياضية من جهة ثانية .

ويكرر الله – جَلَّ شأنه ، فى القرآن أنه خلق الكون وكائناته فى صور بديعة من الحسن والبهاء والزينة بدءا بالإنسان إذ يقول فى سورة غافر : ﴿وصوَّركم فأحسن صوركم﴾ وبجانب الجمال الإنسانى جمال السماء ونوه بها مرارًا قائلا إنها كسقف البيت تضىء بمصابيح الكواكب التى تزدان بها يقول : ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا – وزينا السماء الدنيا بمصابيح – ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين﴾ . وجعل كل ما على الأرض جميلا : البحار بمشاهدها وما فيها من لؤلؤ ومرجان والحيوانات بمناظرها وألوانها ،

يقول فى الأنعام أى الإبل والبقر والغنم : ﴿ولكم فيها جمال .. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ . وأنزل من السماء المطر وأنبت به كما قال فى سورة النمل ﴿حدائق﴾ من مختلف الفواكه والورود ﴿ذات بهجة﴾ تسر كل من يراها . وكلما مدَّ الإنسان بصره إلى جنسه وإلى ما حوله فى الكون والسماء والأرض وجد ما يمتع نظره ويغذِّى روحه وعقله من روائع الجمال وبدائع الحسن مما نمَّى حاسة المتاع والبهجة فيه . وكل تلك شواهد ودلائل على خالق أعلى للكون وكائناته التى أوجدها وسَوَّاها فى كيفياتها وقدَّر لها قوانين بقائها ونطورها ، وهداها اختيارا أو تسخيرا ، وأسبغ عليها هيئات بديعة من الحسن والجمال .

١١ – عالمية الإسلام

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

البقرة ١٠٦

٢ - ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

الأعراف ١٥٨

٣ - ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾

الفرقان ١

٤ - ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

سبأ ٢٨

الأحاديث

١.– عن أبى هريرة قال الرسول صلّى الله عليه وسلم إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وُضِعت هذه اللبنة ؟ ! فأنا اللَّبِنة وأنا خاتم النبيين (رواه البخارى فى باب خاتم النبيين)

٢ – عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بُعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود ٠ (رواه ابن حنبل فى مسنده)

٣ – عن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : كان النبى يبعث إلى قومه خاصّة وبُعثت عامة (رواه البخارى ومسلم)

٤ – عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى قد أُعطيت خزائن مفاتيح الأرض (رواه البخارى فى باب علامات النبوة) .

والله فى الآية الأولى يقول فى أثناء ردوده على أهل الكتاب إننا لا ننسخ آية من آيات الكتب السماوية ﴿أو ننسها﴾ أى نؤخرها ، إذ أصل (ننسها) ننسئها ، وأبدلت الهمزة ياء تسهيلا وحذفت لأن الفعل معطوف على فعل مجزوم وهو (ننسخ) . وأصل المعنى اللغوى للنسخ : الإزالة بشىء آخر ، والمراد بالنسخ والتأخير فى الآية نسخ الآيات والأحكام فى الكتب الإلهية وتأخيرها . والآية ترد على ما كان يقوله بعض اليهود والنصارى من أن محمدا لو كان رسولا حقا ما نسخ القرآن كثيرا من أحكام التوراة والإنجيل . وفاتهم أن رسالة محمد خاتمة الرسالات النبوية وأنها نسخت لمصلحة البشر المكلفين بعض شرائع التوراة والإنجيل لنزولهما فى عصور وظروف سابقة . يقول الله فى سورة الرعد : ﴿لكل أجل﴾ أى عصر وزمن ﴿كتاب﴾ أى شريعة ، إذ تقتضى الحكمة الإلهية أن تختلف كتب الشرائع باختلاف الأزمنة والعصور والمجتمعات ، و ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ أى أن الله جلّ شأنه – ينسخ ما يشاء نسخه من آيات الشرائع وأحكامها ، ويثبت ما يشاء إثباته بدلا منها مما فيه مصلحة الجماعة البشرية ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أى أن عنده علمه الأزلى بما يصلح للناس فى كل عصر وزمن .

ويشهد لنسخ الله آيات وأحكاما فى التوراة والإنجيل قوله تعالى فى سورة الأعراف عن اليهود والنصارى الداخلين فى الإسلام بأنهم ﴿الذين يتبعون الرسول النَّبِىَّ الأمىَّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلُّ لهم الطيبات﴾ أى المأكولات الطيبة ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ أى ما تستقذره النفوس من المطعومات وكل شىء ﴿ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال[1] التى كانت عليهم﴾ أى التكاليف الشاقة التى كلفوا بها فى التوراة والإنجيل . والآية الكريمة تذكر بوضوح أن القرآن الكريم ينسخ بشريعته آيات وأحكاما متعددة فى التوراة والإنجيل كانت ترهق اليهود والنصارى . ويشير الرسول صلَّى الله عليه وسلم إلى ذلك بلطفه الرائع فى الحديث الأول قائلا إن مثله ومثل الأنبياء قبله فيما نسخَ من شرائعهم وبدَّل وغير من أحكامها مثل رجل بنى بيتا جميلا

(١) الإصر والأغلال : السلاسل والقيود .

وترك موضع لبنة منه ، فأخذ الناس يطوفون بالبيت ويتعجبون لم تُرك مكان هذه اللبنة خاليا يقول الرسول : أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين . فأى لطف هذا التصوير لأحبار اليهود والنصارى الذى صوَّر فيه شريعته كلَبِنة بجانب شريعتيهما ،وهو إنما أقام بشريعته صَرْحًا أروع وأبهر . ويصرِّح القرآن مرارا بأنه يصحِّح ويصلح ما أدخله أحبار اليهود وعلماء الديانات السابقة على الكتب الإلهية من تحريفات ، يقول فى سورة البقرة : ﴿فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ . ويضيف القرآن أنه ينقذ أصحاب الكتب الإلهية السابقة من اختلافاتهم المريرة التى ولدت بينهم العداوة والبغضاء كما نرى فى قوله تعالى مخاطبا نبيه فى سورة النَّحْل ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه﴾ والقرآن بذلك يصلح نفوس أهل الكتاب بما يرفع من الخلافات بينهم فى حقائقهم الدينية ، كما يصلح ما حرَّفوه من نصوص كتبهم الربَّانية . وقد أُنزل القرآن وأُنزلت شريعته رحمة بالناس لإنقاذهم من ضلالاتهم ومن خلافاتهم وافتراءاتهم على الرسل ، ورحمة بما دعا إليه الله من الخير والبر والعدل ومن رعاية الفقراء والأيتام والأرامل ومن اجتناب الآثام والظلم والبغى والعدوان ، إنه أعظم شريعة أنزلت إلى البشر لسعادتهم ، وبذلك نفهم بوضوح قوله تعالى مخاطبا رسوله فى سورة المائدة ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ أى القرآن الكريم ﴿بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ فهو مصدق للديانات الإلهية السابقة ، أى أنه يؤيد بعض ما جاء فى الشرائع السالفة ويهيمن عليها أى يسيطر . ويؤكد الله هيمنة القرآن على الديانات السابقة بقوله فى سورة التوبة : ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ أى لتكون له هيمنة على الديانات كلها وسلطان ، فيصلح ما دخلها من تحريف وزيف وإضافة ، وينسخ ما جاء فيها من أحكام مؤقتة روعى فيها مصلحة أقوام فى بعض العصور والأزمنة الماضية .

ويخاطب الله – عزَّ اسمه – فى الآية الثانية رسوله آمرا له بأن يقول للناس جميعا عربا وغير عرب بأنه رسول الله إليهم كافة لا إلى العرب وحدهم بل إلى جميع البشر . وأكد ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم مرارا بمثل قوله فى الحديث الثانى : بُعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود ، والمراد بالأحمر الأبيض إذ العرب تسمى الأبيض أحمر أى أنه بُعث إلى البشر جميعا . وعن جابر بن عبد الله الأنصارى قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث

الثالث : كان النبىُّ يبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة . ويتردد فى القرآن الكريم أن الله – تقدس اسمه – أرسل كل رسول إلى قومه ، فنوح أرسل إلى قومه وهود أرسل إلى عاد ، وصالح أرسل إلى ثمود ، ولوط أرسل إلى قومه ، وشعيب أرسل إلى أهل مدين ، وعيسى أرسل إلى بنى إسرائيل . ويقول الله فى سورة الروم : ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم﴾ فكل الرسل أرسلوا إلى أقوامهم ما عدا محمدا فإنه أرسل إلى جميع البشر عربا وغير عرب .

ويقول الله جَلَّ شأنه فى الآية الثالثة إنه أرسل محمدا ليكون نذيرا للعالمين كما يقول فى سورة الأنبياء لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ . وكلمة العالمين تتردد فى القرآن كثيرا ومعناها العالم فهو رحمة ونذير وبشير للعالم جميعه . ويكرر الله فى سورة يوسف وصّ والقلم والتكوير أن القرآن – بما يحمل من شريعته – ذكر للعالمين أى للعالم جميعه . فهو ليس – كما يقول أعداء الرسول ودينه الحنيف – سحرا ولا كهانة ولا أساطير الأولين ، إنما هو ذكر ومواعظ تهدى البشر جميعا إلى الدين القويم الذى يسعدهم فى الدنيا والآخرة .

والله – تبارك اسمه – فى الآية الرابعة يقول لرسوله صلَّى الله عليه وسلم : ﴿وما أرسلناك إلا كافَّة للناس﴾ أى إنا لم نرسلك لقريش والعرب فقط ، بل أرسلناك للناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها لتبلغهم رسالتك ﴿بشيرا ونذيرا﴾ لهم تبشِّر من آمن بك ، فوحَّد الله واعتنق شريعتك وما فيها من أوامر ونواه ربانية ، بأن الله سيدخله جنته وينعم فيها نعيما أبديا ، وتنذر من أشرك بالله وعبد آلهة متعددة ورفض رسالتك وشريعتك بأن مصيره إلى عذاب النار الأليم . وإيمانا من الرسول بعالمية دينه وإنه سينتشر فى العالم كان يبشر أصحابه بذلك مرارا بمثل قوله فى الحديث الرابع إنى قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض . ونراه بعد اعتناق أهل الجزيرة العربية للإسلام فى السنة الثامنة للهجرة يرسل جيشا لغزو الروم ، وبلغ مؤتة فى جنوبى الشام ولم يكتب له النصر وعاد . وفى السنة التاسعة للهجرة يُرسل كتابا إلى كسرى الوثنى ملك إيران وآخر إلى قيصر المسيحى إمبراطور بيزنطة والروم يدعوهما إلى اعتناق الإسلام ، وفى نفس السنة خرج بنفسه على رأس جيش لإعلام الروم برسالته وبلغ تبوك ، ورأى أن يعود . وقبيل انتقاله إلى الرفيق

الأعلى أعدَّ جيشا ثالثا لغزو الروم ، وأنفذ الخليفتان أبو بكر وعمر فكرته ففُتحت إيران واستولى المسلمون على مصر والشام أهم ولايتين لبيزنطة ، كما استولوا فيما بعد على البلاد المغربية من بيزنطة وروما ، ولم يكونوا غزاة فاتحين ، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف وانتشر شرقا وغربا .

وهذه العالمية للإسلام فرض الله معها على الرسول والمسلمين أن يتعايشوا فى ديارهم مع جميع مَن بها من أصحاب الديانات والملل إلهية وغير إلهية تعايشا سديدا على نحو ما سنبسط ذلك في حديثنا عن الحرية الدينية والتسامح الإسلامى اللذين كُفلا لجميع أصحاب الملل دون أى استثناء مع المحافظة لأصحاب كل ملة ودين على معابدهم وأموالهم وحقوقهم وأداء شعائرهم بحرية تامة . وكان المسلمون منذ جيلهم الأول فى عصر الخلفاء الراشدين يتعايشون هذا التعايش الجماعى مع أصحاب الكتب السماوية ومع الصابئة عبدة الكوكب فى شمال العراق ، ومع المجوس عبدة النار فى إيران .

ومضى المجتمع الإسلامى بهذا التعايش الجماعى بين كل الأجناس والعناصر المكونة له حتى إذا شُغف العرب بالاطلاع على ما لدى الأمم الأجنبية من معارف وثقافات تجرَّد لهم عشرات إن لم يكن مئات ينقلونها ويترجمونها لهم إلى العربية ، وتموج بهم صفحات كتاب الفهرست لابن النديم ، وقد بدأوا ذلك منذ أواسط القرن الأول الهجرى . وتكاثرت للمسلمين جموع النقلة والمترجمين فى القرنين التاليين من فرس وهنود وسريان حتى لم يبق كتاب مهم لدى الهنود والفرس إلا نقل إلى العربية ونقلت الفلسفة اليونانية وما كان لدى اليونان وغيرهم من العلوم . وانصهرت كل هذه الثقافات فى الفكر العربى وانطبعت بعالمية الإسلام وروحانيته على نحو ما يتضح فى الفلسفة الإسلامية عند الكندى معاصر المأمون الذى يفتتح سلسلة الفلاسفة الإسلاميين العالميين ، وقد ساند المنطق منذ القرن الثانى العلوم اللغوية والشرعية . وأخذت تزدهر من حينئذ عالمية الإسلام فى العلوم وفى الآداب وفى الفكر العربى الإسلامى وفلاسفته : الرازى والفارابى فى القرن الرابع الهجرى وابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس . ويُشْغَلُ المشرق بالصليبيين فى القرن السادس ثم بالتتار . وتظل للإسلام عالميته الضخمة فى الأندلس وبخاصة فى عصر فيلسوفها ابن رشد . وتنبهت أوربا لأعماله ولما فى الأندلس من كنوز فلسفية وعلمية عربية ، فوفد كثيرون منهم على قرطبة وطلبطلة وتعلموا العربية ونقلوا هذه الكنوز إلى اللاتينية ، ويقول ألدومييلى الإيطالى فى كتابه « العلم عند

العرب » : « ترجمت كل كتب العلماء العرب العظام إلى اللاتينية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للمبلاد » وهو فضل عظيم لعالمية للإسلام على الغرب إذ كان منارة له فى مسالكه إلى حضارته الحديثة .

ويدل بوضوح على ما فى عالمية الإسلام من طاقات مدخرة عظيمة كانت تحميه دائما من الانهيار أنه بعد اكتساح التتار للإسلام فى بغداد اكتسحتهم عالمية الإسلام دينيا فاعتنقوه جميعا ، وتكونت منهم دولة إسلامية كبرى ، وبالمثل فى أثناء منازلة إسبانيا والغرب للإسلام فى الأندلس واكتساحهما له حربيا اكتسحهم علميا وحضاريا وتكونت فى شرقى أوربا دولة العثمانيين الأتراك الإسلامية العظمى . ولذلك نظن رغم ما حدث لعالمية الإسلام من ضعف سياسى لدولها واستعمار الغرب لها زمنا أنها – بإذن الله – ستسترد قواها كاملة وتزدهر من جديد .

١٢ - الشورى - الإجماع

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾

آل عمران ١٥٩

٢ - ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

الشورى ٣٨

٣ - ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾

آل عمران ١٠٥

٤ - ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾

النساء ١١٥

الأحاديث

١ - عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قلت : يارسول الله ! الأمر يحدث بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يُسمَع منك فيه شيء قال : اجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأى واحد (روته كتب التفسير) .

٢ – عن أنس بن مالك قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : إنَّ أمتى لا تجتمع على ضلالة (رواه ابن ماجة فى سُننه والترمذى) .

٣ – عن عمر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أراد أن يسكن بُحْبوحة[1] الجنة فليلزم الجماعة (رواه الشافعى فى الرسالة وابن منظور فى اللسان) .

٤ – عن أبى ذَرٍّ رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن فارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبْقَة[2] الإسلام (رواه أبو داود فى سننه) .

والآية الأولى تأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فى الأمر أى فى كل ما يهم مصالح الأمة من شئونها فى الحرب والسلم ، واختلف الفقهاء فى قوله تعالى : ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ هل هو أمر للرسول وحده أو هو أمر له وللأمة والصحيح أنه أمر عام له وللأمة الإسلامية . واختلفوا أيضا هل المشاورة واجبة على أولى الأمر أو مستحبة فقط ، والصحيح أنها واجبة . وكان الرسول _صلى الله عليه وسلم– يلتزمها مع صحابته فى الأمور المهمة المتصلة بمصلحة الأمة ، من ذلك أنه لما أتاه الخبر بخروج جيش لقريش لحماية قافلة أبى سفيان الواردة من الشام بعروض التجارة استشار أصحابه فيما يصنعون هل يتجهون للقاء القافلة أو للقاء جيش قريش . وتكلم بعض المهاجرين مؤثرا لقاء الجيش ، واستمرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشورته يريد أن يسمع رأى الأنصار . وبادر سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه قائلا :يارسول الله والله لو استعرضت [3] بنا هذا البحر (يريد البحر الأحمر) لخضناه معك ، فسِرْ بنا يارسول الله حيث شئت على بركة الله . فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم للقاء الجيش القرشى حتى نزل على أقرب ماء من مياه بدر ، واستشار أصحابه أين يكون المنزل ؟ وأشار الحباب بن المنذر بالتقدم حتى تحجز قريش عن ماء بئر بدر ، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأيه ، ودارت الدوائر على الجيش القرشى . وشاور الرسول الصحابة فى غزوة أحد هل يلقون الجيش القرشى داخل المدينة أو خارجها ، وأشاروا بالخروج ونازلوه معه خارج المدينة . وشاورهم فى غزوة الأحزاب هل يصالح قائدى غطفان بثلث ثمار المدينة لينصرفا عن الغزوة بمن معهم

---

(١) بحبوحة : وسط .

(٢) قيد : قدر . ربقة الإسلام : عقده وعهده .

(٣) استعرض بهم البحر : عرضهم عليه .

من الأعراب ، وأبى ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيمى الأنصارى وأخذ بمشورتهما . وعلى هذا النحو كان يكثر من مشاورة أصحابه فى الحرب والسلم وخاصة مشاورة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وبذلك كان يجعل الأمر من شئون الأمة ومصالحها شورى ، وأوصى بها الصحابة بعده كما فى الحديث الأول . وطبعا الشورى لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم . إنما كانت فيما لم ينزل فيه قرآن ووحى من أمور التشريع الإلهى ، مما يتصل بمصالح الأمة حربا وسلما .

وكما تذكر الآية الأولى وجوب المشاورة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه تنوّه الآية التانية بالشورى الدائمة بينه وبينهم فى كل ما يهم من الأمور حتى يتبين الرأى الصائب . ومعروف أن المهاجرين والأنصار تشاوروا بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى فيمن يخلفه ، ولم يلبثوا أن أجمعوا على أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الشورى أصلا من أصول الحكم فى الشريعة الإسلامية ، وكان ينبغى أن يأتسى به حكام الأمة وينمُّوها على مر العصور ، إذن ما احتجنا إلى أن نأخذها عن الغرب فى عصرنا الحديث وما وضع لها من أنظمة .

وكما حثَّ القرآن الكريم والحديث النبوى على الأخذ بالشورى فى مصالح الأمة حثًّا أيضا على الإجماع بحيث إذا أجمعت الأمة على رأى وجب الأخذ به . وهو بذلك يعد المصدر الثالث فى التشريع الإسلامى بعد كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهب الفخر الرازى إلى أن الآية الثالثة نَصٌّ فيه ، وأن الله يقول فيها : لا تكونوا مثل اليهود والنصارى الذين تفرقوا فى أصول دينهم شيعا وكفَّر بعضهم بعضا ﴿من بعدما جاءهم البينات﴾ والدلائل التى كان من شأنها أن تحول بينهم وبين التفرق والاختلاف والتناحر الشديد . والله – جَلَّ شأنه – يدعو الأمة الإسلامية إلى العمل بالإجماع حتى لا يتفرقوا نِحَلاً كما تفرق اليهود والنصارى . واتفق أكثر علماء الأمة على أنه حجة شرعية يجب العمل به على كل مسلم إلا ما كان من مخالفة بعض الخوارج والشيعة فى ذلك . والأحاديث التى تؤيد عصمة الأمة الإسلامية من الخطأ فى رأيها كثيرة ، من ذلك الحديث الثانى : لا تجتمع أمتى على ضلالة ، وقوله – صلى الله عليه وسلم – يد الله مع الجماعة ، وقوله : يد الله على الجماعة أى أنهم فى حمايته وتعمُّهم وقايته ، ومثل ذلك قوله : عليكم بالجماعة ،

وقوله : سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على ضلالة فأعطانيه ، وقوله : ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن . ومن ذلك الحديث الثالث الذى يجعل فيه سُكنى وسط الجنة لمن لزم الجماعة ولم يشذ عليها . وذهب كثير من الفقهاء إلى أن الإجماع الذى يعتد به إنما هو إجماع المجتهدين من الفقهاء فهم الذين ينعقد بهم الإجماع دون العامة ، فموافقتها -مثل مخالفتها- لا يعتد بها فى الإجماع . غير أن الأحاديث النبوية السالفة تثبت العصمة للأمة جميعا خاصة وعامة ، فلا يلزم أن تكون ثابتة للمجتهدين من الفقهاء وحدهم ، بل هى ثابتة لجميع الأمة مما يترتب عليه أن يكون الاحتجاج بالإجماع قطعيا عند دخول العوام فيه وظنيا بدونهم كما ذهب إلى ذلك الآمدى فى كتابه الإحكام وهو الصواب .

ولكن ما الأمور التى يدور فيها إجماع المسلمين ؟ هى أمور كثيرة تتصل بحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال . وحفظ الدين إنما هو المحافظة على الشريعة وفروضها ، وحفظ النفس هو المحافظة على الكرامة وحقوق الحرية فى العمل والفكر والقول ، وحفظ العقل هو المحافظة عليه من كل ما يضره من مثل الخمر والمخدرات والقِمار ، وحفظ النسل هو المحافظة على إطعامه وتربيته تربية سليمة وتعليمه تعليما سديدا . وحفظ المال . وكل ذلك من حق الأمة أن تبدى الرأى فيه إذا كانت تدفع إلى ذلك مصلحتها ، وطبيعى أن ما يرجع إلى حفظ الدين ثابت وأنه لا مدخل للإجماع فيما نص عليه الكتاب والسنة « نصا قاطعا » لا يحتمل التأويل .

وتشدِّد الآية الرابعة فى الأخذ بما اتفقت عليه الأمة وانعقد إجماعها عليه ، إذ تذكر أن من يشاقق الرسول ويخالفه من بعد ما اتضح له هدى الدين الحنيف ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى﴾ أى نتركه وشأنه ﴿ونصلِه جهنم وساءت مصيرا﴾ . وإذا كان من لا يتبع سبيل المؤمنين وإجماعهم جزاؤه جهنم فإن اتباعهم واجب وبعبارة أخرى يلزمه هذا الاتباع فيما أجمعوا عليه . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع : إن من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع عقد الإسلام وعهده ، وهو تشريف للأمة الإسلامية لا يماثله تشريف ، إذ ضمن لها الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الكثيرة العصمة من الخطأ .

١٣ - الاجتهاد

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾

النساء ١٠٥

٢ - ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

المائدة ٤٨

٣ - ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾

الأنعام ١١٩

٤ - ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

الحج ٧٨

الأحاديث

١ - عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت لبه من حقّ أخيه شيئا فإنما أقطع له قطعة من النار (رواه مالك وابن حنبل والبخارى ومسلم فى كتاب الأقضية) .

٢ - عن معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن أنه قال له بم تقضى ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أقضى بما قضى

به رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو[1] ، قال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسوله . (رواه الآمدى فى كتابه الإحكام فى أصول الأحكام ٤/٤٢) .

٣ – عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر (رواه البخارى فى كتاب الاعتصام) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها (رواه أبو داود فى كتاب الملاحم) .

والآية الأولى تذكر أن الله – جَلّ شأنه – أنزل القرآن على رسوله بالحق الواضح الذى يحكم به بين الناس أى أنزله عليه بالأحكام الكلية التى تندرج فيها الأحكام الفرعية فى قضايا الناس ، ويؤكد الله ذلك بقوله : ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ . واستدل الإمام الشافعى وفقهاء الأمة بهذه الآية على وجوب الاجتهاد فى فهم الشريعة . وجعله الشافعى رابع الأصول التى يرجع إليها فى الشريعة . والثلاثة قبله : الكتاب/والسنة/والإجماع .

والله فى الآية – قد وجَّه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو موجه إليه وإلى أمته كما فى كثير من آيات التنزيل ، وبذلك الاجتهادُ فريضة شرعية عامة ، وعرَّفه الغزالى فى كتابه المستصفى بأنه بذل المجتهد وسعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة فيما لم يأت فيه نصٌّ أو دليل قطعى كالصلوات الخمس فلا اجتهاد فيها . والاجتهاد دائما ليس فى الأصول إنما هو فى الفروع ، كما نعرف عند أئمة المذاهب الفقهية الأربعة . ومجتهد الأمة الأول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكما يحدث أحيانا للمجتهد من الخطأ حدث الخطأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى اجتهاده إزاء أسرى غزوة بدر من قريش فقد طلبوا منه أن يفاديهم بالمال ولا يعودوا إلى حربه ، فاستشار أصحابه – عملا بقوله تعالى ﴿ وشاورهم فى الأمر﴾ – فأشارت عليه جماعة بالفداء فى مقدمتهم أبو بكر الصديق ، قال : يا نبى الله هم بنو العَمِّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، وخالفه عمر قائلا : يا رسول الله أرى أن تمكّننا منهم فنضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر

---

(١) لا آلو : لا أقصِّر .

وصناديده . واختار الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أبى بكر ، فأخذ منهم الفداء ، فأنزل الله عليه معاتبا له ولمن ارتضى الفداء قوله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرَى حتى يُثخِنَ فى الأرض﴾ أى حتى يغلظ فى الأذى وشدة الجراحة والقتل . ويقول الله عقب الآية : ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم﴾ من أموال الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ ولذلك قال الرسول : لو نزل علينا عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر . ويدل بوضوح على اجتهاد الرسول وأنه قد يخطئ فيه الحديث الأول الدال على أنه قد يسمع من الخصم لحنًا من القول أفصح وأبين فى الحجة من صاحبه فيحكم حكما مخطئا وهو ما لم يحدث لأنه كان يلهم الحكم الصائب .

وفيما قدمت ما يدل على مشروعية الاجتهاد لجميع المسلمين ويؤكد ذلك حديث معاذ التانى الذى سأله الرسول بم يقضى بين أهل اليمن ؟ فأجابه بكتاب الله ثم بسنة رسوله فإن لم أجد فيهما مستندا اجتهدت برأيى غير متصر ، واستحسن الرسول منه هذه الإجابة . ومضى الصحابة يجتهدون بعد انتقاله – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى ، ومن أكثرهم اجتهادا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد منع الزكاة عن المؤلفة قلوبهم من أشراف العرب إذ أعز الله الإسلام وأغنى عنهم ، ومنع زواج المتعة ، وأحدث صلاة التراويح ، وأبطل قطع يد السارق عام المجاعة إلى غير ذلك من احتهاداته . وتوزّع الصحابة فى الفتوح الإسلامية وكان منهم مجتهدون كثيرون ، وبالمثل فى التابعين ، حتى لم يكد يخلو قطر من مجتهدين ؛ وإذا نعدد المجتهدون فى قطر لم يكن أحد منهم يتعصب لرأى له ضد زميل عملا بقوله صلى الله عليه وسلم . اختلاف أمتى رحمة ، وكأنه لم يَدْعُ للاجتهاد فحسب ، بل دعا أيضا لقبول اختلاف الرأى فى الاحتهاد .

والآية الثانية فى اختلاف أصحاب الديانات السماوية ، والله جل وعز يقول لكل منهم جعلنا شرعة ومنهاجا ، وكأنه بذلك يجعل لكل مجتهد شرعة ومنهاجا يلتزمه ، وقد عمّ التسامح إزاء الرأى الآخر لبعض الفقهاء ، مما فسح للاجتهاد واختلافاته إذ جميعها اختلافات فرعية لا تمس أصول الإسلام على نحو ما هو معروف فى المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة التى نشأت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . والاختلافات الكثيرة كلها لا تخرج عن شرع الإسلام وأصوله ، وبذلك حفظ الاجتهاد الشريعة بالفتاوى الكثيرة التى أبداها فقهاء الشريعة فى النوازل والأحداث المستجدة ، وفى ذلك يقول الشهرستانى فى كتاب الملل

والنحل : « نعلم قطعا ويقينا أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لا بقبل الحصر والعدّ ، ونعلم قطعا أيضا أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يُتَصَوَّر ذلك أيضا . والنصوص (أى القرآن والحديث) إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية وكان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى عُلم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجبُ الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد » .

وما زال الاجتهاد شائعا ومعمولا به بين فقهاء الأمة حتى عصر السيوطى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، وله كتاب فى الدفاع عن الاجتهاد سماه : « الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض » . واتسع التقليد فى العصر العثمانى وبعده . وعاد الاجتهاد حرا منذ الشيخ محمد عبده ، وهو بلا ريب فرض كما يقول السيوطى وأصل من أصول الشريعة الأربعة ، إذ هو الرابع للكتاب والسنة والإجماع . وقد شاع الحديث الثالث بين المسلمين فى الحقب الماضية وجعلوه عاما بمعنى أن كل مجتهد – حاكما أو غير حاكم – إن اجتهد وأصاب فله أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . وواضح أنه يحث بقوة على الاجتهاد .

والآية الثالثة تنصُّ – بوضوح – على قاعدة الضرورة فى الشريعة ، وهى فى الذبائح المحرمة ، غير أنه ينبغى تعميمها لتفصل فى كثير من المسائل التى تحدث للمسلمين فى عصرنا بعد أن تعقدت معيشتنا ، وتعقد اقتصادنا ، وتعقدت وسائل الإنتاج ، فما يراه فقهاؤنا من علماء الاقتصاد مما بعد ضرورة ينبغى أن نقبله – بناء على اجتهادهم – لأنه لا مناص منه ولا مفر .

والآية الرابعة يقول الله – تبارك اسمه – فيها ما كلفكم الله من حرج أو ضيق لا تطيقونه وما ألزمكم بشىء يصعب عليكم إلا أوجد لكم منه – باجتهادكم – فرجا . وهى وما يماثلها فى القرآن من مثل قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ تفتح للمسلمين أبواب الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية على مصاريعها ، كما يفتحها الحديث الرابع القائل إن الله يبعث للأمة كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، والتجديد أعم من الاجتهاد إذ يشمله ويشمل تجديد شخصيتها وما يتصل بها من الفضائل .

وواضح أن الإسلام يجعل الاجتهاد واجبا من واجبات المسلم ، وقد جعله الشافعى – ووافقه فقهاء الأمة – أصلا ثابتا من أصول الشريعة فيما لم يرد فبه نص من القرآن والحديث والإجماع . واتفق الفقهاء على شروط فى المجتهد أهمها أن يكون عدلا محيطا بمدارك الشريعة فى القرآن الكريم والحديث النبوى مع معرفة الناسخ والمنسوخ فى القرآن ومعرفة الصحيح من الزائف فى السنة ومعرفة اللغة والنحو والبلاغة . واتفقوا على أن ما يجوز فيه الاجتهاد من الشريعة هو كل حكم شرعى ليس فيه دليل قطعى من الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

١٤ - اليُسر

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ

البقرة ١٨٥

٢ - يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

النساء ٢٨

٣ - وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ

الحج ٧٨

٤ - فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

الشرح ٥ و ٦

الأحاديث

١ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الدين يُسْرٌ ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا (رواه البخارى فى كتاب الإيمان) .

٢ - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ الدين إلى الله الحنيفية السَّمحة (رواه البخارى أيضا فى كتاب الإيمان) .

٣ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا صلَّى أحدكم بالناس فَلْيخفِّفْ ، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوِّل ما شاء (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى) .

٤ - عن السيدة عائشة قالت : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخَّص فيه ،

فتنزّه عنه قوم . فبلغ ذلك الرسول فخطب ، فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (رواه البخارى فى كتاب الأدب) .

أنزل الله – تبارك اسمه – فى الآية الأولى بشراه للمؤمنين بأنه يريد بتشريعاته لهم اليسر ، ولا يريد لهم العسر عقب رخصته لهم بالإفطار فى رمضان للمرض والسفر وما يماثلهما من الأعذار ، لأنه يريد بالمسلمين اليسر . واليسر معناه السهولة ، وكأن الله قد ذكر الرخصة المذكورة فى الآية ، وأعقبها بهذا البيان العام فى الشريعة الإسلامية ، وأن أيام الصيام تُقْضَى حين يعود المؤمن لحياته الطبيعية فيقضيها متتابعة أو متفرقة . ومما يسره له فى السفر القصر فى الصلاة بحيث يصبح كل من الظهر والعصر والعشاء ركعتين ، ويصلى العصر مع الظهر والعشاء مع المغرب ، كل ذلك تيسيرا على المسافر . وإذا وجد المصلى الماء توضأ ، وإن لم يجده بأن كان مسافرا فى الصحراء أو على متن طائرة تيمم بضرب يديه على تراب أو على خشب أو على شىء ، مما يخرج من الأرض . ووراء هذه التيسيرات تيسيرات لا تكاد تحصى فى التشريع جديرة بأن يكتب عنها كتاب مستقل . وبحق يقول الرسول لأصحابه : يَسِّروا ولا تعسِّروا ، فإن الدين – كما يقول فى الحديث الأول – بُنى على اليسر ، وفى وصيته لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى حين أرسلهما أميرين إلى اليمن : بَشِّرا ولا تنفِّرا ويَسِّرا ولا تعسِّرا حتى يجتمع الناس إليهما ويستمعوا إلى القرآن : هدى الله ، فيهتدوا . وينصح الرسول فى الحديث الأول أن لا يتشدد أحد فى الدين ويحاول التعمق فيه حتى لا يغلبه الدين ويعجز عن مشادّته ومقاومته لكثرة وجوه العبادة فيه ، والرسول لذلك يدعو المؤمن أن يترفق بنفسه ، وله فى ذلك مواقف مشهودة من بعض الصحابة ، منها أن ثلاثة منهم تعاهد أولهم أن يظل يصلى لربه ليلا ونهارا ، وتعاهد الثانى أن يظل صائما الدهر فلا يفطر ، وتعاهد الثالث أن لا يتزوج أبدا حتى يخلص لعبادة ربه . فذهب الرسول إليهم ، وسألهم عما تعاهدوا عليه فشهدوا بذلك على أنفسهم ، فقال لهم : أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصلِّى وأنام وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء . وهذه شريعتى وسنتى فمن رغب عنها فليس منى . فانتهوا عما كانوا قد عزموا – وأصروا – عليه . وقصته مع عبد الله بن عمرو بن العاص مشهورة ، فقد أُخْبِر الرسول صلى الله عيه وسلم أنه يقول : والله لأصومنَّ النهار وأقومنَّ الليل مصليا ما عشت ، فاستدعاه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له هل قلت ذلك ؟

قال عبد الله نعم قد قلته يا رسول الله قال : فإنك لا تستطيع أداء ذلك فَصُم وأفطر ونَم وقم أى صَلّ ، وصُم من الشهر ثلاثة أيام ؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر . قال عبد الله : فإنى أطيق أفضل من ذلك قال الرسول : فَصُم يوما وأفطر يومين ، فقال عبد الله : إنى أطيق أفضل من ذلك قال الرسول : فصم يوما وأفطر يوما ، فقال عبد الله : إنى أطيق أفضل من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أفضل من ذلك .

والآية الثانية كالآية الأولى تجعل التخفيف فى أمور الشريعة مُراعى ، يراعيه الله كما يراعى التيسير ، رفقا بالأمة الإسلامية ورفقا بأفرادها ، إذ الإنسان خلق – كما تقول الآية – ضعيفا ، والله لذلك يخفف عن المسلمين ويرفق بهم وبالمثل رسوله . فمن ذلك أن بعض المصلين خلف معاذ بن جبل شكوا إلى الرسول من تطويله فى صلاته بهم ، فقال له أفتّان أنت ؟ . والشريعة الإسلامية – بذلك – تُعَد أفضل الشرائع السماوية لقيامها على اليسر والتخفيف . وشهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث التانى قائلا : إن أحبَّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة ، والحنيفية : الشريعة الإسلامية القائمة على ركنين عظيمين من التخفيف والتيسبر على المؤمنين . ومما يصور ذلك الحديث النبوى التالث الذى يدعو فيه الرسول من يؤمّون الناس فى الصلاة إلى أن يأخذوا أنفسهم فيها بالتخفف إشفاقا على من وراءهم فإن بينهم الضعيف والسقيم والكبير المسن .

والآية الثالثة تبين بدورها فضل الشريعة الإسلامية وأن الله لم يجعل فبها من حرج أو ضيق بل جعلها قائمة على السهولة والتيسير والتخفيف ، وبذلك كانت شريعة عالمية بحق ، فهى سهلة مبسورة بكل فروضها ومقاصدها على أهلها وعلى من يعتنقها من الأمم وأصحاب الملل الأحرى . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض رخصا فى الشريعة ، وكان بعض الصحابة يرى أن لا يأتيها طلبا للمشقة على نفسه إرضاء – فيما يظن – لربه ، فكان الرسول بضيق بتصرفهم ، ويبلغ به الضيق أن يخطب فيهم ناهيا من يمتنعون عن بعض رخصه ، ويصور ذلك الحديث الرابع إذ بلغه أن قوما يتنزهون عن إحدى رخصه ، فلامهم لوما شديدا قائلا إنه يأتى هذه الرخصة وهو أعلمهم بربهم وأشدهم له خشية . وكان ما يزال يحبِّب الصحابة فى إتيان الرخص التى منحها الله لهم تيسيرا علبهم ورفقا لهم ومحبة ، وكان مابنى يقول إن الله يحب من عَبْده أن يأتى رُخَصه .

ولعل فى ذلك كله ما يشهد – بصورة واضحة – أن الشريعة الإسلامية تقوم على اليسر وأنه يعد أصلا أصيلا فيها كما شهدت بذلك الآيات والأحاديث السابقة وآيتا سورة الشرح : ﴿فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا﴾ والسورة فى خطاب الرسول ، وقد يكون العسر فى الآيتين خاصا به وأنه لابد أن يعقبه يسر ، والأولى أن يكون عاما له ولأمته ، ويرجح ذلك أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشروا أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين . وكأن تعريف العسر فى الآيتين جعله عسرا واحدا ، بينما بتنكير اليسر تعدد ، فأصبح يسرين . وكأن كل عسر فى الشريعة الإسلامية يقابله يسران ، فما أيسرها وأجلها من شريعة .

١٥ – التوسط

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ - وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

البقرة ١٤٣

حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

البقرة ٢٣٨

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾

القلم ٢٨

الأحاديث

١ – قال صلى الله عليه وسلم : خيار الأمور أوساطها (رواه المفسرون واللغويون) .

٢ – عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة قال من هذه ؟ قالت هذه فلانه تذكر من صلاتها (كثرة) قال : مَهْ (أى اكْفُفْنَ) عليكن (من العمل) بما تُطقن فوالله لايملُّ الله (من الثواب) حتى تَمْللن (من العمل) وأحبُّ الدين إلى الله ما داوم صاحبه عليه (رواه البخارى فى كتاب الإيمان) .

٣ – عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هَلَكَ المتنطِّعون . قالها ثلاثا . والمتنطعون : المتعمقون فى الدين المتشدِّدون فى غير موضع التشدُّد (رواه مسلم فى كتاب العلم وابن حنبل فى مسنده) .

٤ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا الدين متينٌ فأَوْغلوا فيه برِفقٍ فإن المنبتَّ لا أرضا قَطَع ولا ظَهْرًا أَبْقى (رواه البخارى فى كتاب الإيمان) .

ويقول الله – تقدس اسمه – فى الآية : الأولى : (وكذلك) مشيرا إلى تعظيم ما سيذكر بعد اسم الإشارة وهو أنه جعل المسلمين (أمة وسطا) والوسط اسم للموفع بين طرفى مواقع مختلفة كقولنا وسط الجزيرة ووسط الوادى ووسط الحقل ، وهو أيضا اسم لما بين طرفى شيء مثل وسط الجبل ووسط الغرفة ووسط الدار ، ومن ذلك واسطة العقد ، وهى الجوهرة النفيسة التى تتوسط درر العقد . وفُسِّرْت الكلمة فى الآية بأنها تعنى خيارا من الخير لقول الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس﴾ وأريد بالخير مايشمل جميع الخيرات وأداءها أحسن أداء . وقيل بل المراد بكلمة (أمة وسطا) أنها أمة عادلة نلتزم التوسط فى كل شئونها على نحو التزامها للعدل المتوسط بين الشفقة والقسوة فهى تتمسك دائما فى الأخلاق بالتوسط والعدل . فتتمسك مثلا بالكرم المتوسط بين الإسراف والشح ، وبالشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن ، وبحق يقول الرسول فى الحديث الأول : خيار الأمور أوساطها ويقول فخر الدين الرازى فى تفسير الآية : يجوز أن بكون وسطا بمعنى أنهم متوسطون فى الدين بين الإفراط والتفريط ، لأنهم لم يغلوا كما غلا النصارى فجعلوا المسيح ابن الله ولا فَرَّطوا كما فرَّط اليهود ، فبدَّلوا وحرَّفوا التوراة وقتلوا أنبياءهم واستخفوا برسلهم .

وقد كرَّر الرسول صلى الله عليه وسلم طلب هذا التوسط من أمته الإسلامية فى دعونه المستمرة إلى صحابته من الرجال والنساء أنْ لا يسرفوا ويشتطوا فى عبادتهم لربهم على نحو ما نجد فى الحديث الثانى ، فقد دخل على زوجته السيدة عائشة ، فوجد عندها امرأة ، فسألها عنها ، وأجابته قائلة إنها تذكر إكثارها من الصلاة ، فقال : مَهْ زجرا عن هذا الإكثار ، وربما كان يزجر السيدة عائشة لمدحها المرأة بكثرة صلاتها وقال عليكن من العمل والصلاة بما تستطعن الدوام عليه فإن الله لا يمل من الثواب ، بينما تمللن من العبادة . وقال : إن الله يحب من عبده مداومته على عبادته ولو كانت قليلة . يريد الرسول صلى الله علبه وسلم أن يقول للسيدة عائشة وصاحبتها أن دوام العبادة القليلة أكثر ثوابا عند الله من العبادة الكثيرة التى تشق على صاحبها أو صاحبتها ، فيضطران إلى قطعها أو تقطيعها ، فقليل دائم فى الصلاة أو فى العبادة خير من كثير لا يدوم . والرسول صَلّى الله عليه وسلم بذلك يريد للمسلم أن يرفق بنفسه فى عبادة ربه ، ولا يقسو عليها . ومرَّ بنا حديث عبد الله بن عمرو مع الرسول حين علم أنه يريد أن

يصوم الدهر ونهيه عن ذلك ، ولهذا الحديث روايات مختلفة ، منها أنه علم أنه يصوم النهار ويقوم (أى يصلى) الليل ، فقال له الرسول لا تفعل ، صُمْ وأَفْطِرْ ، ونَمْ وقُمْ (أى صَلِّ) فإنَّ لجسدك عليك حقا ، وإن لعينيك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزَوْرك (زُوَّارك) عليك حَقًّا ، وبحَسْبك أن تصوم فى كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشرة أمثالها ، فإن ذلك صيامُ الدَّهْرِ . وكان الرسول ما يزال ينصح المتعمقين فى الدين أن يخففوا عن أنفسهم ، ومن قوله لهم الحديث الثالث : هلك المتنطعون . وكرر هذا القول ثلاث مرات ، والمتنطعون هم الذين يشددون على أنفسهم فى الدين ، فيبالغون ويفرطون والسداد التوسط من غير إفراط ولا تفريط أو من غير مبالغة ولا تقصير .

ومن أحاديث الرسول المتداولة المشهورة حديثه الرابع : إن هذا الدين متين أى قوى ، فأوغل فيه برفق أى سِرْ فيه وابلُغ الغاية القصوى منه برفق ، ولا تحمل على نفسك ولا تكلّفها وتشق عليها بما لا تطيقه ، فتعجز ، فإن المنبتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أى بعيرا أبقى ، والمنبت : الذى أتعب بعيره حتى عطب ولم يستطع السير ، فبقى فى الطريق منقطعا ، استعاره الرسول لمن يتعب نفسه فى العبادة حتى لا يستطيع المضى فيها عجزا وعدم استطاعة . وكان قد آخى بين سلمان وأبى الدَّرْداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذِّلة أى ليست مزدانة لزوجها ، فقال لها ما شأنك ؟ أى لماذا أنت متبذلة ، فقالت له أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ، فجاء أبو الدرداء ، فصنع لسلمان طعاما ، فقال له : كُلْ فإنى صائم ، قال له سلمان : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل معه ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم (يتهجد) فقال له سلمان : نَمْ فلما كان من آخر الليل قال له سلمان : قُم الآن ، فصلَّيا جميعا ، وقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، فأَعْطِ كل ذى حَقٍّ حقَّه ، وأتيا النبى صلَّى الله عليه وسلم ، وذكر سلمان ذلك له ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : صدق سلمان . روى هذا الحديث البخارى . وفى بعض الروايات أنه قال لأبى الدرداء : سليمان أفقه منك . ويقول الله للرسول فى سورة طه : ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ والشقاء فى الآية فرط التعبد فهو لم ينزل القرآن ورسالته العظيمة على الرسول ليكون سببا فى شقائه أو شقاء المؤمنين وتعبهم وعنائهم المفرط ، بل أنزلناه ﴿تذكرة لمن يخشى﴾ الله ويعبده دون عناء أو مشقة مفرطة ، أو بعبارة أخرى دون إفراط فى العبادة أو تفريط . والله ورسوله بذلك يدعوان المسلمين إلى التوسط فى العبادة دون إرهاق أو عناء شاق .

والله – تقدّس اسمه – فى الآية الثانية بأمر المسلمين بالمحافظة على أداء الصلوات وما فيها من تحميده وتسبيحه ، وأداء الصلاة الوسطى بين فروص الصلوات الخمسة وفى الحديث إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة فى أول وقتها ، وخص الله من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى ، واختلف فيها هل هى صلاة الصبح لتوسطها بين صلاة الليل : المغرب والعشاء ، وصلاة النهار : الظهر والعصر ، وقيل هى صلاة العصر لتوسطها بين صلاة الصبح والظهر وصلاة المغرب والعشاء ، والأصح أنها صلاة الصبح وهو قول عمر وابنه عبدالله وعلى والسيدة عائشة ، والسيدة حفصة ، وهو قول الإمامين مالك والشافعى ، واحتج الشافعى بقول الله فيها : ﴿وقوموا لله قانتين﴾ والقنوت لا يكون ألا فى صلاة الصبح ثم هى التى تكثر فيها المعوفات وخاصة النوم ، وهى التى امتدح الله فيها قراءة القرآن بقوله : ﴿إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ .

والآية الثالثة تشير إلى قصة بستان كان صاحبه يتصدق بكثير من تمره وعنبه على المساكين ، فلما مات رأى أبناؤه منع هذه الصدقة وجَنْى ما فيها من التمر والعنب قبل طلوع الشمس ، حتى لا يتعرض لهم أحد المساكين . وسلط الله على البستان ما أحرقه فلما ذهبوا إليه لجَنْى الثمار بهتوا ﴿قال أوسطهم﴾ أى خيرهما أأحثكم على تسبيح الله وشكره . وعرفوا أنهم كانوا ظالمين لعزمهم على حرمان المساكين ، وأخذوا يتلاومون . وإنما ذكرنا هذه الآية والتى قبلها لصلتهما بمعنى التوسط ، فالصلاة الوسطى تتوسط صلوات اليوم ، والأوسط خير إخوته وأعدلهم .

١٦ - الحرية الدينية - التسامح

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ

البقرة ٢٥٦

٢ - ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ

البقرة ٢٧٢

٣ - قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

الجاثية ١٤

٤ - وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾

الإنسان ٨

الأحاديث

١ – عن ابن عباس أن رجلا مسلما من الأنصار كان له ابنان نصرانيان ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما (أى على الإسلام) فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه على رسوله الآية : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ (رواه ابن كثير فى تفسيره) .

٢ – عن ابن عباس : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بأن لا يتصدق المسلمون إلا على أهل الإسلام حتى نزلت آية : ﴿ليس عليك هداهم﴾ فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألهم من كل دين (رواه ابن كثير فى تفسير الآية) .

٣ – فى الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نقصت صدقة من مال ولا زاد الله عبدا بعفو إلا عزًّا (رواه مالك فى الموطأ ومسلم فى صحيحه) .

٤ – عن ابن عباس : كان الأسراءُ فى بَدْرٍ من قريش مشركين ، وأمر الرسول أصحابه أن يكرموهم فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء (رواه ابن كثير) .

الآية الأولى : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ المراد بالدين فيها الإسلام وحكمها عام فلا يُكْرَهُ أحد على الدخول فيه ، إذ الإسلام يكفل للناس الحرية الدينية ، فلا يجبر أحد على الدخول فيه مكرها قهرا ، بل يترك الناس وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للحرية الدينية ، وفى ذلك يقول الله لرسوله منكرا عليه شدة حرصه على إيمان أهل مكة : ﴿ولو شاء ربُّك لآمن مَنْ فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكْرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أى أنه ينبغى أن يترك للقرشيين حريتهم فى اتباع الإسلام فإنه واضح بدلائله وبراهينه ، ولا يحتاج إلى كثرة الحث من الرسول على الدخول فيه . وشِقٌّ ثان لهذه الحرية الدينية فى الإسلام هو معاملته لأهل الكتاب من النصارى واليهود بالحسنى ، وتوضح ذلك معاهدة الرسول لنصارى نجران وفيها يقول :

« لنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمة محمد النبىّ رسول الله على أموالهم وأنفسهم ومِلَّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم (كنائسهم) وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، ولا يغيرَّ أُسْقُف من أُسْقِفِيَّته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ، وليس عليهم دِيَةٌ ولا دم جاهلية . ومن سأل منهم حقا فلهم النَّصَف غير ظالمين ولا مظلومين » .

وهى وثيقة فى عهد الرسول ظلت تحمل قواعد التعامل السمحة للمسلمين مع أهل

الكتاب فى جميع الأقطار الإسلامية شرقا وغربا ، فمعابدهم تحترم ويؤدون شعائرهم الدينية بحرية كاملة دون أى إزعاج لهم . ويزيدنا بيانا فى هذا التسامح الإسلامى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأهل إيليا (بيت المقدس) النصارى وفيه يقول :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلْبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُنْتَقَصُ منها ولا من حَيِّزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضارُّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (كما طلبوا) . وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية .. وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » .

والجزية التى كانت تفرض على أهل الكتاب فى الأقطار الإسلامية إنما كانت ضريبة دفاع لا تؤخذ إلا ممن يصلحون للتجنيد وكانوا يُعْفَوْن منه ، ولذلك كانت لا تؤديها المرأة ولا الشيخ ولا الصبى ولا الرهبان ، وكانت زهيدة إذ لم تكن تزيد عن دينار — غالبا . وهذا العهد للخليفة عمر بجانب معاهدة الرسول لنصارى نجران ظلا معًا القواعد المتبعة فى معاملة المسلمين لأهل الكتاب شرقا وغربا طوال العصور الإسلامية إلى العصر الحديث . وتُرْوَى أحاديث مختلفة عن التعامل بالحسنى مع أهل الكتاب وأن لا يؤذيهم المسلمون أى إيذاء أو يضروهم أى ضرر .

والآية الثانية نزلت بإباحة الصدقة على الكفار ، وكان الرسول صلّى الله عليه وسلم ينهى المسلمين عن التصدق على فقرائهم أملا فى أن تدفعهم حاجتهم إلى اعتناق الإسلام ، وكأنه يريد منهم أن يسلموا قَسْرًا أو إجبارا ، فنزلت الآية تلفت الرسول صلّى الله عليه وسلم إلى أن واجبه إنما هو تبليغ الدعوة إلى الإسلام والإرشاد إليه ، أما إسلام الناس ودخولهم فى دينه فراجع إلى حريتهم واختيارهم دون قهر أو إلجاء . والله يقول للرسول صلّى الله عليه وسلم إنك لست مكلفا بهدايتهم فلا يمسّك حزن لعدم إسلامهم ودَعِ المسلمين يتصدقوا على فقرائهم . وهو تسامح عظيم معهم إذ يطلب الله من الرسول والمسلمين أن يتصدقوا على الفقراء من مشركى قريش أسوة بتصدُّقهم على الفقراء من المسلمين ، ويقول ﴿ولكن الله يهدى من يشاء﴾ أى أن هدايتهم إلى الإسلام مفوضة إليه وهو لا يجعلها قهرا ولا إجبارا . ويحض الله على الصدقة عامة ، فإن من ينفق فثوابُ إنفاقه راجع إليه ما دام يبتغى وجه ربه

سواء أنفق على مسلم أو على كافر ، وما يبذل أى صدقة أو نفقة إلا ولها أجر عظيم يوفّيه له ربّه .

والله - تقدس اسمه - يطلب من المؤمنين فى الآية الثالثة أن يعفوا عن أذى المشركين وكان إيذاؤهم لهم قد اشتد وعنف ، ومع ذلك يطلب الله منهم العفو والصفح مع ما كان يستشعره كفار قريش من الصلف والجبروت ،يريد أن يسود بمكة الهدوء والسلام ، ولعل كثيرين من المشركين يتدبرون موقفهم العنيف من الإسلام ويعتنقون الدين الحنيف . وهى أيضا محاولة ربانية كريمة ليستشعر المسلمون التسامح مع المشركين إلى أقصى مداه ، إذ مع إيذائهم الشديد للمسلمين يطلب الله - جل وعز - منهم الصفح عنهم مع إشراكهم وكفرهم وأنهم ﴿لا يرجون أيام الله﴾ أى لا يسألونه فضله ولا ينتظرونه ، لأن قلوبهم انطوت على الكفر به وبنعمه . وربما كانت الأيام فى الآية يراد بها أيام الجزاء فى الآخرة وأنهم لا يؤمنون بالمعاد ومع ذلك يطلب الله ممن يؤذونهم الصفح عنهم والعفو . وهو تسامح لا يماثله تسامح ، ويقول الرسول صلّى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث : ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وقد منح الله هؤلاء المسلمين الذين آذاهم مشركو قريش عزا عظيما بينما أذلّ المشركين ذلا كبيرًا فى بدر وغير بدر .

وفى الآية الرابعة : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ يصف الله - جَلّ شأنه - المسلمين بأنهم يطعمون المحتاجين الطعام مع حبه أى أنهم يؤثرونهم به على أنفسهم بينما هم يحتاجونه ، ومع ذلك يقدمونه للمسكين واليتيم من المسلمين كما يقدمونه للأسير من الكفار والأعداء شفقة عليه . ويؤيد ذلك ما جاء فى الحديث الرابع عن ابن عباس فى أسرى بدر من المشركين ، إذ يقال إنهم كانوا سبعين رجلا ، وأمر الرسول أصحابه أن يكرموهم ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم حين يحضر الغداء .

وكل هذه صور عظيمة من التسامح الذى أراد الله للمسلمين أن يستظهروه فى معاملتهم لمن يخالفونهم فى دينهم من أهل الكتاب سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو حتى لو كانوا مشركين ، وبذلك فرض على المسلمين التعايش مع كل الناس فى محيط أمتهم قائلا : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ : وحتى المقاتلين منهم حين يأسرهم المسلمون يطلب إليهم أن يطعموهم ويكرموهم . وصدَر الرسول دائما عن هذا التوجيه ، أو هذا القانون الربانى ، فقد عايش

المسلمون بعهد الرسول اليهودَ فترة وعايشوا نصارى نجران وعايش الخلفاء الراشدون ومعهم المسلمون أربع ديانات وأصحابها : المسيحية واليهودية والمجوس عبدة النار والصابئة عبدة الكواكب ، فقد عاملوا أصحاب الديانتين الأخيرتين معاملة أهل الكتاب على نحو ما سنّها الرسول صلّى الله عليه وسلم فى عهده السالف لأهل نجران وبالمثل الخليفة عمر بن الخطاب فى عهده السالف لأهل بيت المقدس . فمعابدهم وأموالهم جميعا تحترم ويؤدون شعائرهم بحرية تامة ولا يكرهون بأى صورة على الإسلام ، ويؤدون الجزية وهى — كما ذكرنا — كانت ضريبة دفاع على القادرين على حمل السلاح وحدهم .

وهو تسامح عظيم لم يعرف لأى دين ولا لأى أمة قبل الأمة الإسلامية وشريعتها السمحة التى شرعت وحدة الإنسانية والمساواة بين الديانات إلهية وغير إلهية وبين جميع الأجناس والأعراق والشعوب ، مما جعلها بحق ديانة عالمية تقر الخلاف الدينى بين الجماعات وتمسك كل جماعة بدينها مادامت مسالمة لجماعة المسلمين . فلا عجب إذا وجدنا فى هذا المناخ الإسلامى الحضارى ذوى النحل المختلفة يجتمعون فى مجالس المتكلمين والعلماء يتحاورون فى نحلهم ويتناظرون بحرية تامة ، من ذلك مجلس بالبصرة ، يقول صاحب النجوم الزاهرة فى الجزء الثانى ص ٣٩ : « كان يجتمع فى البصرة عشرة فى مجلس لا يُعْرَف مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سنىّ والسيد الحميرى الشاعر شيعى رافضى وصالح بن عبد القدوس ثَنْوىّ (على دين مانى) وسفيان بن مجاشع صُفْرى من الخوارج وبشار بن برد الشاعر خليع ماجن وحماد عجرد زنديق وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى وابن نظير النصرانى متكلم وعمرو ابن أخت المويذ مجوسى وابن سنان الحرّانى الشاعر صابئى . ومجالس أخرى مشابهة كان يجتمع فيها العلماء والمتكلمون وأصحاب الملل والنحل فى البصرة وفى بغداد ويتجادلون ويتحاورون ، مما يصور تسامحا إلى أقصى الحدود بين المسلمين وأصحاب الديانات السماوية وغير السماوية . وفى جذوة المقتبس للحميدى بترجمة أندلسى يسمى أحمد بن سعدى أنه حضر فى بغداد مجلسا لأهل الكلام فى القرن الرابع الهجرى جمع الفرق كلها : المسلمين من أهل السنة والبدعة ، والكفار من المجوس ، والدهرية والزنادقة ، واليهود والنصارى . ولما غَصّ المجلس بأهله تناظروا بالحجج العقلية وما يحتمله النظر والقياس . ولا ريب فى أن هذا التسامح للمسلمين سلوك إسلامى حضارى ، وهو صورة كبرى من صور عالمية الإسلام وانفتاحه على الديانات إلهية ووثنية وعلى الثقافات المختلفة .

١٧ - العدل

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

الرحمن ٧ ، ٨ ، ٩

٢ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

النساء ٥٨

٣ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾

النحل ٩٠

٤ - ﴿ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ ﴾

الحجرات ٩

الأحاديث

١ - قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا من البغي ، مع ما ينتظر صاحبه من عقوبة في الآخرة (رواه ابن كثير في تفسيره) .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلُّهم

الله فى ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ، وأولهم إمام عادل (رواه مسلم فى كتاب الزكاة ، والبخارى وابن حنبل فى مسنده والنسائى) .

٣ – قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : إن الله مع القاضى ما لم يَجُرْ فإذا جار وكَله إلى نفسه (رواه ابن ماجة فى كتاب الأحكام) .

٤ – عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : إنَّ المقسطين الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن (رواه مسلم ففى كتاب الإمارة) .

والله فى الآيات الأولى يقول إنه وضع الميزان أى العدل فى خلقه للسموات والأرض بحيث أصبح قانونا عاما ينتظم به الكون وموجوداته ، فكل شيىء فيه خُلق بالعدل فى نفسه فلا يطغى فيه حزء على جزء ، ومع غيره فقد وُضع مع الموجودات بقسطاس محكم غاية الإحكام ، بحيث يسودها جميعا قوانين عدالة عامة دون أى تفريط فى شىء أو إفراط . ويكفى أن ننظر إلى ما أنعم الله به على الإنسان من كفيه ، فإنه لم يجعل الكف دون أصابع كخُفٍّ البعير ولا جعلها ذات قدر واحد ، بل جعلها متفاوتة فى القدر حتى ينتفع بها الإنسان فى الإمساك بالأشياء والقبض عليها ، وهو معنى قوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿وخلقَ كل شىء فقدَّره تقديرا﴾ أى سوَّاه وأوجده فى صورة مقدرة تقديرا محكما مضبوطا لأداء ما خُلق له ، صورة سنَّتها إرادة الله وحكمته العليا ، صورة كاملة ، كما قال فى سورة طه إنه ﴿أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ أى أنه أعطى كل شىء من الموجودات هيئته الخاصة وما يحتاجه ، فتكونت بذلك الأجناس والأنواع والفصائل والأفراد ، فى صور مقدرة تقدير عدالة محكمة غاية الإحكام .

ويقول الله فى الآية الثانية : ﴿أنْ لا تطغوا فى الميزان﴾ واختلف المفسرون فى كلمة الميزان فى الآية ، فقيل المراد بها العدل كما فى الآية السابقة لها والمراد بالطغيان البغى أى لا تبغوا فى ميزان العدل الذى أنزلناه فى القرآن والذى يدعوكم إلى الإنصاف فى المعاملة وأن لا ترتكبوا أى ظلم . وقال بعض المفسرين المراد بالميزان فى هذه الآية والسابقة لها الميزان الحقيقى ، والمراد بالطغيان الحيف فيما يوزن زيادة ونقصا ، فكل منهما طغيان واعتداء وبغى . والأولى أن يكون المراد بالميزان فى الآية العدل الذى جعله الله قانونا وجوهرا ثابتا فى خلقه . ولو أن المعتزلة – فى العصر العباسى – تنبهوا إلى ذلك ما أتعبوا أنفسهم فى إثبات وجوب العدل على الله ، وهو يلزم به نفسه لا فى الكون والحياة الدنيا فحسب ، بل أيضا فى الآخرة إذ يقول : ﴿ونضع الموازين

القِسْطَ ليوم القيامة فلا تظلم نفسٌ شيئا وإن كان مثقالَ حبة من خَرْدَلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وهى موازين عدالة إلهية دقيقة منتهى الدقة ، وهى عدالة أراد الله للمسلمين وشريعتهم أن تعمَّ لا فى موازين الشراء والبيع ومكايلهما فحسب ، بل أيضا فى كل ما يأتون ويصنعون من الأمور بحيث لا يبغى قوى على ضعيف ولا قادر على عاجز ولا غنى على فقير ، ويقول الرسول الله صلَّى عليه وسلم فى الحديث الأول : ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا من البغى أى الظلم مع ما ينتظر صاحبه من عقوبة فى الآخرة .

والله – عزَّ سلطانه – يأمر المسلمين فى آية سورة النساء إذا حكموا بين الناس فى القضاء أو فى المصالحات حكموا بالعدل الذى لا تصلح حياة الأمة والأفراد بدونه ، إذ يصبح كل صاحب حق آمنا مطمئنا على حقه ، أما إن كان الحاكم ظالما فإن حياة الأمة تصبح مدلهمة بشعة ، وتغيب عن الناس الثقة والطمأنينة ، وكيف يطمئنون أو يثقون فى سلطان حاكم باغ يقوم حكمه على الاستطالة والقهر . ولذلك شدَّد الله وشدَّد الرسول مرارا على أن يكون الحاكم عادلا حتى يعيش الناس فى أمان واطمئنان ومساواة تجعلهم فى مأمن من كل عبث بحقوقهم ومن كل طغيان . ويروى أن إمبراطور بيزنطة أرسل إلى الخليفة عمر رضى الله عنه هدايا من الثياب ، فلما دخل رسوله المدينة سأل عن دار الخليفة ، فدلوه عليها ، ووجدها بيتا صغيرا وعليه باب قديم ، وكان يظنها قصرا . ولم يجده ، وقيل له إنه خرج إلى السوق لحاجة له ولمراقبته ، فمضى يطلبه ، وتصادف أن وجده نائما فى ظل حائط ، ولاحرس ، فقال تَوًّا : عدلتَ فأمنتَ فتمتَ حيث شئت ، وأمراؤنا ظلموا فاحتاجوا إلى الحراس والحصون . وبدون ريب إشاعة القاضى والحاكم للعدل فى الأمة يشيع فيها الرضا ويعصمها من الخوف والقلق ويجعل حياتها رائقة مشرقة ، ولذلك يشيد به الرسول صَلَّى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى : ويقول إن الإمام العادل واحد من سبعة يظلهم الله فى ظله يوم القيامه يوم لا ظل إلا ظله . أما إذا عبث الحاكم بأمانة الحكم وقطع الصلة بينه وبين العدل فى حكمه ، فلم يأمر بإعطاء صاحب الحق حقه، ولم يُسَوِّ بين الناس فيما لهم من حقوق ، بحيث يرد إلى كل شخص ما يستحقه ؛ حينئذ يصبح حاكما جائرا ، ويتخلَّى الله العظيم العادل عنه ويكله أو يتركه إلى نفسه ، حتى يعرض عليه يوم القيامة ، وهو يحمل ذنوب ظلمه على ظهره ، ويعاقبه الله عقابا شديدا .

وفى آية سورة النحل يأمر الله بالعدل أمرا عاما كل مسلم ، فعليه أن يكون عادلا فى كل ما يتصل بذاته من حقوق ، فيؤديها ، كما يؤدى بعدل جميع عباداته وجميع صور

المعاملات للأقارب وللناس ، أما لله فيؤدى له حقوقه من العبادات ومن كل ما أمرنا به ، وأما للأقارب فيكون بارًّا بهم ، ولا بد أن يلتزم العدل فى عشرتهم ، وعشرة زوجته وأبنائه ، وعشرة أصدقائه وجيرانه . ولا بد أن يكون عادلا بصفة عامة فى أقواله وأفعاله ، يقول تعالى : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ ويطلب الله العدل حتى مع الأعداء إذ يقول : ﴿ولا يجرمَّنكم شنآنُ قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ والشنآن شدة البغض ، ومعه ومع العداء الشديد كما كان بين المسلمين والكفار يأمرنا الله بالعدل والإنصاف ، ويسمِّيه مرارا بالقسط مرادفه كما فى آية سورة الحجرات الرابعة ، وهو بذلك يريد للمسلمين أن يصدروا فى كل أعمالهم عن هذه الصفة المثالية التى تجعل حياتهم حياة سلام وصفاء وأمن ورضا وطمأنينه ، ويبشر الرسول فى الحديث الرابع المقسطين العادلين فى حكمهم وأهلهم ببشرى عظيمة ، إذ سيكونون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وهى بشرى ضخمة يستحقها هؤلاء العدول الجديرون بها من ربهم .

١٨ – العلم

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

التوبة ١٢٢

٢ – وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا

طه ١١٤

٣ – وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

الإسراء ٨٥

٤ – قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ

الزمر ٩

الأحاديث

١ – عن معاوية قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : مَنْ يُرد الله به خيرا يفقّهه فى الدين (رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم فى كتاب الزكاة) .

٢ – عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : مَنْ خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى برجع (رواه الترمذى) .

٣ – عن أبى الدرداء قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم : مَنْ سلك طريقا يبتغى فيه علما سَّهل الله له طريقا إلى الجنَّة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . (رواه أبو داود والترمذى) .

٤ – عن أبى أمامة قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم : فضْل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ثم قال إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير . (رواه الترمذى) .

كان الله فى سورة التوبة قبل الآية الأولى يحرض المسلمين بقوة على الحرب لإعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيل الدين الحنيف ونشره ، وعقَّب على ذلك فى هذه الآية بالحض على جهاد فريق منهم فى التفقه بالدين الحنيف وشريعته وتعاليمها ليكونوا هداة لقومهم الذين دخلوا فى الإسلام . وبذلك جعل القرآن التفقة فى الدين لتأييد الإسلام مساويا للجهاد الحربى فى نشره وتثبيته ، فهو جهاد سلمى بجانب جهاد المحاربين المدافعين عن الإسلام ، جهاد لا يقلُّ عنه مثوبة وشرفا .ويؤيد الرسول صَلَّى الله عليه وسلم الآية بقوله إن من يُرِدِ الله به خيرا فى دنياه وآخرته يفقهه فى الدين ، من التفقه وهو فهم ما يخفى ويدق من الدين عن طريق مدارسة أحكامه الشرعية ، مما جعل المدينة – فى عهد الرسول وبعده – تتحول إلى دار تعليم كبرى لأوامر الشريعة الإسلامية ونواهيها . وكان الرسول يبعث ببعض صحابته معلمين إلى مدن الجزيرة العربية وقبائلها يعلمون المسلمين الجدد شريعة دينهم فى العبادات والمعاملات والسلوك القويم الخلقى والاجتماعى والإنسانى . وما إن انتقل الرسول صَلَّى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ونشأ عصر الفتوح من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى إلا ونجد المسلمين فى كل بلد يفتحونه يبنون فيه مسجدا ويتجرد نفر منهم لتعليم أهله الشريعة الإسلامية . وسرعان ما تعرَّب هذا العالم الشاسع ودخلت كثرة من سكانه فى الدين الجديد ، وقامت فى بلدانه حركة تعليميه واسعة . وبذلك لم يكن الإسلام دينا فقط بل كان أيضا شريعة وعلما وتفقها وحضارة .

والأمر فى الآية الثانية موجَّه إلى الرسول – والمسلمين معه – إذ كل أمر موجَّه إليه فى القرآن الكريم موجه أيضا إلى المسلمين ، والآية تأمر الرسول والمؤمنين أن يدعوا الله دعوة مخلصة أن يزيدهم علما ، وفى ذلك مايُعْلى من العلم . والله – جلَّ شأنه – دائما يُعْلى

منه إعلاء عظيما ، وقد جعله ميزة عظمى لآدم أبى البشر ، إذ قال للملائكة فى أوائل سورة البقرة : ﴿إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدِك ونقدِّس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماءِ هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ وعجزوا فقال : ﴿يا آدم أنبئْهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ أمرهم بالسجود له ﴿فسجدوا﴾ . والله – بذلك – جعل منزلة علم آدم بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة بحمده وتقديسه مما يرفع مكانة العلم إلى أقصى الدرجات ، وهو مادفع المسلمين إلى معانقة العلم فى جميع عصورهم .

والآية الثالثة تشير إلى أن علم الإنسان بالموجودات والحقائق محدود بل هو علم قليل ، ويتلطف الله بالمسلمين فى كتابه العزيز ، فيشير إشارات مختلفة إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية والطبية ، ومن إشاراته إلى العلوم الأولى قوله فى سورة البقرة : ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار والفُلْكِ التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابَّة وتصريفِ الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ . والآية تذكر خلق الله للموجودات فى الكون سماء وأرضا وإلى جريان الفلك فى البحار بما يعود على الناس بالنفع من العروض والتجارات ، والرياح تدفعها وتهتدى بالنجوم ليلا فى مسيرتها . وتذكر الآية سقوط المطر من السحاب وإحيائه الأرض بعد موتها وما نشر الله فيها من الدواب . وفى آيات كثيرة يذكر الله شقَّ الأرض وإنباته للزروع فيها من كل صنف ويقول ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ ويتكرر ذلك فى القرآن كثيرا كما تتكرر الإشارة إلى العلوم الفلكية والرياضية فى مثل قوله تعالى بسورة يونس : ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحسابَ﴾ . ومنازل الشمس أو بروجها اثنا عشر بعدد شهور السنة ، ومنازل القمر ثمانية وعشرون موزعة على منازل الشمس ، ويقول الله – جَلَّ وعزَّ – إنه جعلها كذلك ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أى لتعلموا حساب الأوقات من الأيام والليالى والشهور لمعرفة معاشكم وفروض دينكم من أوقات الصلاة والصوم والحج وغيرها . وفى القرآن الكريم إشارات مختلفة إلى علم الطب ، وعُقدت فى القاهرة مؤتمرات متعددة لبيان ما فى القرآن الكريم من مسائل الطب ، وبخاصة فى آيات سورة (المؤمنون) المعجزة الطبية الربانية التى تصور بدقة أطوار الجنين حتى يتخلق كائنا حيا . وهذه الإشارات

الإلهية إلى تلك العلوم المختلفة هى التى جعلت العرب بعد الفتوح الإسلامية يكبُّون على كل مالدى اليونان والسريان والفرس والهنود منها فيترجمونها وينقلونها إلى العربية ويضيفون إليها إضافات شتى جعلت لهم دورا عظيما فى تاريخ العلوم الإنسانية ، دورا علميا حضاريا باهرا ، استحال منارات لأوربا فى نهضتها العلمية الحديثة .

ويقول الله – عزَّ شأنه – فى الآية الرابعة إنه لا يستوى العلماء والجهال ، إذ يدرك الأولون الأشياء على حقائقها ، بينما يضطرب الثانون إزاءها فلا يدركونها إدراكا سليما . ويتميز العلماء بأنهم لا يقعون فى خطأ إذ يعصمهم علمهم منه ، بينما الجاهل يخبط خبط عشواء . وتنكشف للعالم الحقيقة فيشعر إزاءها بأنس ، وكلما اكتشف حقيقة لازمه هذا الأنس كما لازمته لذة العلم ، وهى لذة معنوية تفوق أى لذة . وينوه الله بالعلماء مرارا وتكرارا فى القرآن الكريم من مثل قوله : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وما أعظم تنويهه بهم وتكريمه لهم إذ ضمهم إليه فى سورة آل عمران وإلى الملائكة فى الشهادة بوحدانية الله وتفرده بالألوهية قائلا : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ . وينوه الرسول صلَّى الله عليه وسلم بهم مرارا وتكرارا كما فى الحديث الثالث ، إذ يجعل الطريق الذى يبتغون فيه علما يُسْلم مباشرة إلى طريق من طرق الجنة ، بل إنه يقول إن الملائكة تخفض أجنحتها لطالب العلم رضا بصنيعه ، ويستغفر له كل من فى الأرض تكريما وإعزازا . وما يزال الرسول صلَّى الله عليه وسلم يصعد بالعالم درجات حتى ليجعل فضله يفوق فضل العابد ، بل إنه ليجعل منزلته بالقياس إلى العابد الناسك كمنزلة القمر المنير بالقياس إلى سائر الكواكب . وبالمثل الحديث الرابع الذى يجعل الرسول فيه فضل العالم على العابد كفضله على أى صحابى ، وهو شرف لا يدانيه شرف . ويقول أيضا تشريفا له لا يماثله تشريف إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها والحوت فى البحر ليدعوان لمعلمى الناس العلم . فلا عجب بعد كل ماذكرته من منزلة العلم والعلماء عند الله ورسوله أنْ تُشْغَفَ أمة الإسلام بالعلم وأن يبهرها فتعيش له وتعيش به وتَنْقَضَّ على عالمه الرائع انقضاضا ، وسرعان ماتتملكه ويصبح عالمها قرونا متعاقبة .

١٩ – العقلانيّة

القرآن الكريم
قال الله تعالى :

١ – إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

البقرة : ١٦٤

٢ – لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

الأعراف : ١٧٩

٣ – ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

النحل : ١٢٥

٤ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا

الحج : ٤٦

الأحاديث

١ – عن النعمان بن بشير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن وبينهما مشتبهات .. ألا وإن فى الجسد مُضْغَة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (رواه البخارى فى كتاب الإيمان) .

٢ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبدٍ إلا وله أربع أعين : عينان فى رأسه يبصر بهما أمور دنياه وعينان فى قلبه يبصر بهما أمور دينه (رواه كنز العمال) .

٣ – مرَّ النبى صلى الله عليه وسلم بقوم يتفكرون ، فقال لهم : تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته (رواه اللالكائى فى السنة والبيهقى فى الشعب) .

٤ – عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه مالا فأنفقه فى الحق وآخر آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها (رواه البخارى فى كتاب الأحكام) .

يقول الله فى الآية الأولى إن فى إبداع خلق السموات التى تبدو كقبة زرقاء فوقنا وما فيها من كواكب ونجوم ، وخلق الأرض وما فيها من بحار وجبال وأنهار وزروع ، وفى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ظلمة وضياء ﴿والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس﴾ من ركوبها وحمل تجاراتهم ، وإن فيما ﴿أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض﴾ بأنواع النبات والأشجار والأزهار ﴿بعد موتها﴾ أى بعد موت زروعها ﴿وبثَّ فيها﴾ ونشر فيها أنواع الدواب ، مع تصريف مهاب الرياح شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وبالمثل تصريف السحاب المسخر المنقاد بين السماء والأرض من جهة إلى جهة لينزل بها ماءه ، فتحيى ويعود إليها الحسن والنضارة . إن فى ذلك كله ﴿لآيات﴾ على قدرة خالق الكون الباهرة لما تشهد به من نظام كونى بديع محكم ، صَنَعَه إله يتصف بتمام القدرة وتمام العلم وتمام التدبير وتمام الحكمة . وتطلب الآية من المسلمين أن يفزعوا إلى عقولهم ليتأملوا بدقة فى خلق هذا الكون العظيم . وما أشبه عقولهم بمصابيح تهديهم بعد التأمل وطول النظر فى الكون إلى أن له موجدا يقوم على خلقه وبَثِّ أنظمة وقوانين فيه تكفل له البقاء

وأن يسير فى مجراه إلى الغاية التى أرادها موجده ومدبره ومبدعه ، وهو مبدع ومدبر واحد لا شريك له ، إذ لو كان له شريك لاضطرب نظام العالم . ودائما الله فى القرآن الكريم يعرض نظام الكون المحكم على عقل الإنسان ليشهد شهادة عقلية بأن هذا النظام صنعه ودبَّره إله واحد فى ذاته وفى أفعاله الكونية . ويسمى الرسول العقل كما فى الحديث الأول – وكما تسميه العرب – القلب ، وتكرر هذا الاسم فى الذكر الحكيم ، ويقول الرسول إنه إن صلح صلح الجسد كله وإن فسد فسد معه ، فهو زمام حياته جسديا وفكريا ودينيا . ويشيد الله به فى سورة الأحزاب مسميا له باسم الأمانة ، إذ يقول تقدس اسمه : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحملْنها وأَشْفَقْنَ منها وحملها الإنسان﴾ والأمانة فى الآية هى العقل الذى ميز الله به الإنسان من سائر المخلوقات بما يهديه إليه من طرق الهدى فى اعتناق الإسلام . وهو الذى كفل للحياة الإنسانية أطوارها فى كل ما يتصل بها من الحضارة والعلوم ، وهو الذى ميز الإنسان من جميع الموجودات والكائنات فى السموات والأرض بفكر حر سوَّى به حياته وهداه إلى كل ما يعمله بإرادته وبصيرته ، بخلاف الجبال والجمادات والكائنات والحيوانات ، فهى جميعا تخضع لقوانين ملزمة جبرية دون أى اختيار أو إرادة .

وهذا العقل العظيم جعله الله فى القرآن الكريم الحكمَ فى الإسلام وشريعته الإلهية داعيا له دعوة كبرى تكررت فى سوره المختلفة مئات المرات لينظر الإنسان فى الكون نظرًا عقليًا ، حتى يكون إيمانه بالإسلام عن عقل وبَيِّنة ، فيؤمن بوجود الله ويوحِّده عن بصيرة . والله عز شأنه – بذلك يجعل الإسلام دينا عقليا ، وهو ما جعل الرسول يقول فى حديثه الثانى إن لكل شخص أربع أعين : عينين ظاهرتين فى وجهه كأعين الناس يبصر بهما أمور دنياه وشئونهما المختلفة ، وعينين باطنتين للعقل يبصر بهما أمور دينه .

وينعى الله فى الآية الثانية حال المشتركين وأنهم لم ينتفعوا بنعمة القلوب أى العقول التى أهداها إليهم فى معرفته والإيمان بألوهيته ووحدانيته ، ويقول إنهم عطلوها عن التأمل فى ملكوت الله والتدبر ، فلم تعد تفقه أو تدرك ، وعطلوا أعينهم فلم تعد تنظر فيما خلق الله نظر اعتبار واتعاظ ، وعطلوا آذانهم فلم تعد تنتفع بما تسمع من القرآن ، ويقول الله إنهم كالأنعام لا عقول لهم ولا بصيرة ﴿بل هم أضل﴾ منها إذ لا تبلغ بها

حياتها أن تسقط مثلهم فى مهاوى الضلال بما ألهمها الله معرفة مضارها كما ألهمها معرفة منافعها ، أما المشركون فإنهم حجبوا عقولهم عن الاستدلال على وجود الله فهم أضلّ من الأنعام بما يترددون فيه من الهلاك ، و ﴿أولئك هم الغافلون﴾ عن الآخرة وما يُصَبّ على العصاة فيها من عذاب ..

ويمر الرسول بقوم فيسألهم ماذا تعملون ؟ فقالوا نفكر فى الله ، فقال لهم – كما فى الحديث الثالث – تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته . والرسول محق ، لأن العقول تقصر عن معرفة جوهره ، وكثيرا ما حاول ذلك المفكرون والفلاسفة ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح ، واعترفوا بأن الذات العلية فوق إدراكهم وأن ليس من المستطاع معرفة كنهه ، ولذلك ينبغى الانصراف عن التفكير فى ذاته إلى التفكير فى خَلْقه الدال على وجوده ووحدانيته دلالة عقلية واضحة .

ويقول الله فى الآية الثالثة لرسوله : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾ وهى البراهين العقلية القاطعة كبرهان القرآن فى سورة (المؤمنون) على وحدانية الله قائلا : ﴿وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ والآية تستدل على نفى الشريك لله مطلقا إذ لو كان معه آلهة لانفرد كل إله بما خلق وتصرف فيه بعيدا عن شركائه من الآلهة ، ولغلب بعضهم على بعض ، فلم يكن بيد أحدهم ملكوت كل شئ ، تعالى الله وتنزّه عما يشركون به . ويأمر الله رسوله أن يدعو بجانب البراهين العقلية بالوعظ . ويدخل القصص القرآنى كله فى الوعظ حتى لا يصيب المشركين من قريش والعرب ما أصاب الأمم البائدة التى كذبت رسلها فدمَّرها الله تدميرا . وبجانب الوعظ والبراهين العقلية يأمر الله رسوله أن يجادل مشركى قريش والكفار مجادلة حسنى لينة لا غليظة ، وعن ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنَّم﴾ قال ابن الزِّبَعرى : لأخصمن محمدا فجاء النبىَّ فقال : يا محمد قد عُبِد عيسى وعُبدَت الملائكة فهل هم حصبٌ أى حطب لجهنم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اقرأ ما بعده : ﴿إن الذين سبقت لهم منَّا الحُسنى أولئك عنها مبعدون﴾ . والطرق الثلاثة : البرهان العقلى والعظة والجدل بالتى هى أحسن كجدل القرآن لليهود والنصارى ، هذه الطرق فى الآية الكريمة تجمع طرق

الاستدلالات العقلية المستخدمة فى القرآن بحيث يقال بحق إن الإسلام دين عقلى أو عقلانى . وبشيد الرسول فى الحديث الرابع بمن آتاه الله الحكمة أو القوة البرهانية العقلية فهو يعلّم للناس بها قضايا الدين ومسائله ، وهو يصدر عنها فى قضائه وأحكامه بين الناس .

ويعجب الله – عزَّ شأنه – فى الآية الرابعة من كفار قريش الذين سافروا شمالا ورأوا بعض القرى المدمرة فى طرقهم إلى الشام وما كان من مضارع المكذبين لرسلهم وكأنهم لم يسافروا فيها ، إذ لم يعتبروا ويتعظوا ، ولذلك تجعلهم الآية كأنهم لم يسافروا ، وتقول بقية الآية : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ فالخلل ليس فى أبصارهم ، ولكنه فى عقولهم مما يجعلهم يتخبطون فى الشرك والضلال .

٢٠ - إبطال الخرافة والسحر والطِّيَرة والكهانة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا

البقرة ٢٢

٢ - وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ... وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ

البقرة ١٠٢

٣ - قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ

يس ١٨

٤ - فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ

الطور ٢٩

الأحاديث

١ - عن عبدالله بن مسعود : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك (رواه البخارى فى كتاب التوحيد) .

٢ - عن جندب الأزدى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حدُّ الساحر ضَرْبُه بالسيف (رواه الترمذى)

٣ – عن قبيصة بن المخارق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العيافةوالطِّيرة والطَّرْق من الجِبْت أى السحر والكهانة (رواه أبو داود) .

٤ – قال صلّى الله عليه وسلم : مَن أتى عَرَّافا أو كاهنا فسألة عن شيء فصدَّقه فيما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد (رواه مسلم فى كتاب السلام وأحمد فى سنده) .

يقول الله فى الآية الأولى : (فلا تجعلوا لله أندادا) ونظراء من الآلهة سواء كانت من الجمادات أو الطير أو الكواكب والنجوم فقدكان منهم من يتعبد للشمس مثل عرب اليمن وكانوا يسمونها اللات . وكانوا يضمون إليها القمر ويسمونه وَدًّا والزهرة ويسمونها العُزَّى ، وعبدوا هذا الثالوث وقدسوه . وكانت عبادة اللات شائعة فى الحجاز ، وكان معبدها فى الطائف وكانت دومة الجندل تعبد ودًّا أو القمر بينما كانت غطفان تعبد الزهرة . ويذكر الله بعض آلهتهم فى القرآن الكريم ، من ذلك قوله فى سورة النجم ﴿أفرأيتم اللات والعُزَّى . ومناة الثالثة الأخرى﴾ . ومناة كانت صخرة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ولعلها ترمز إلى إله الموت أو إله القضاء والقدر ، ويقول تعالى على لسان المشركين : ﴿ولا تذَرنَّ وَدًّا ولا سُواعا ولا يَغوثَ ويَعُوق ونَسرا﴾ وسُوَاع كان صنم هذيل ، ويغوث صنم هوازن ، ويعوق صنم همدان ، وكان نسر صنم حمير ، وهو يشير إلى الطائر المعروف باسمه . ووراء هذه الأصنام أصنام كثيرة للقبائل ، وبلغت عِدَّتُها فى الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لها : ثلاثمائة وستين صنما . وكان لهم طقوس وشعائر وقرابين كثيرة يقدمونها لآلهتهم وأصنامهم وسدنتها . ويسمى القرآن هذه الخرافات فى دينهم الوثنى باسم الطاغوت ، وقد اقتلع من نفوسهم سيطرة هذا الدين وسيطرة خرافاته التى كانوا يؤمنون بها إيمانا شديدا وأحل مكانها الدين الحنيف وأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا معه أحدا . ويسأل ابن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول أى الذنوب أعظم عند رب العزة ، فيجيبه أن تجعل له نِدًّا فى عبادته ، وهى عودة خاسرة إلى الوثنية وخرافاتها الكاذبة .

والآية الثانية تتحدث عن السحر والشياطين ، وهم فيها غالبا – شياطين الانس ، والآية تصف اليهود بأنهم اتبعوا ما يتلوه السحرة من كتب السحر ﴿على ملك سليمان﴾ أى فى عهده ، يقولون إن حكمه كان يقوم على السحر ، وينقض الله قولهم قائلا إن حكمه وملكه لم يكن يقوم على السحر وإلا كان كافرا ﴿وما كفر سليمان﴾ ولكن كفر السحرة الذين يعلمون الناس السحر . والسحر : تمويه يأتيه الساحر بحيل فيما عُلم ظاهره وخفى سببه .

والعرب كانوا يعتقدون أن السحر يقلب حقائق الأشياء ويطوع المسحورللساحر إلى غير ذلك من تخيلات وهمية . وقد حكم الله فى الآية على السحرة بأنهم كفروا وما كفر سليمان ، وكأن هذا حكم الساحر فى الإسلام فهو كافر ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى : حدُّ الساحر ضَرْبُه بالسيف » أى قتله . وقد أنكر المعتزلة وجود السحر ، لأنه فى حقيقته تمويه بحيلٍ يأتيها الساحر تجعل الشىء بسبب خفى يُرَى بغير صورته الحقيقية . ويرى الإمام مالك أن الساحر يقتل ولا يستتاب لأن السحر كفر وشرك ، وبالمثل قال أبو حنيفة ، وقال الشافعى صاحبه يكفر ويستتاب . والإسلام بذلك يبطل السحر إبطالا جازما ، والمقصود بذلك من يضرون الناس أو يفسدون علاقاتهم بإيهامهم قدرتهم على ذلك ، أما السحرة الذين يظهرون أحيانا على المسارح باعتمادهم على خفة الحركة وخفة اليد فيما يعرضون من أشياء لتسلية الناس فليسوا من هذا الباب وليسوا مقصودين ، إنما المقصودون من يزعمون صلتهم بأرواح النجوم وأرواح الجن وأنهم يسخرونها لأغراضهم وأغراض من يقصدهم فى سحر إنسان أو موته أو سرقته أو تفرقة بينه وبين زوجته . ومن باب الكذب ما يروى من أن ربيعة بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول الله فى سورة المائدة لرسوله : ﴿يَـأَيُّها الرسول بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك .. والله يعصمك من الناس﴾ فكيف يسحره يهودى والله عصمه من الناس جميعا ، وهو خبر واضح البطلان .

والآية الثالثة جاءت فى قصة الرسل بسورة يس الذين أرسلوا إلى أهل قرية بهدى الله وتوحيده وعبادته فكذَّبوهم وأجابوهم هازئين : ﴿إنا تطيَّرنا بكم﴾ أى تشاءمنا . والتطيرّ من الطِّيَرَة وهى التشاؤم ، وأصلها أن العرب كانوا فى الجاهلية إذا ارتحلوا نظروا فى السماء إلى ما يلاقيهم من الطير ، فإن مرَّ يمينا كان علامة يُمْن وسموه السانح ، وإن طار يسارا كان علامة شؤم وسموه البارح ، وإذا كان الطير جاثما أثاروه ليبصروا فى أى جهة يطير ويسمى ذلك زجرا . وغلب استعمال كلمة التطير فى معنى التشاؤم . واستخدمها القرآن مرارا بهذا المعنى كما فى الآية السالفة . وفى الحديث أن الطيرة شرك ، وإنما عُدَّت من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطير قد تجلب لهم خيرا أو تدفع عنهم شرًّا إذا عملوا بموجب اتجاهها فى طيرانها ، فكأنهم أشركوها مع الله فيما يصيبهم من نفع أو ضر . وضم الحديث الثالث إلى النهى عن الطيرة النهى عن العِيافة وهى زجر الطير ، إذ كانوا

يثيرون طائرا أو غرابا ، فإن لم يطيرا سانحين تشاءموا ، وهى تابعة بذلك للتطير أو الطيرة . والطَّرق الضرب بالحصى وإيهام الضارب له قاصدَه بأنه يعرف مراده ويمنيه الأمانى بكلام وهمى مثل كلام الغجريات وضربهن للودع ووشوشتهن له ، وكل ذلك منهى عنه فى الإسلام نهيا قاطعا ، بل محرم تحريما باتا .

ويقول الله لرسوله فى الآية الرابعة إنك بنعمة الله وفضله وحمده لست بكاهن كما يقول الجهلة من كفار قريش ، والكاهن هو الذى يزعم أنه يعرف الأحداث والأخبار مما يقع فى مستقبل الزمان كما يعرف الأسرار المضمرة فى الصدور ، وكان فى الجاهلية كهنة متعددون مثل شِقّ وسَطيح ، وكانوا يلقون على الناس كلاما مسجوعا مبهما يمكن أن يؤوَّل تأويلات مختلفة ، وكانوا يزعمون لهم أنه من كلام الجن ألقوه إليهم . وكان كل منهم يزعم أن له من الجن تابعا يودّه ويألفه ، ويسمَّى رَئِيًّا أى جِنّيا يراه وينصره ، ولا جنى هناك ولا تابع ، إنما هى خواطر كانت تجيش بنفوسهم ، فيرصفونها فى أسجاع مبهمة يموهون بها على من يتعرض لهم بحاجة أو بسؤال زاعمين أن التابع جاءهم بها من الملأ الأعلى . وللكهَّان فى الجاهلية أخبار وأقاصيص كثيرة توسَّع فيها الرواة وكلها من أكاذيبهم . وشدَّد الرسول صلى الله عليه وسلم فى النَّهى عن الكهانة لما يزعم أصحابها – زعما كاذبا – أنها من علم الغيب ، إذ لا يعلم الغيب إلا الله . وبلغ من تحريم الرسول لها ما ذكره فى الحديث الرابع من أن من أتى كاهنا ليتنبأ له بشىء من الغيب فى الأمور المستقبلة فقد كفر بالشريعة الإسلامية وما أُنزِل عليه من القرآن الكريم ، وبالمثل من أتى عرَّافا وهو المنجِّم الذى يدعى النظر فى النجوم بحسب مواقيتها ومسيرتها ، وأنه يستطيع أن يعرف بها أحوال الكون والناس مما ينصل بالغيب . وكل هذه الصور من العرافة والكهانة والعيافة والطيرة والسحر نهى عنها القرآن الكريم والحديث النبوى وعدَّاها منافية لعقيدة الإسلام التى تقصر علم الغيب على الله وحده ، وكما شددت فى إبطالها شددت فى إبطال الخرافات مرتقية بعقول المسلمين إلى منازل فكرية رفيعة .

٢١ - القضاء - القدر

القرآن الكريم
قال الله تعالى :

١ - خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

البقرة ٧

٢ - ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

الأعراف ٥١

٣ - وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

فصلت ١٧

٤ - وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

الجاثية ٢٢

الأحاديث

١ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستعتب[1] صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الرَّيْنُ الذى قال الله تعالى فيه : ﴿كلا بل رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة) .

٢ – قال الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم علمنى هدايتى واحفظنى من شَرِّ نفسى (رواه الترمذى) .

٣ – عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (حديثا قدسيا) : يا عبادى إنى حرمت على نفسى الظلم وعلى عبادى فلا تظَّالموا (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة ، ورواه البخارى واللفظ لمسلم) .

اختلف المفسرون فى تفسير الآية الأولى اختلافات كثيرة مردُّها إلى أن منهم من أخذ بظاهرها وأن الله – جَلَّ شأنه – ختم على قلوب الكفار بالضلال ختما ، يشبه ما تدركه الأبصار من الختم على الأوعية ، فلا يهتدون أبدا إلى دين الله الحنيف . وكثير من المفسرين يرى أن الختم فى الآية مجاز عن أن قلوب الكفار لا تنفذ إليها الهداية ، وبالمثل أسماعهم لا ينفذ إليها شيء من هدى القرآن حين سماعه ، وأبصارهم كذلك عليها غشاوة لا تنتفع بما ترى من آيات الله فى خلقه للكون ، وبالمثل قوله تعالى فى سورة محمد : ﴿والذين كفروا فَتَعْسًا لهم وأضلَّ أعمالهم﴾ ليس المراد – فى رأينا – أنه أضل أعمالهم حقيقة ، وإنما أراد أنه تركها بدون هداية منه ، وبالمثل إضلال المشركين والكفار فى القرآن كله كآية سورة إبراهيم : ﴿فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء﴾ وآية سورة يس : ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيرا﴾ أى أنه تركهم دون هداية وإرشاد لأنه منحهم العقل الذى يهديهم ويرشدهم ولم يهتدوا ، يقول فى سورة الأنعام ﴿قد جاءكم بصائرُ من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها﴾ فمن لم تهده البصائر فى القرآن وأعمى عينيه عنها تخبط فى الضلال ، وتلك مسئوليته كما فى سورة يونس : ﴿قل يَاأَيُّها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومَن ضَلَّ فإنما يضل عليها﴾ ذكر ابن كثير فى تفسير الآية الأولى تعليقا

---

(١) استعتب : طلب العتبى والرضا .

على الحديث الأول أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله والطبع . والختم – بذلك – ليس سبب ضلالهم ، وإنما هو نتيجة ضلالهم .

ولو أن الأسلاف تنبهوا إلى هذا المعنى ولم يطبقوه على آيات الختم والطبع وحدها فى مثل قوله تعالى عن الكفار إنه طبع الكفر على قلوبهم فطبقوه أيضا على آيات الإضلال ما أثيرت قضية القضاء والقدر وهل الإنسان يصدر في أفعاله عن إرادته أو عن إرادة الله . وانقسم المسلمون إزاء ذلك إلى جبرية يؤمنون خطأ بأن أعمال الإنسان قدر مكتوب عليه ولا حول له ولا قوة إزاءه ، وإلى قدرية يؤمنون بأن الإنسان حر الإرادة ، فالكفار اختاروا الكفر والضلال حسب إرادتهم ومشيئتهم .

وتؤيد الآية الثانية فكرة أن الختم والإضلال إهمال من الله للكفار الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، ويقول الله إنه ينساهم يوم القيامة كما نسوا لقاءه فيه . والنسيان فى الآية معناه الإهمال والترك ، ويريد الله أن يحرمهم فى هذا اليوم من رحمته جزاء لإهمالهم التصديقَ بالمعاد وأنهم سيحشرون إلى ربهم حاملين ذنوبهم على ظهورهم . ويأسى الرسول للمؤمن إذا أذنب فيقول إن علامة سوداء تتكون فى قلبه ، فإن تاب ونزع عنها وطلب الرضا من ربه جَلا قلبه وطهَّره ، وإن لم يرعو وأخذ يكثر من ذنوبه زادت هذه العلامة فى قلبه حتى غطته ، وذلك هو الرَّيْن في قوله تعالى : ﴿كلا بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾

ويقول الله فى الآية الثالثة إنه أرسل إلى ثمود رسولهم صالحا لإرشادهم وأيده بآية الناقة التى أخرجها لهم من الأرض ، وبذلك وضع لهم كل الأسباب لهدايتهم ، فلم يستجيبوا لله ورسوله ، وأحبوا العمي أى الضلال واختاروه على الهدى الذى حاول الله أن يهديهم إليه ، إذ رفضوا هذا الهدى وأبوه إباءً شديدا ، واختاروا لأنفسهم الكفر والضلال ، فأهلكتهم بما اكتسبوا من الضلال والكفر بالله صاعقة سخرها الله لعذابهم عذاب ذل وهوان . ويؤكد الله مرارا أن الكفار الرافضين للإسلام يتبعون فى كفرهم أهواءهم كقوله فى سورة محمد : ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أى أولئك الذين صمموا على الكفر متابعين فى ذلك أهواءهم ، فهم لم يُقْهَروا عليه ، بل آثروه بمحض إرادتهم ومنتهى حريتهم . وهذه الآية – بدورها – تشهد بأن هدى الإنسان وضلاله فى القرآن يرجعان إلى حريته المطلقة ، فإما هدى ورشاد وإيمان بالله ، وإما ضلال وتخبط وكفر به . فالمرجع فى ذلك

كله إلى الإنسان وعقله ونفسه ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعاء له : اللهم علمنى هدايتى واحفظنى من شر نفسى أى لا تتركنى إلى نفسى واهدنى حتى لا أضلّ ولا أنحرف عن طريقك المستقيم .

ويقول الله فى الآية الرابعة إنه خلق السموات والأرض بالحق أى بالعدل ، وهو سيسود فى جزاء المسلم الطائع لله والكافر لربه يوم القيامة ، فكل منهما سينال جزاءه بمقدار ما كسبت يداه فى الإيمان والكفر ، والكسب ما يجنيه الشخص من عمله لنفع نفسه ، والمراد به فى الآية والقرآن عامة ما يكسبه المسلم من العمل الصالح وما يكسبه الكافر من العمل السيىء ، فكل منهما سيأخذ جزاء ما قدمت يداه فى دنياه ، وكرر الله ذلك فى القرآن مرارا ، وأنه لن يظلم أحدا – كما قال فى سورة النساء – ﴿مثقالَ ذرة﴾ وأيضا – كما قال فيها – ﴿ولا يُظلمون نَقِيرا[1]﴾ وكيف يظلمون وهو أعدل العادلين الذى خلق الكون وكل ما فيه بعدل لا يماثله عدل . ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » ويكرر فى القرآن انه بمنه ورحمته ولطفه لن يظلم أحدا أدنى ظلم يوم القيامة يقول فى سورة الزلزلة ﴿فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ . ومَن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يَرَهُ﴾ .

(١) نقيرا : النقرة فى ظهر نواة التمرة .

٢٢ – التقوى

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ

البقرة ١٩٧

٢ – يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

الأعراف ٢٦

٣ – وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ

الحج ٣٢

٤ – لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ

الحج ٣٧

الأحاديث

١ – عن عدى بن حاتم الطائى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين ثم رأى أتقى لله منها فليأت التقوى (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٢ – عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الدنيا حُلوة خَضِرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا .(رواه مسلم فى كتابه الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) .

٣ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا بما به بأس (رواه الترمذى وابن ماجة) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا (رواه الترمذى) .

يقول الله – جَلَّ شأنه – فى الآية الأولى : ﴿ وتزودوا ﴾ من الزاد وأصله ما يحمله المسافر من الطعام فى رحلاته الدنيوية ، استعير فى الآية لما ينبغى أن يحمله المسافر أو الراحل إلى الحياة الآخرة من أعمال البر والخير ، ويقول الله إن خير زاد إلى الآخرة للمسلم التقوى لله أى الوقاية والحذر من أى محرَّم يغضبه والعمل على مرضاته بأداء فروضه ، ويُرْوَى أن عمر بن الخطاب سأل أُبَىّ بن كعب عن المعنى الدقيق للتقوى فى القرآن الكريم فقال أُبَىّ : أما سلكت طريقا ذا شوك قال عمر : بلى قال أُبَىّ فما عملت ؟ قال عمر : شَمَّرت واجتهدت ، قال أُبَىّ : فذلك التقوى .

وليست التقوى تجنب الذنوب : الكبائر والصغائر فحسب ، بل هى أيضا أداء ما يرضى الله من الطاعات والعبادات ، ولذلك كان معناها الشرعى الذى تدل عليه نصوصها فى الذكر الحكيم هو امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه بأداء ما فرضه وأوجبه على المسلم وترك ما حرَّمه وأوجب الانصراف عنه ظاهرا وباطنا . وما يزال الرسول صلى عليه وسلم يحبِّب أصحابه فى تقوى الله والحذر من أن يأتى المسلم شيئا يغضب الله ويسخطه عليه ، ويقول فى الحديث الأول : لو أن مسلما حلف على عمل شىء يظن أن فيه رضا ربه ثم رأى أن الانصراف عنه أتقى لربه فلينصرف ويكفر عن حلفه بصوم ثلاثة أيام أو بعتق رقبة ، حتى لا يناله تقصير إزاء تقوى الله ورضاه .

والله – تقدَّس اسمه – يذكر فى الآية الثانية منَّته على الإنسان بأن ألهمه أن يتخذ لنفسه لباسا ماديا يستر به سوءاته وعوراته ، وليس ذلك فحسب ، فإنه ألهمه أيضا أن يتخذ لنفسه (ريشا) أى لباسا فاخرا يتزين به . ولما ذكر الله للناس – أو قل للمسلمين – اللباس الحسىَّ الفاخر أضاف ما أنعم به عليهم من اللباس المعنوى الباهر : لباس التقوى الذى يفتح أمامهم أبواب الجنة ليدخلوها من أى باب شاءوا وأرادوا . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته فى الحديث الثانى إن الدنيا مغرية بطيباتها وما فيها من وجوه الترف والنعيم ،

وستقبل عليكم وتتملكونها فلا تغرنكم بلذاتها ومتعاتها واعلموا أن الله ﴿مستخلفكم فيها﴾ ومراقب ما تعملون ، فاتقوها واحذروا أن تنغمسوا فى شهواتها فتُغْضِبوا الله الذى جعلكم خلفاءه فيها ، وينبغى أن تحذروه وتمتثلوا أوامره ونواهيه .

ويذكر الله فى الآية الثالثة شعائره ، وهى مناسك الحج ، ويقول إن تعظيمها من تقوى القلوب السليمة التى تلهم أصحابها هذا التعظيم الدينى الصادر عنها . والتقوى بذلك تميز روح المسلم والإسلامَ الصادق الذى لا يشوبه رياء ، لأنها تصدر عن القلوب المخلصة لربها التى يحقٍّ لها أن تنعم بمتع الجنة لما يقترن بها من إخلاصها وطهارتها من كل إثم أو دنس . وبذلك نفهم إعلاء الله للتقوى فى الذكر الحكيم لأنها ليست امتثالا لأوامر الله ونواهيه فحسب ، بل هى أيضا شغف قلبى بتطبيقها لا يدانيه أى شغف ، وهو شغف يجعل المسلم – كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث – يتحرج تحرجا شديدا إزاء عمل لا يرى به بأسا وينتابه شىء طفيف من الشك أن يكون به بأس ، وهو بأس موهوم ، فيدعه تقوى من الله وحذرا منه وخشية . وينوه الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع بحقوق المسلم وحرمته على أخيه المسلم ، ويقول إن عرضه أو شرفه وما له ودمه كل ذلك حرام على أخيه المسلم ويهتف : التقوى ههنا ، فقد حرَّم الله على المسلم أن يمسَّ عرض أخيه المسلم أو ماله أو دمه بأى صورة من الصور ، فكما أن دمه حرام ، ويقتل به ، قصاص حتمى ، كذلك ماله فلا يأخذ منه شيئا إلا برضاه ولا يستحل منه شيئا لنفسه بأى طريقة من طرق الغصْب ، وبالمثل عرضه أو شرفه لا يتناوله إلا تناولا كريما ، فإن لم يتق الله وأخاه المسلم فى ذلك كله استحق سخط ربه وغضبه وعقابه .

والله – جَلَّ شأنه – يقول فى الآية الرابعة إنه لا يناله شىء من لحوم الأضاحى فى الحج ولا شىء من دمائها مشيرا بذلك إلى ما تعوده العرب فى الحج زمن جاهليتهم من ذبحهم أضحياتهم لأهلهم وتلطيخهم لمناسك الحج بدمائها وتقطيع لحومها ووضع شرائحها عليها أو نصبها حول الكعبة قربانا لله فلاينتفع بها أحد . والله بذلك يبطل هذه الصورة الوثنية الجاهلية ، ويبقى على نحر الأضاحى أو ذبحها لينتفع الناس من الأقارب والأصحاب بالأكل منها ولينتفع الفقراء والمساكين من أهل الحرم . وهو بذلك يبطل أن تقدم لحومها

قربانا إليه ، فليس فى ذلك شىء من تعبُّده ، إنما يُعْبَدُ بالتقوى من الحجاج التى ينبغى أن تصحب نحر الأضاحى . وقد أكد ذلك فى قوله بنفس السورة : ﴿ولكل أمة جعلنا مَنْسَكا ليذكروا اسم الله﴾ فذكر اسم الله هو المراد بمناسك الحج والنزول بها والطواف عندها ، وبعبارة أخرى تقوى الله وما يتصل بها من المشاعر القلبية إزاء الامتثال لأوامر الله ونواهيه امتثالا يحقق للمسلم طمأنينة نفسية لا تماثلها ولا تعادلها أى طمأنينة ، لأنها طمأنينة ربَّانيَّة .

٢٣ - التوكل

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

التوبة ٥١

٢ - إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

الأنفال ٢

٣ - قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

الزمر ٣٨

٤ - وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

مريم ٢٥

الأحاديث

١ - عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أَنَبْتُ (رواه مسلم في كتابه الذكر والدعاء والتوبة) .

٢ – عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله ، توكلت على الله (رواه أبو داود والترمذى) .

٣ – وعن ابن عباس قال : كان آخر قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل (رواه البخارى) .

٤ – عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا[1] وتروح بِطانا[2] (رواه ابن حنبل فى مسنده والترمذى) .

يقول الله فى الآية الأولى لرسوله : قل يا محمد لمن يتمنون لك وللمسلمين المصائب والكوارث لن نهتم ولن نكترث بما قد يلحقنا منها لأننا نؤمن أنها قدر من الله لنفع المسلمين ، ولذلك لن نبالى بها ، بل ستزيدنا إيمانا بأن الله أراد لنا خيرا . وهو خلق أو سلوك عظيم يريده الله لرسوله والمسلمين كما قال فى سورة آل عمران : ﴿ولا تَهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون﴾ فهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأن الله لابد ناصرهم ، إذ هو مولاهم ، عليه يعتمدون ويتوكلون توكلا ثابتا بأنه مؤيدهم .

ويذكر الله فى الآية الثانية أن المؤمنين الكاملى الإيمان هم الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، والوجل : خوف من فزع فهم حين يذكر اسم الله أو يذكر أمره ونهيه فى القرآن الكريم أو يذكر ثواب الله وعقابه يصيب قلوبهم وجل شديد أى خوف وفزع مقرونان بالأمل والرجاء فى نعيم الله وثوابه . وهؤلاء المؤمنون إذا تليت عليهم آيات القرآن ﴿زادتهم إيمانا﴾ وقوة يقين فى عقيدتهم ، لما تجدد فى نفوسهم من معانيها ، وبما قد تتضمن من أوامر ونواهٍ يستجيبون إليها استجابة قناعة وطمأنينة . وتتمة الكمال فى إيمانهم أنهم يتصفون بفضيلة التوكل على الله ، وقد نوه بها مرارا وتكرارا فى القرآن كما فى الآية الثالثة ، ويذكر ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يردد توكله على ربه فى دعائه له ، وتذكر أم سلمة أنه كان يردده دائما مع بسم الله فى خروجه من بيته شاعرا دائما هذا الشعور القلبى بالحاجة إلى العون الإلهى . والحديث الثالث لابن عباس يشير فيه إلى قصة إبراهيم الخليل

---

(١) تغدو خماصا : تذهب صباحا جائعة .

(٢) تروح بطانا : تعود مساء ممتلئة البطون .

صلى الله عليه وسلم حين دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده ولم يجيبوه وأنه حطَّم أصنامهم فأجمعوا أمرهم على أن يوقدوا له نارا ويلقوه فيها ، وحين ألقوه بها قال : « حسبى الله ونعم الوكيل » مستجيرا بالله من قومه ومن النار . واستجاب له الله ، فسلب من النار قوتها على إحراقه ، وأحالها ﴿بَردا وسلاما﴾ كما قصَّ ذلك فى سورة الأنبياء ، ولم يجعله بردا شديدا مؤذيا بل جعله بردا خفيفا مقبولا أو كما قال جل شأنه : ﴿بردا وسلاما﴾ .

والتوكل على الله إنما يكون فى الأعمال الطيبة التى ترضيه لا فى الأعمال التى تغضبه وتستوجب إثما أو ظلما أو عدوانا . وينبغى أن لا يظن أحد أن التوكل على الله يعنى القعود عن العمل والسعى فى الأرض ، فذلك نكوص عن الكسب ، وهو تواكل مُزرٍ ، حتى ليصبح صاحبه مهينا يعيش بذلِّ السؤال ومهانة الاستجداء . والتوكل فى الإسلام لا يكون إلا مع الكسب والعمل ، وهو لا يعارضهما فالتوكل محله القلب ، والكسب والعمل محلهما الجوارح ، فمن رام أمرا من الأمور وتوكل فيه على ربه لا يغلق بابه عليه ويقول إن الله سيحققه لى فإنه حينئذ يكون متواكلا لا متوكلا ولن يحقق الله له شيئا ، والقرآن الكريم يلغى هذا التواكل إلغاء ، بل يحرمه على أتباعه ، واضعا مكانه التوكل وتفويض الأمر إلى الله ، مع الشروع فى طلبه بالأسباب المعروفة فى كل أمر . وحتى السيدة مريم البتول حين وَضْعها لابنها عيسى وهى لا تكاد تقوم يقول لها الله تعالى : ﴿وهزِّى إليك بجذع النخلة تُساقِطْ عليك رُطَبا جَنِيًّا﴾ فلم يأمرها بالسكون ، بل أمرها بالحركة . وكان يمكنه أن يرسل الرطب إلى فمها ، ولكنه لم يصنع ذلك ، لأنه لو صنعه لخرجت من التوكل على ربها ، الذى يقتضى منها السعى فى المعاش ، إلى التواكل المزرى . ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا التوكل الإسلامى المعانق للكسب والعمل فى الحديث الرابع الذى قال فيه لو توكلتم على الله توكلا مخلصا صادقا لرزقكم أقواتكم كما يرزق الطير تصبح جائعة وتطير باحثة عن طعامها ، وتعود وبطونها مملوءة ، فالله لا يرزقها طعامها وغذاءها فى أوكارها ، بل يلهمها أن تطير غدوا ورواحا لتحصل عليه .

والرسول بذلك يدعو المسلم إلى أن يتوكل على ربه مع الكسب ومع الدأب على ما يريد عمله باتخاذ الأسباب التى تتيح له إنجازه ، ويُذْكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرَّ بقوم فقال : مَن أنتم ؟ فقالوا نحن المتوكلون ، ولاحظ أنهم قعود لا يعملون ، فقال لهم : لا بل أنتم المتأكلون (الذين يأكلون عالة على الناس) إنما المتوكل رجل ألقى حبَّة فى بطن الأرض ، وتوكل على ربه ، أى أنه متوكل على ربه ويكسب قوته بعرق جبينه ،

فيتعهد الحبَّ حتى تنشق الأرض عن نباته ، ويتعهد النبات شهورا حتى يؤتى حصاده وثماره . وبالمثل المتوكل صاحب البستان فإنه لا بد أن يتعهد نباته وشجره فيسقيهما ويصلح من شأنهما ، حتى يجنى ثمار إصلاحه وعمله . وقال على بن أبى طالب : مَن ظَنَّ أن الطلب والاكتساب يناقض التوكل ، فقعد فى بيته ، كان عن العقل خارجا وفى تيه الجهل داخلا وينبغى لأهله أن يداووه .

وكما أن الله – تقدَّس اسمه – كرر الطلب إلى المسلمين فى القرآن الكريم بالتوكل عليه حق التوكل بالمثل كرَّر عليهم طلب السعى للكسب فى البر والبحر وقال مرارا وتكرارا إنه سخَّر لهم الكون بأرضه وسمائه وشمسه وقمره ونجومه لينتفعوا به أكبر نفع ويستغلوه فى معاشهم أكبر استغلال . ونكتفى بعرض آية سورة الملك : ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا﴾ برا وبحرا﴿فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه﴾ فالله قد ذلل الأرض للإنسان فلم يجعلها صلبة لا تصلح للغرس ولا للبناء ، ولم يجعلها رخوة بحيث لا تمسك إنسانا ولا حيوانا . ولم يجعلها حارة ، تخنق الانسان ولا شديدة البرودة ، بل جعلها وسطا بين الصلابة والليونة وبين الحرارة والبرودة لتكون سكنا للإنسان يضرب فيها معاوله للزرع وللأبنية ، وجعل له خلالها الأنهار والعيون والآبار ، وأنبت له فيها البقول والأشجار تؤتى ثمارها كل حين وبساتين وحدائق من كل نوع . ويقول : ﴿فامشوا فى مناكبها﴾ أى فى جميع جوانبها حتى تفيدوا منها أكبر الفوائد ﴿وكلوا من رزقه﴾ بأعمالكم وما تزرعون من البقول والحبوب والثمار والفواكه مختلفة الأنواع والألوان . والله بذلك وأمثاله – فى الذكر الحكيم – يطلب من المسلمين بجانب التوكل المخلص عليه اتخاذ الأسباب لكسب الرزق والمعاش . ويجمع علماء المسلمين وفقهاؤهم على أن التوكل على الله لابد – كما قلنا – أن يقترن بالأسباب فى طلب الرزق والمعاش من مأكل ومشرب وغيرهما من سنن الحياة .

٢٤ – الخوف – الخشية

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

الإسراء : ٥٧

٢ – وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ

النازعات : ٤٠ و ٤١

٣ – وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾

الرعد : ٢١

٤ – إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

الملك : ١٢

الأحاديث

١ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن خافَ أَدْلَجَ[1] ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنّة (رواه الترمذى فى باب الزهد) .

٢ – عن أبى أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس شىءٌ أحبَّ إلى الله من قطرتين : قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تُهرق فى سبيل الله (رواه الترمذى فى كتاب الجهاد) .

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَلج[2] النارَ رجلٌ بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضَّرْع[3] (رواه الترمذى فى كتاب الجهاد) .

٤ – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه : إنى أتقاكم لله وأشدكم له خشية (رواه البخارى فى غير موضع ومسلم فى الصيام) .

الآية الأولى فى المؤمنين المتقين وأنهم يدعون ربهم الذى يستجيب دائما لدعائهم ويقول إنهم يبتغون إليه الوسيلة من قربه ويرجون منه الرحمة ويخافون عذابه . وقيل الآية فى المشركين على أنها تهكم بهم واستهزاء ، وحتى إن كانت فى المؤمنين فإنها تعريض بالمشركين ، ويهمنا ما جاء فيها من خوف العذاب ، وعذابه – كما قال فيها – يحذره الطائعون والعاصون . والخوف فى اللغة توقع مكروه بعلامات مظنونة أو متيقنة ، وهو فريضة على كل مسلم إذ يقول تعالى فى سورة آل عمران : ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ ويقول فى سورة البقرة : ﴿وإياى فارهبونِ﴾ . والآية فيها تشديد على رهبة الله والخوف ، بما فيها من قَصْرٍ واضح ، وفى سورة السجدة فى وصف المؤمنين أنهم ﴿يَدعُون ربَّهم خَوفا وطمعا﴾ . والخوف قسمان مذموم ومحمود ، فالمذموم خوف العاصى الآثم الذى لا يكف عن عصيانه ، والمحمود هو الذى يعمل صاحبه الأعمال الطيبة ويخاف أن لا يتقبلها الله منه ، ولذلك قيل : لا يُعَدُّ خائفا من لم يكن للذنوب تاركا . وهو ليس استشعارًا للفزع من عذاب الله ، وإنما هو مراقبة المسلم لربه فى أقواله وأفعاله مؤمنا بأنه سيحاسب يوم القيامة على ما قاله وعمل فى دنياه ، وكأنه ضرب من قلق المسلم على مصيره فى آخرته مما يجعله يستشعر مخافة ربه . ويُروَى ان أبا بكر الصديق

---

(١) أدلج : سار فى أول الليل .

(٢) يلج : يدخل .

(٣) الضرع : مدرّ اللبن .

رضى الله عنه فكر ذات يوم فى البعث والقيامة والموازين والحساب وطىِّ السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانقضاض النجوم ، فقال : وددتُ أنى كنت خُضَرًا من هذه الخُضَر تأتى علىَّ بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق » . وهى صورة رائعة لما أودع القرآن الكريم فى ضمير الصديق من الخوف الصادق من عذاب ربه ، وهو المثل الكامل – بعد الرسول – للمؤمنين فى التقوى والعبادة وأعمال البر والصالحات ، ومع ذلك يرهب الله ويخافه خوفا شديدا . وفيه وفى أمثاله – أو قل فى أشباهه – من الصحابة المتقين يقول الله تعالى فى سورة فُصِّلَت : ﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾ .

وتذكر الآية الثانية الخوف من مقام الرب ، وكلمة مقام مصدر بمعنى القيام ، ويمكن أن يكون المراد منها مراقبة الله للإنسان ووقوفه على كل ما يأتى من الأمور كما وصف نفسه فى سورة الرعد بأنه ﴿قائم على كل نفس بما كسبت﴾ بمعنى أنه رقيب ومطلع على كل ما يعمله الإنسان فى دنياه من خير أو شر ومجازيه به جزاءً عادلا ، لا يظلمه فيه مثقال ذرة . ويمكن أن تكون كلمة مقام فى الآية اسم مكان والمراد مكان الخلق وموقعهم للعرض يوم الحساب كما قال تعالى فى سورة المطفِّفين :﴿يوم يقوم الناسُ لرب العالمين﴾ . وينبغى أن نعرف أن الله جَلَّ جلاله منزَّه عن القيام والوقوف والمكان ، وكل ما جاء فى القرآن مما قد يفيد تشبيها أو تجسيدا لله يؤوَّل ، ولذلك يمكن أن تؤوَّل كلمة مقام فى الآية بمعنى عظمة الله وجلاله فمن ﴿خاف مقام ربه﴾ واستشعر عظمته وجلاله ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ أى عن الملذات والشهوات ﴿فإن الجنة هى المأوى﴾ أى مسكنه الدائم الأبدى فى الآخرة لما أدى لربه من العبادات والعمل الصالح ، كما جاء فى الحديث النبوى الأول : مَن خاف أدلج أى من خاف عذاب ربه جَدَّ فى عبادته ، حتى يبلغ المنزل أى حتى يبلغ الجنة . ويصورها الرسول بأنها سلعة ربانية وأن على من يريد شراءها أن يقدم لربه ما يستحقه من عبادة مخلصة صادقة .

والآية الثالثة تنوِّه بمن يصلون ما أمر الله به أن يوصل من أواصر الأخوة بينهم وبين المسلمين وأواصر القرابة بينهم وبين ذوى الرحم ، وهم المسلمون حقا الذين ﴿يخشون ربهم ويخافون سوءَ الحساب﴾ . والخشية أعلى درجة من الخوف ، فهى خوف مع تجلة المخوف منه وتعظيمه ، وهى أخص من الخوف ، إذ الخوف توقع الإنسان ما يكره من أى شىء ، ولذلك يذكر فى القرآن كثيرا مع العذاب ، وهو فى الآية مذكور مع سوء الحساب أى

العقاب . وخشية المسلمين من الله هيبة وإخلاص له وامتثال لطاعته وطلب لحسن العاقبة مع تذليل النفس وكسر سورتها ، ومع إقبال على ما عند الله ، ومع عبادته حق العبادة ، ومع شدة الخشوع والاستكانة والتذلل حتى ليذرفون الدموع إشفاقا على أنفسهم من لقاء ربهم أو من أن يكونوا مقصرين إزاء طاعته وعبادته . وينوه الرسول صلى الله عليه وسلم بدموعهم من خشية ربهم قائلا فى الحديث الثانى : إنه لاشىء أحب إلى الله من قطرتين : قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تسيل فى سبيل الله . والحديث النبوى يعلى قطرة الدمع مع خشية الله حتى ليجعلها مساوية لقطرة الدم الطاهرة تسيل من المجاهد الشهيد المدافع عن دين الله . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث : لا يدخل النار رجل ذرَف الدمع من خشية الله ، وأيَّد ذلك أو رأى أن يجعله أبديا فقال حتى يعود اللبن فى الضرع أى ضرع الناقة الذى يُدرُّه ، فإنه من المستحيل أن يعود إليه بعد الحلب كما لا يعود الوليد إلى بطن أمه .

والآية الرابعة تنوِّه بمن يخشون ربهم بالغيب أى دون أن يروه ، فيقبلون على عبادته مخلصين لعظمته وجلاله . ويمكن أن يكون المراد بالغيب فى الآية عذاب الله ، فهم يخشونه دون أن يروا عذابه الغائب عن أبصارهم وأبصار الناس . ويمكن أن تشمل كلمة ﴿ بالغيب﴾ فى الآية كل ما غاب عن الإنسان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من عذاب النار ونعيم الجنة . وينبغى على المسلم أن يستشعر خشية الله فى سره وعلنه ، وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع : إنى أتقاكم لله وأشدكم له خشية . وعن ابن مسعود فى صحيح البخارى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : اقرَا علىَّ القرآن ، فقلت يارسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك أُنزل ؟ قال : إنى أُحبُّ أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى قوله تعالى : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء﴾ أى أتباعك ﴿ شهيدا﴾ قال : حَسبُك الآن ، فالتفتُّ إليه ، فإذا عيناه تذرفان أى تسكبان الدمع سكبا . وقيل إزاء هذا الحديث إنه بكى لما تضمنت الآية من ذكر المحشر . وشدة الهول فيه إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب ،وقيل إنه بكى على المفرِّطين العاصين من أمته ، وقيل بكى فرحا لشهادته على أمته ، وقيل بل لفرط رأفته وشفقته على أمته . وفى بقية الآية الكريمة يعد الله من يخشونه بالغيب مغفرة ، وهو يفتح أبواب مغفرته على مصاريعها فى القرآن لكل من أخلصوا فى عبادتهم له ، وتضم الآية لمن يخشون ربهم بالغيب مع المغفرة أجرا كبيرا هو الجنة ونعيمها الخالد .

٢٥ – التوبة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ

هود : ٣

٢ – وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

النور : ٣١

٣ – وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ

الشورى : ٢٥

٤ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

التحريم : ٨

الأحاديث

١ – عن الأعزّ بن يسار المُزَنيّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة (رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء) .

٢ – عن أنس بن مالك الأنصارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَلّهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من أحدكم إذا سَقَط علىٰ بعيره وقد أضلَّه فى أرض فلاة (رواه البخارى ومسلم فى كتاب التوبة واللفظ للبخارى) .

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ،فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم (رواه مسلم فى كتاب التوبة) .

٤ – عن أبى موسى الأشعرى قال النبى صلى الله عليه وسلّم : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل (رواه مسلم وابن حنبل فى مسنده) .

والله – تقدس اسمه – يدعو المؤمنين أن يستغفروه كلما أذنبوا ذنبا ويتوبوا إليه ، والتوبة لغة معناها الرجوع ، وشرعا معناها الرجوع عن معصية الله إلى طاعته أو عما نهى عنه إلى ما امر به ، وهى واجبة إزاء كل ذنب سواء كان من الكبائر أو الصغائر . وإذا كان الذنب متعلقا بحق من حقوق الله كترك الصلاة يجب على المذنب ان يكفَّ عنه وأن يندم أشد الندم على ارتكابه وأن يعقد عزمه على أن لا يعود إليه أبدا . وإن كان الذنب متعلقا بحق من حقوق الناس كأنْ كان مالا أو عقارا وجب رده – مع التوبة – إلى صاحبه بعينه أو بما يماثله إن كان قد تلف أو حدث فيه تلف ، وإن كان قصاص قتل مكَّن أصحاب القتيل منه ، إلا إن طلب منهم العفو ، وقبلوا ذلك فأسقطوا حقهم . وإن كانت غيبة فى حق شخص غائب وقذفا فى حقه وجب أن يسترضيه ويقول إنى نادم عليها ولن أعود إليها . وبالمثل شهادة الزور ، وذنبها أعظمُ . وينصح الرسول صلَّى الله عليه وسلم صحابته فى الحديث الأول باستغفار ربهم دائما ، ويتلطف لهم – كعادته – ضاربا المثل بنفسه ، وهو الرسول محبوب ربه الشفيع لأمته .

ويقول الله تعالى فى الآية الثانية : ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيُّها المؤمنون﴾ وهو بذلك يطلب من المؤمنين أن يتوبوا إليه من جميع الذنوب مهما كانت كبيرة أو صغيرة ، واختلف الأسلاف هل إذا تاب الشخص من بعض الذنوب دون بعض هل تقبل توبته فيما أذنب فيه أو لا تقبل ؟ قال المعتزلة أنها لا تقبل ، وإنه لابد من الكف عن سائر الذنوب والتوبة منها حتى تتحقق التوبة فعلا ويتحقق صلاحه ، وقال أهل السنة إنها تقبل فيما تاب عنه ، وتبقى عليه التوبة فى بقية الذنوب . وفى رأيى أن رأى المعتزلة أدق ، لأن قبول التوبة معناه الثوبة من الذنوب جميعا . ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى إن الله أكثر فرحا بتوبة عبده من أحدكم وجد بعيره بعد أن ضَلَّ منه فى فلاة ، وفى رواية ثانية للحديث فى صحيح مسلم : الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة مهلكة ، فانفلتت الراحلة منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة واضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته .وبينما هو كذلك إذا هو

بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها فرحا . والرسول صوَّر فرحة الله بتوبة عبده تصويرا عظيما بفرحة رجل يسير فى فلاة مهلكة ، وينزل عن ناقته لضرورة فتندُّ عنه ، وعبثا يستطيع اللحاق بها وعليها زاده ويأوى من شدة الحرارة إلى ظل شجرة ، فيضطجع فيه ، وقد أيس من راحلته ومن حياته ، وغلبه النوم ، واستيقظ ، وإذا راحلته عند رأسه وعليها زاده وطعامه وشرابه ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من فرح هذا الرجل برجوع راحلته وزاده إليه .

ويفتح الله – تبارك اسمه – فى الآية الثالثة الأبواب على مصاريعها لقبول التوبة من عباده ، واختلف الأسلاف هل قبول الله – جل شأنه – للتوبة قطعى أو ظنى ، وذهب المعتزلة إلى أنه قطعى لأنه وعد من الله ، ووعده – مثل وعيده – لا يتخلف ، ولو أن الله لم يقبل توبته لما تحقق وعده ولا تحقق للتائب عفوه . وذهب أغلب أهل السنة من مثل الأشعرى والغزالى إلى أن قبول التوبة مقطوع به لتكراره فى الذكر الحكيم . وذهب آخرون إلى أنه ظنى ، والأولى أنه يقينى ومقطوع به ، ويقول الغزالى : إنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك فى أن كل توبة صحيحة هى مقبولة ، إذ القلب خُلق سليما فى الأصل فكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوته السلامة بكدرة ترهقه من غبرة الذنوب وإن نور الندم يمحو عن القلب تلك الظلمة ، كما يمحو الماء والصابون عن الثوب الوسخ . فمن توهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن توهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، أو أن الثوب يغسل والوسخ لا يزول ، نعم فقد يقول التائب باللسان تُبتُ ولا يُقلع فذلك كقول القصَّار (غاسل الثياب وصابغها) بلسانه غسلت الثوب ، وهو لم يغسله ، فذلك قصار (لا ينظف الثوب) . وكما أن الآية تفتح الأبواب لقبول التوبة من عباد الله ، كذلك الحديث الثالث وما يقوله الرسول صلَّى الله عليه وسلم فيه من أن المؤمنين لو لم يذنبوا لجاء الله بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم .

ويطلب الله فى الآية الرابعة أن يتوب المؤمنون إلى الله توبة نصوحا ، وقال عمر بن الخطاب وأبيّ بن كعب إن التوبة النصوح هى التى يتوب صاحبها من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع . وقيل إن التوبة النصوح ينبغى أن تتضمن ثلاثة أشياء هى أن تشمل جميع الذنوب ، وأن يُصِرَّ عليها التائب بعزيمة صادقة ، وأن يجعلها

خالصة لربه خشية وخوفا من عذابه وعقابه ، وبذلك تسحق جميع الذنوب سحقا .
ويصور الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع أن الله - تبارك اسمه - يبسط يده فى الليل ليتوب مذنب النهار ، ويبسط يده فى النهار ليتوب مذنب الليل .وبَسْط يد الله فى الليل والنهار كناية عن طلبه من المذنب توبته . وفى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال عشر مرات حين يصبح وحين يمسى أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غُفرت ذنوبه ، ولو كانت رمل عالج[1] ، ومن قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غُفرت ذنوبه .

(١) رمل عالج : رمال كثيرة بادية نجد .

٢٦ – الغفران

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾

النساء ١١٠

٢ – ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

الكهف ١١٠

٣ – ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

فاطر ٢٩

٤ – ۞ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

الزمر ٥٣

الأحاديث

١ – عن جابر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة (رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، وفى نفس الكتاب وكتاب الإيمان فى صحيح البخارى حديث مع معاذ يماثله مع زيادة الشهادة بأن محمدا رسول الله .

٢ – عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

٣ – وعن أنس أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى : قال الله تعالى : يابن آدم ! إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك كل ما كان منك ولا أبالى ، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان[1] السماء ، ثم استغفرتنى غفرت لك ، يابن آدم إنك لو أتيتنى بِقُراب[2] الأرض خطايا ثم لقيتنى ولم تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة (رواه الترمذى) .

٤ – وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى يحكيه عن ربه تبارك وتعالى ، قال الله : أذنب عبدى ، فقال : اللهم اغفر لى ذنبى . فقال الله تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا ، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال أىْ ربِّ اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا ، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رَبِّ اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا ، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذّنب . قال الله اعمل ما شئت فقد غفرت لك (رواه مسلم فى التوبة ، ورواه البخارى فى التوحيد ، واللفظ لمسلم) .

والله – تقدس وتبارك اسمه – فى الآية الأولى يقول إن من يعمل سوء أى عصيانا يعصى به ربه وأوامره ونواهيه ، أو يظلم نفسه بكثرة معاصيه ثم يستغفر الله يجده ﴿غفورا﴾ واسع المغفرة ﴿رحيما﴾ بعباده ، يستغفر لهم ويعفو عنهم ، كما قال فى سورة آل عمران : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرُّوا على ما فعلوا﴾ . والفواحش المعاصى الكبيرة ، وظلم النفس بارتكاب كبائر

(١) عنان السماء : ظاهرها المرئى .
(٢) بقراب الأرض : بما يقارب ملئها .

الإثم ، فمن اقترفوا الذنوب الكبيرة ، وذكروا الله أى أوامره ونواهيه ، فاستغفروا الله لذنوبهم ولم يصروا عليها بل عزموا على الإقلاع عنها ، فإن الله يغفرها ، إذ ندموا على إتيانها ولن يعودوا إليها . والله فى القرآن الكريم يفتح أبواب مغفرته لعباده مهما أتوا من الكبائر والمنكرات ، ماداموا اعترفوا له بذنوبهم واستغفروه بنية صادقة ، ولا يخيب لهم استغفارا ولا رجاء ، مهما كانت آثامهم ، فأبواب مغفرته مفتوحة دائما .

ويقول ربّ العزة فى الآية الثانية إن من يرجو لقاء ربه مؤمنا بالبعث والحساب وأن الله سيوفيه جزاءه على أعماله ﴿فَلْيَعْمَل عملا صالحا﴾ يبتغى به وجه ربه . وفى الحديث أن أعمال الناس تُعرَض بين يدى الله يوم القيامة فيقول الله لملائكته : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة عن الأول : يا رَبِّ ، والله ما رأينا منه إلا خيرا ، فيقول إن عمله كان لغير وجهى ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى . والعمل الصالح والإيمان بالبعث لا يكفيان بل لابد من الإيمان بوحدانية الله ، وأن لا يشرك العبد بعبادته أحدا . فذلك هو أصل الإيمان ويتفرع عنه الاعتقاد بالبعث والعمل الصالح . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول إن من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنّة ، وفى حديث له : من قال لا إله إلا الله وجبت له الجنة . ويقول فى حديث معاذ : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرَّمه الله على النار .

ويقول الله — تقدّس اسمه — فى الآية الثالثة إن المؤمنين الذين يتلون القرآن الكريم ويؤمنون بشريعته ، ويقيمون الصلاة أعظم العبادات البدنية ، وينفقون مما رزقناهم من الأموال سرا وعلانية ابتغاء مرضاة الله يرجون بكل تلك الأعمال أن تكون تجارة رابحة عند الله ، وأن ينالوا بها ما يستحقون من الأجر والثواب وأن يغفر الله لهم ﴿إنه غفور شكور﴾ . ويكرر الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه أن المسلمين — كما فى الحديث الثانى — مهما أخطأوا حتى لو ملأت خطيئاتهم ما بين السماء والأرض ، ثم أنابوا إلى الله واستغفروه فإنه سيغفرها لهم . ويقول الله فى الحديث القدسى الثالث : يابن آدم إنك ما استمررت تدعونى وترجو مغفرتى فإنى أغفر لك كل ما أذنبت ، ولا أبالى ، ويقول — عزَّ سلطانه — إن ذنوب ابن آدم لو بلغت ظاهر السماء المرئى أى ما بين السماء والأرض ثم استغفر الله فإنه يغفرها له . ويقول الله جَلَّ شأنه إن ابن آدم لو أتاه بما يملأ الأرض ذنوبا واستغفره ولقيه لا يشرك بعبادته أحدا ليأتينه بما يملؤها مغفرة .

والآية الكريمة الرابعة تدعو جميع العصاة من المؤمنين والكافرين إلى طلب المغفرة من

الله ، فإنه يغفر ذنوب العباد – مؤمنين ومشركين – إذا تابوا واستغفروه مهما كثرت ومهما أسرفوا على أنفسهم فى ارتكاب المعاصى وثقلت عليهم ذنوبهم وما ارتكبوه من سيئات ويقول الله ﴿لا تقنطوا﴾ ولا تيأسوا (من رحمة الله) فإنه لا يخيِّب لأى تائب مستغفر رجاءه فى عفوه ومغفرته ، إذ ﴿يغفر الذنوب جميعا﴾ لأنه هو ﴿ الغفور﴾ شديد المغفرة ﴿ الرحيم﴾واسع الرحمة . وفى الحديث أن شيخا كبيرا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات فهل يُغفَرُ لى ؟ فقال الرسول : ألست تشهد أن لا إله إلا الله ، قال : بلى وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد غُفِرت لك غدراتك . وما أروع الحديث القدسى الرابع الذى حكاه الرسول عن ربه قائلا : إن عبدا من عبادى أذنب ذنبا ودعانى قائلا : اللهم اغفر لى ذنبى فغفرته له . ثم عاد فأذنب ذنبا ثانيا ، ودعانى أن أغفر له فغفرته له . ثم عاد فأذنب ذنبا ثالثا ، ودعانى أن أغفره له فغفرته . ثم يقول الله : قد غفرت لعبدى فَلْيَفْعَلْ ما شاء أى ما دام يذنب ويستغفر فسأغفر له . ويُروَى أن الرسول صلى الله عليه ووسلم كان يقول عن الآية القرآنية الرابعة وما فيها من فتح الله لأبواب مغفرته على مصاريعها للمسلم والكافر إنها تساوى عنده الدنيا وما فيها ، وعن عبد الله ابن مسعود قال إنها أعظم آية فى القرآن مفرحة لما تُفرح به قلوب العباد العصاة وغير العصاة من دعوتهم إلى عدم القنوط واليأس من المغفرة الربانية .

القسم الثانى
أسس اجتماعية



٢٧ – آداب السلام – المصافحة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾

النساء ٨٦

٢ – ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾

الأنعام ٥٤

٣ – ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾

هود ٦٩

٤ – ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾

النور ٦١

الأحاديث

عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابُّوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٢ – عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ فى المسجد يوما وعصبة

من النساء قعود ، فألوى[1] بيده بالتسليم (رواه الترمذى فى الاستئذان وابن ماجة فى الأدب) .

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يسلِّم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير (رواه البخارى فى الأدب) .

٤ – عن أنس قال رجل : يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له ؟ قال لا ، قال أفيلتزمه[2] ويقبِّله ؟ قال : لا ، قال : فيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال : نعم (رواه الترمذى) .

يعلِّم الله جل شأنه – المسلمين فى الآية الأولى أدب لقاء بعضهم بعضا فيأمرهم إذا التقوا وحَيَّى الأخ أخاه بتحية يجب أن يحييه بتحية أحسن منها أو على الأقل يردها عليه بما يماثلها ، والله فضل أن تكون أحسن منها . وهو أدب عظيم يعلمه الله للمسلمين ، وهو امتداد لمبدأ الأخوة بين الأخ وأخيه فى الإسلام فلا يتعالى مسلم شريف أو ثرى على مسلم من العامة أو على مسلم فقير ، فقد أصبح المسلمون متساوين ، ولا شريف ومشروف ولا سيد ومسود ولا غنى وفقير ، فأى مسلم حياه أخوه المسلم يجب أن يبادر إلى رد تحيته بتحية مماثلة أو بتحية أحسن منها . ومعروف أن التحية فى الإسلام هى السلام عليكم وردها ردا مماثلا بكلمة : وعليكم السلام بزيادة واو العطف فى أول الرد ، وقد يرد المسلم بأحسن من ذلك قائلا : وعليكم السلام ورحمة الله أو يقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وقد يبدأ المسلم بهذه الصيغة الأخيرة فيكون ردها مماثلا لها . وفى حديث تعليمى رواه أبو داود فى الأدب أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم فردَّ عليه : وعليكم السلام ، ثم جلس ، فقال النبى : عَشرٌ أى عشر حسنات جزاء هذه التحية . ثم جاء آخر ، فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه بمثل ما قال ، فجلس ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : عشرون أى عشرون حسنة لزيادته فيها كلمة : ورحمة الله . ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردَّ عليه بمثل ما قال ، فجلس ، فقال الرسول صلى

(١) فألوى : أشار

(٢) يلتزمه : يعانقه .

الله عليه وسلم : ثلاثون أى ثلاثون حسنة لزيادته فيها كلمة : وبركاته ، أى خيراته الدائمة . وكل ذلك تحبيب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسود بين المسلمين المودة والمحبة عن طريق عدم التهاون فى بدء المسلم أخاه بالتحية حين يلقاه وأن يرد عليه بمثلها أو بأحسن منها ، فإذا قال المسلم لأخيه السلام عليكم وجب أن يرد عليه بقوله : وعليكم السلام : أو يرد بأحسن من ذلك قائلا : وعليكم السلام ورحمة الله أو قائلا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول الذى اخترناه أن المسلمين لا يدخلون الجنة حتى يؤمنوا ، ولا يؤمنون حتى يتحابوا . ويدلهمّ على ما يوثق الحب بينهم قائلا : إنه إفشاء السلام بينكم . وواضح أن كل ذلك فى الإسلام تأكيد على نشر السلام والمودة بين المسلمين ، بل بين الناس جميعا ، إذ أوجب على المسلم أن يرد على غير المسلم تحية السلام . وبهذه التحية اليوميّة كان الإسلام أول داع للسلام فى الأرض منذ أربعة عشر قرنا وهو يكرَّر فى كل صلاة ، وجعله الله أحد أسمائه الحسنى تأكيدا لهذه الدعوة وسمّى الجنة دار السلام حثا عليه .

والله عزّ شأنه فى الآية الثانية يأمر رسوله ، إذا جاءه المؤمنون أن يحييهم بتحية السلام ، وهى تحية تحمل فى أطوائها أمانا لصاحبها وللراد عليه لأن معنى السلام الأمان ، وكأنها تعلن الثقة بين الطرفين ، فهما فى الإسلام متوادّان . وكما يحيّى رجال المسلمين بعضهم بعضا يحيى النساء بعضهنّ بعضا ويحييهن الرجال بتحية الإسلام قائلين السلام عليكن على نحو ما نرى فى الحديث الثانى ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مرَّ بالمسجد ، وجماعة من النساء قعود فأشار بيده بالتسليم أى أنه جمع بين اللفظ ، فقال لهن السلام عليكن ، وبين الإشارة باليد لتنبيه النساء إلى السلام .

والآية الثالثة تحكى قصة وفود رسل الله من الملائكة على إبراهيم ويقال كانوا ثلاثة : جبريل وميكائييل وإسرافيل ، وقد وفدوا عليه بالبشرى له ولزوجته سارة بابنهما إسحق ، ويذكر الله حينما بدءوا الوفود عليه أنهم قالوا سلاما أى تحية لك قال : سلام ، فرَّد التحية بمثلها . ويصور الحديث الثالث آداب السلام ومن ينبغى عليه المبادرة به ، ويرتّب الرسول المبادرين به ، فالراكب يسلم على الماشى تواضعا له ، والماشى على القاعد ، لأنه مارٌّ به ، والقليل على الكثير لأن حق الكثير أكبر وأعظم ، والصغير على الكبير ، لأنه مأمور بأن يوقّر الكبير ويتواضع له .

والآية الرابعة يأمر الله فيها المسلمين إذا دخلوا بيوتا أن يسلموا على أنفسهم أى يسلم بعضهم على بعض ، فيسلم الزوج على زوجته ومن معها ، ويسلم الزائر على أهل الدار .
والآية تلزم المسلم بالسلام على القريب مثل السلام على البعيد ، وعن أنس بن مالك قال : أوصانى الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس خصال ، قال : يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على مَن لقيك من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت - يعنى بيتك ، فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصَل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوَّابين قبلك ، يا أنس : ارحم الصغير ووقِّر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة .

والحديث الرابع فى استحباب المصافحة عند اللقاء بعد السلام ، وقد يدل الحديث على كراهية المعانقة والتقبيل فى السلام ، ولكن جاء فى الترمذى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فأتاه فقرع الباب فقام إليه النبى صلى الله عليه وسلم فاعتنقه وقبَّله . وإذن فالمعانقة فى السلام والتقبيل مباحان ، وهما يكثران فى عصرنا فى السلام بين الأصدقاء كما يكثر تقبيل الأطفال شفقة ومحبة . أما الانحناء فمكروه ، ويحرم الانحناء بهيئة الركوع لأن ذلك خاص بتعظيم الله فى الصلاة ، ويستحب أن يلقى المسلم أخاه ببشاشة الوجه وتهلله مع الابتسام اللطيف وعبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله الذى مر بنا فى غير هذا الموضع حين قال : لا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه كله بشر وأنس ومودة .

٢٨ - الاستئذان - آداب المجالس

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ

النور ٢٧

٢ - وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ

النور ٥٩

٣ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ

المجادلة ١١

٤ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ

الحجرات ٢

الأحاديث

١ – عن أبى موسى الأشعرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاستئذان ثلاث ، فإن أُذن لك وإلا فارجع (رواه مسلم فى الاستئذان) .

٢ – عن كلدَة بن الحنبل قال : أتيت النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلت عليه ولم أسلِّم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ارجع فقل السلام عليكم أأدخل (رواه أبو داود والترمذى فى الاستئذان) .

٣ – عن جابر قال : أتيت الرسول صلى الله عليه وسلم فدققت الباب ، فقال : مَن ذا ؟ فقلت : أنا ، فقال : أنا أنا كأنه كرهها (رواه البخارى ومسلم) .

٤ – عن ابن عمر قال : لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا (رواه مسلم فى كتاب السلام) .

والله – تقدس اسمه يبين فى الآية الأولى آداب الاستئذان للمسلم الذى يزور أحد الناس قريبا أو غير قريب فى بيته فإنه لابد أن يستأنس أى يستأذن قبل دخوله البيت حتى يأخذ صاحب البيت وأهله الفرصة فى استقباله ، فقد يكون فى البيت ما ينبغى ستره على الزائر ، وحتى إذا كانت الزيارة لإحدى محارمه فقد تكون فى حاجة إلى إصلاح شأنها . وقد يكون صاحب البيت فى شقاق مع الزائر ويخشى أن يشتمه أو يتطاول عليه فلا يريد لقاءه . ظروف مختلفة كثيرة تحرج صاحب البيت إن دخل عليه الزائر دون استئذان ، ولذلك أوجبه الله . ومما يروى من لطف الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك أنه قدم المدينة من إحدى مغازيه مع جيشه نهارا فأقام بظاهرها مع جنوده وقال لهم انتظروا حتى ندخلها مساء وحتى تمتشط الشَّعِثة (متلبدة الشعر) وتستحدَّ (أى تستعد) المغيبة (التى غاب عنها زوجها) . وهو أدب عظيم فى إعطاء المرأة الفرصة كى تزدان قبل لقاء الزوج . وكان الظلام المعتم يغمر المدينة ليلا ، فكان ينهى أصحابه أن يطرق أحدهم أهله فيه دون إعلامهن ، حتى لا يعرضهم لأى خوف أو فزع ، وقالت زينب زوجة عبد الله بن مسعود الصحابى الجليل إنه كان إذا جاء من حاجة قضاها وانتهى إلى الباب تنحنح لتعرف زوجته أنه قدم ، وإذا دخل الدار تكلم ورفع صوته كراهة أن يقف على أمر يكرهه . والآية تأمر بالجمع بين الاستئذان والسلام ؛ وقيل إن الاستئذان فرض والسلام مستحب . وبيَّن الحديث الأول أن المستأذن يكرر استئذانه ثلاث مرات ، فإذا لم يؤذن له انصرف ، كما بين الحديث الثانى صيغة الاستئذان ، وهى أن يقول الزائر السلام عليكم أأدخل ؟ وكان الرسول يعلمها الصحابة كما فى هذا الحديث . ومن

آداب الاستئذان أن لا يقف المستأذن فى مواجهة الباب حتى إذا فُتح لم يرَ ما وراءه من المنزل ، إنما يقف عن يمين الباب أو يساره .

والآية الثانية توجب على المؤمنين إذا بلغ الأطفال الحلم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار من أبناء الرجل وأقاربه أى أن حكم الآية السابقة ينطبق عليهم فلا يزورون أحدا ويدخلون بيته إلا بعد الاستئذان . ويبين الرسول فى الحديث الثالث أنه لابد لمن يستأذن بدق الباب إذا سُئل مَن هو أن يعيِّن شخصه بالاسم أو بالكنية أو باللقب وأن لا يجيب بكلمة غامضة مثل أنا ، فقد كره ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأصوات تتشابه ولفظ أنا مبهم ، ومن بداخل البيت يريد أن يعرف شخص المستأذن بعينه كى يأذن له فى الدخول .

والآية الثالثة فى آداب المجالس والله – جلَّ وعزَّ – يخاطب فيها المؤمنين بالتفسح فى المجالس أى التوسع إذا طُلب منهم ذلك تكرُّما من الأخ الجالس لأخيه الواقف ، وهو صنيع يوثق المحبة بين المسلمين . والآية مع نزولها فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لكل مجالس المسلمين سواء كانت مجالس علم أو وعظ أو غير ذلك ، لما فى هذا التفسح من مواساة محبوبة . ومن الخطأ أن يظن الشخص أن توسعته لأخيه تعد نقصا فى حقه إذ إن ذلك منه تفضل كريم ، ولا يضيع عليه هذا التفضل ، بل يجزيه الله به فى دنياه وآخرته . وينبغى أن لا يحاول من يأتى مجلسا متأخرا القعود فى صدره أو فى وسطه أو أن يقيم شخصا ويجلس مكانه . وفى كتب الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس وقد نهى نهيا باتا أن يقوم له الصحابة قائلا إن ذلك من شعار العجم . والآية الرابعة توجب أدبا فى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وحضرته أن لا يرتفع صوت صحابى على صوت الرسول وأن لا يجهروا له بالقول . وهو أدب حميد أن يكون صوت الشخص فى المجلس بين الهمس والجهر بحيث لا يؤذى الجالسين وهى مرتبة رفيعة من الأدب الإلهى فى المجالس ، وفى وصية لقمان لابنه : ﴿واغضُضْ من صوتك إنَّ أنكرَ الأصوات لصوت الحمير﴾ والغض من الصوت : خفضه . ومن آداب المجلس إصغاء الشخص لحديث جليسه والإنصات له وأن لا يقاطعه فى كلامه .

٢٩ - الأمر بالمعروف - النهى عن المنكر

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

آل عمران : ١٠٤

٢ - كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

آل عمران : ١١٠

٣ - وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

التوبة : ٧١

٤ - ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

الحج : ٤١

الأحاديث

١ – عن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان (رواه مسلم فى كتاب الإيمان ورواه أبو داود وابن ماجة) .

٢ – عن حذيفة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لتأمرُن بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعون فلا يستجاب لكم (رواه الترمذى) .

٣ – عن أبى سعيد الخدرى قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم : إياكم والجلوس فى الطرقات فقالوا ما لنا فى مجالسنا بُدٌّ نتحدث فيها فقال : فإذا أبيتم إلا المجلس فيها فأعطوا الطريق حقَّه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله قال : غَضُّ البصر وكف الأذى وردّ السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (رواه البخارى ، ومسلم فى الاستئذان ، ورواه أبو داود فى الأدب) .

٤ – عن أسامة بن زيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شخصا أُلقى فى النار يوم القيامة سُئل ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقال : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه (رواه البخارى فى صفة النار وفى الفتن) .

والله – جَلَّ شأنه – فى الآية الأولى يأمر المؤمنين أن يكون بينهم أمة أى جماعة أو طائفة تدعو إلى الخير أى إلى الأعمال الخيِّرة الطيبة ويمكن أن يكون المراد فى الآية بالخير القرآن الكريم والحديث أو بعبارة أخرى الإسلام يدعو إليه الأمة ويحث عليه . ﴿ ويأمرون بالمعروف﴾ هو ما يعرف عقلا وشرعا من الأعمال الحسنة ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو ما ينكر على صاحبه عقلا وشرعا من الأعمال الشريرة والسيئة . ومن الخطأ ما يقوله بعض الفقهاء من أن النهى عن المنكر واجب ما لم يجر إلى منكر أدهى ، لأن ذلك قد يؤدى إلى إلغاء النهى عن المنكرات جميعا ، وبالتالى إلى إلغاء هذا النهى الإلهى عن المنكر جملة . وتخصيص الله له جماعة من الأمة يجعله واجبا عليها ، ويحلّ محلها ولاة الأمور فى نهى الناس عن المنكرات واتخاذ الأسباب المحققة لذلك .ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول : من رأى منكم منكرا فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وكأنه يصور درجات التغيير وتمنيه . والأمر والنهى الفعليان إنما يكونان عن طريق أولى

الأمر ، وهو ما جعل حكام المسلمين فعلا فى العصور الإسلامية يقيمون للنهى عن المناكر نظام الحسبة ، وكان عاما فى البلاد العربية شرقا وغربا ، وبدأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فعين لمراقبة الأسواق والأسعار سيدة هى الشفاء رضى الله عنها ، وكانت ولاية الحسبة من الأعمال الرفيعة ، وكان يتولاها فى كل بلد فقيه نابه ، ويكون له فى البلاد الكبيرة مساعدون من الفقهاء .

والله – تبارك وتعالى اسمه – فى الآية الثانية يقول إن الأمة الإسلامية أفضل الأمم التى أخرجت ووجدت فى الدنيا ، وهى أفضلية مرجعها إلى رسولها وما أُمر بتبليغه إليها من الهدى ومن الشريعة المثالية ، مما جعلها أو بعبارة أدق مما جعل أفرادها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهو نهى وأمر وُكلا مع الزمن وتطور الحياة فى الأمة إلى اولى الأمر ، ولابد أن يسندهم فى ذلك الفقهاء الراسخون فى العلم الذين يتمثلون تعاليم الشريعة الإسلامية على وجوهها الصحيحة . وجَعْلُ الله التفضيل للأمة الإسلامية راجعا إلى فضيلتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكرقد يفهم منه أن هاتين الفضيلتين تخصان الأمة الإسلامية وأن أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية لم يعملوا على إشاعة هذا النهى وذلك الأمر . أما قوله تعالى : ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فإن الآية لم تنزل فى وصف أهل الكتاب عامة ، إنما نزلت فى وصف طائفة قليلة منهم اعتنقت الإسلام مثل عبدالله بن سلام . ويدل الحديث الثانى على مدى حرص الرسول أن يصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قانونين ثابتين فى أمته ثبوت الصخر حتى ليقول لأصحابه إنكم إذا لم تتمثلوا هذين القانونين تمثلا تاما فإن الله يوشك أن يصب عليكم عقابا منه ، مع إغلاق أبواب رحمته دونكم فلا يستجاب دعاؤكم له مهما توسلتم وتضرعتم إليه .

والآية الثالثة تنص على أن المؤمنين والمؤمنات بينهم لحمة وثقى أوثق من لحمة الدم هى لحمة الإسلام التى تجعل بعضهم أولياء بعض يتناصرون ويتعاضدون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن بصيرة نيرة ، يصدر عنها المؤمنون والمؤمنات صدورا طبيعيا صدور الضوء عن الشمس . وهو إعلاء للمؤمنات لأنهن يقبلن على ذلك عن إيمان بدينهن لا عن تقليد للرجال المؤمنين . ويوصى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث أصحابه إذا جلسوا فى الطرق أن يعطوا الطريق حقه من رد السلام وغض البصر وكف

الأذى عن الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الأثيم . وقال كما فى الحديث الرابع إن من يأمر بالمعروف ولا يؤديه وينهى عن المنكر ويأتيه سيصلى نارا حامية .

ويصف الله – عزَّ سلطانه – فى الآية الرابعة المهاجرين والمسلمين بأنهم إن مكَّنهم فى الأرض وسيطروا على أجزاء منها نشروا دعوة الإسلام : من إقامة الصلاة عماد الدين وإيتاء الزكاة ركنه المتين ونفَّذوا – بقوة – قانونيه العظيمين : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما القانونان الجامعان لشئون الدين ودقائق أحكامه . وهو ما حدث فعلا فقد نشروا دعوة الإسلام وأوامره ونواهيه فى كل ما فتح الله لهم من البلدان فى عهدى أبى بكر وعمر : فى العراق وإيران بقيادة سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وفى الشام بقيادة سيف الله : خالد بن الوليد ، وفى مصر بقيادة عمرو بن العاص . ومكَّن الله لهم وللإسلام فى هذه البلدان فأقيمت فيها الصلاة وأُخْرجت فيها الزكاة وعمَّ فيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وظل ذلك دأب المسلمين كلما فتحوا أرضا شرقا حتى الهند وغربا حتى المحيط الأطلنطى ، وبذلك تحقق دائما للمسلمين والإسلام وعدُ الله العظيم .

٣٠ - بِرّ الوالدين والأقارب

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

الإسراء : ٢٣ ، ٢٤

٢ - وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ

لقمان : ١٤

٣ - وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

النساء : ١

٤ - وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ

الأنفال : ٧٥

الأحاديث

١ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم : أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قال ثم أيٌّ ؟ قال ثم برُّ الوالدين (رواه البخارى فى كتاب الأدب) .

٢ – عن أبى بكر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، قالها ثلاثا قلنا بلى يا رسول الله قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب الإيمان) .

٣ – عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم (رواه البخارى فى كتاب الأدب) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم أما ترضين أن أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت بلى قال فذلك لك (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب : باب صلة الرحم) .

جمع الله – عزَّ شأنه – فى الآية الأولى بين وصيتين أساسيتين من وصايا الشريعة الإسلامية ، وهما عبادة الله وحده لا شريك له ، وبر الوالدين ، والله كثيرا ما يقرن فى القرآن الكريم برَّ الوالدين بعبادته وطاعته تعظيما له ، حتى يرعاه الأبناء ويوفُّوهما حقوقهما عليهم ، وإذا كبر أحدهما أو كلاهما فلا تؤذهما أى أذى باللسان من مثل قول ﴿أف﴾ متضجرا ، ولا تنهرهما أو تزجرهما عن شئ ، بل أكرمهما بقول ليِّن يقع من نفسيهما موقعا حسنا . ثم يقول الله فى الآية الثانية ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ الناشئ عن الرحمة بهما تذللا كريما منك لأبويك ، وادعُ الله لهما أن يشملهما برحمته لتربيتهما لك وعنايتهما ورعايتهما لك فى صغرك بالمهد وحين كنت صبيا . وأوصى الرسول مرارا وتكرارا – كما فى الحديث الأول – ببرِّ الوالدين وسعة الإحسان إليهما وترضيتهما وإسباغ الابن كل ما يستطيع من الخير عليهما . وحذَّر مرارا وتكرارا من عقوق الابن لأبويه ، ويجعله – كما فى الحديث الثانى مثل الإشراك بالله من أكبر الكبائر ، إذ الإشراك كفران بالله الخالق الرازق والعقوق كفران بالأبوين وما أدّيا للابن من خدمات فى صغره لا تكاد تحصى ، وهو بذلك يجحد

حقوقهما عليه ، وجدير به أن يعاقبه ربه عقابا أليما فيدخله النار جزاء وفاقا لعقوق أبويه . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : لو علم الله شيئا فى العقوق أدنى من كلمة (أف) لحرَّمه ، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار . وفى الحق أن عقوق الأبوين شاذ نادر وأن الكثير الغامر هو البر بهما كما أوصى الله ورسوله ، وفى التراث العربى أخبار كثيرة عن بر عظيم للأبناء بالآباء ، فمن ذلك ان الخليفة المأمون قال : لم أر أحد أبرّ من الفضل بن يحيى البرمكى بأبيه – وكان الرشيد زجَّ بهما فى السجن – وبلغ من بر الفضل لأبيه أنه كان لا يتوضأ فى الشتاء إلا بماء ساخن ، ومنعهما السجان من الوقود فى ليلة شديدة البرودة ، فلما نام يحيى قام الفضل إلى قمقم (إناء) نحاس فملأه ماء ، وأدناه من المصباح ولم يزل قائما وهو في يده إلى أواخر الليل ، واستيقظ يحيى وقد سخن الماء ، فشكر للفضل صنيعه . وكان أحد الأبناء البررة بآبائهم واحدا من الثلاثة الذين حكى الرسول صلى الله عليه وسلم قصتهم فى مبيتهم بغار فى الجبل ، واستيقظوا فوجدوا صخرة تدحرجت من الجبل وسَدَّت بابه ، فلجأ كل واحد يدعو ربه بصالح عمله ، ومرَّ بنا كيف انزاحت الصخرة بدعاء الثلاثة ربهم بصالح أعمالهم . وكان دعاء الابن البار : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أسقى زوجتى وأولادى من اللبن مساء حتى أسقيهما أولا ، وتأخرت ليلة فوجدتهما نائمين ، فلبثت – وقدح اللبن على يدى – أنتظر استيقاظهما حتى بَرَق (أضاء) الفجر ، فاستيقظا فشربا اللبن . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت سيئا وكان أول الثلاثة دعاء .

ويقول الله – جَلَّ شأنه – فى آية سورة لقمان إنه وصَّى الإنسان بوالديه كى يقدِّم لهما كل ما يستطيع من بر وخير جزاء لما تحملا من مشقة فى تربيته حتى بلغ أشده ، ويكتفى الله فى تصوير مشقتهما بتصوير ما تتحمله الأم فى حمل ابنها من ضعف طاقتها على هذا الحمل ، ويتلطف الله فيقول إنها تحمله وهنا على وهن أى ضعفا على ضعف (وفصاله) أى فطامه ﴿فى عامين﴾ . وما أعظم ما تتحمله الأم فى ذلك كله من عناء مع الشفقة الشديدة على رضيعها ذكرا أو أنثى . ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم البر بها فى حديثه المشهور الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة من أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صُحبتى ؟ قال : أمك ، قال الرجل ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، فال ثم من ؟ قال أبوك . وليس تكرار اسم الأم

فى الحديث لبيان فضلها على الأب وإنما لتأكيد البر بها ، ويكفيها فضلا وفخرًا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال إن الجنة تحت أقدام الأمهات . ويُروَى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إن لى أما بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية ، فهل أديت حقها ؟ قال عمر : لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها .

ويقرن الله – تبارك اسمه – فى آية سورة النساء تقواه بتقوى ذوى الأرحام تأكيدا لأداء حقوقهم ، والأرحام جمع رحم ، وأصله مستقرّ الولد فى بطن أمه ، ثم أطلق على القرابة سواء نشأت عن أمومة واحدة أو لم تنشأ ، ومن ذلك قولهم وصلتك رحم أى قرابة . وتؤكد آية سورة الأنفال هذا الوصل وأن لذوى الأرحام حقوقا مبينة ﴿فى كتاب الله﴾ أى فى سورة محمد يقول – جلّ شأنه – : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطّعوا أرحامكم . أولئك الذين لَعنَهم الله فأصمَّهم وأعمىٰ أبصارهم﴾ والله فى الآيتين يجعل تقطيع الصلات بين الأرحام أو القرابات جرما كبيرا يوصف صاحبه بالعمى والصمم لأنه يقطّع الأواصر التى توثق المحبة بين الأقارب أو بين أفراد الأسرة ، وهى محبة أو مودة لا يريدها الله لأفراد الأسرة الأقارب فحسب ، بل لأفراد الأمة جميعا عن طريق ترابطهم بإخاء دينى وثيق . والأحاديث مثل الحديث الرابع كثيرة فى صلة ذوى الأرحام صلة بارّة حميدة وأنها طريق قويم للجنة ومتاعها الخالد .

٣١ – حقـوق المرأة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

النساء ١

٢ – ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

النساء ١١

٣ – ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾

النساء ٣٢

٤ – ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

الروم ٢١

الأحاديث

١ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوجَ ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء (رواه البخارى فى بدء الخلق والزواج ومسلم فى الزواج والنسائى فى عشرة النساء) .

٢ – عن ابن عباس : كانوا فى الجاهلية يُعطون مال الميت للولد ، ولا يورِّثون المرأة ولا البنت ولا الصبى إنما يعطون المال لمن قاتل على الفرس وحاز الغنيمة . وعنه : كان الرجل فى الجاهلية إذا مات ورث زوجَته أولياؤه فإن شاء بعضهم زواجها تزوجها أو زوجوها لمن يشاءون (أخرج ذلك البخارى ورواه ابن كثير) .

٣ – عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق (رواه أبو داود فى السنن بأبواب الطلاق) .

٤ – عن عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الأمير راع وهو مسئول ، والرجل راع على أهله وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول (رواه البخارى فى كتاب الأحكام) .

الخطاب فى الآية الأولى للناس جميعا فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده ﴿اتقوا ربكم﴾ أى احذروا عذابه وأدُّوا له عبادته وحده لا شريك له ، فهو ﴿الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ . والمفسرون للقرآن الكريم يجمعون على أن المراد بالنفس الواحدة آدم أبو البشر جميعا ﴿وخلق منها زوجها﴾ والمراد حواء ، ويقول المفسرون إنها خلقت من ضلع آدم بدلالة قوله تعالى : ﴿منها﴾ وحين رآها أنس إليها وأنست إليه . والزوج يطلق فى تكوين الأسرة على الرجل والمرأة وقد تضاف لها تاء التأنث تمييزا من الرجل . والله – جل شأنه – يشير فى الآية إلى تكوين الأسرة الإنسانية الأولى وأنها من زوج وزوجة أو من أب وأم وهما مختلفان تشريحيا وفسيولوجيا من أجل التناسل والإنجاب ، إذ المرأة تحمل الجنين تسعة أشهر وترضعه نحو سنة ونصف ، وهما دوران خاصان بالمرأة تتميز بهما ، بينما يتميز الرجل بأنه أكثر منها قوة وتحملا للعمل ، ولذلك من الظلم للمرأة أن يقال إنها والرجل متماثلان . وهو ما جعل القرآن والسنة يعطفان عليها مع دعوة الرحل للشفقة عليها

كما جاء فى الحديث الأول من توصية الرجال بالنساء فى المعاشرة ، وأن يقبلوا ما قد يكون فى المرأة من اعوجاج لأنها مخلوقة من ضلع أعوج ، وأعوج ما فى الضلع أعلاه إشارة إلى لسانها وما قد يند عنه من ألفاظ نابية ، وأن يُغفر لها ذلك ، فإن الرجل إن حاول أن يقيمها كان مثله مثل من يحاول تقويم اعوجاج من ضلع ، فإنه لن يستطيع تقويمه ، فينبغى أن يصبر على اعوجاجها حتى تستمر عشرتها وحتى لا يؤدى شقاقهما إلى الفراق والانفصال . وتشير الآية الأولى بخلق حواء من آدم إلى ما ينبغى أن يكون بين الزوجة والزوج من التجانس وعدم الشقاق ، كما تشير إلى الغاية من تكوين الأسرة وهى التناسل لاستمرار الإنسان على الأرض ، إذ قال – تبارك اسمه – (وبث منهما) أى من آدم وحواء (رجالا كثيرا ونساء) كثيرات ونشرهم فى أنحاء الأرض على اختلاف أنواعهم وأممهم وألوانهم ولغاتهم وقدَّر لهم معايشهم وأحوالهم وأسبغ عليهم نعمه وآلاءه .

والآية الثانية فى ميراث الذكر والأنثى وأن للذكر مثل حظ الأنثيين ، وكانوا فى الجاهلية لا يورِّثون الأنثى مطلقا زوجة أو غير زوجة كما يدل كلام ابن عباس ، بل كانت الزوجة إذا مات زوجها تورث كأى شئ من متاعه ، فنظَّم القرآن الميراث فى الأسرة فجعل للذكر والأنثى حقوقا . وحقا جعل نصيب البنت – كما تقول الآية – النصف من نصيب الابن ، لأن الابن يحتاج إلى الزواج ويدفع صداقه للزوجة من نصيبه فى الميراث ، ولأنه هو الذى يقوم بنفقة أسرته : زوجته وأبنائه ، وليس على الزوجة شئ من ذلك مهما كانت ثرية ، وأيضا عليه الإنفاق على والديه وإخوته وأقاربه إن كانوا محتاجين ، مما يجعل على الابن التزامات أسرية مختلفة . فليس الغرض من تفرقة القرآن الكريم بين الذكر والأنثى فى الميراث التفرقة فى الحقوق بل تنظيم هذه الحقوق فى الأسرة . وقد يقال إن الإسلام لم يسوِّ بين الرجل والمرأة فقد أباح للرجل أن تتعدد زوجاته ، فيتزوج اثنتين أو ثلاثا أو أربعا ، وهو إنما صنع ذلك لأن الأمم تتكاثر بينها الحروب ويموت كثير من الرجال ، كما كان شأن العرب فى الجاهلية فيربو عدد النساء ثيبات وأبكارا على عدد الرجال ،فإن لم توجد هذه الرخصة جرَّ ذلك إلى فساد اجتماعى كبير ، وأيضًا قد تمرض الزوجة بمرض مزمن . ونفس بعض الدول التى لا تسمح بتعدد الزوجات يكثر فيها الأولاد غير الشرعيين ، فدرءا لمفاسد كثيرة أباح الإسلام تعدد الزوجات واشترط عدالة الأزواج بينهم قائلا فى مطلع سورة النساء : ﴿فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة﴾ فقط ثم قال فى نفس السورة ، محذِّرا من تعدد الزوجات :

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ وكأن الله يجعل التعدد للضرورة . وقد يقال إنه لم يسوِّ بين المرأة والرجل فى الزواج والطلاق ، فحرَّم على المرأة أن لا تتزوج إلا عن طريق أبيها أو وليها الشرعى ، وذلك إنما يصدق على ناقصة الأهلية عقلا أو سناً وبلوغا ، أما المرأة العاقلة البالغة فمذهب أبى حنيفة الفقهى المعمول به فى المحاكم المصرية جعل لها أنْ تزوِّج نفسها وتستقل بعقد الزواج كما تستقل بعقد البيع والشراء فى أموالها . ويقولون إن الإسلام أباح للرجل الطلاق وحده ، وهذا أيضا غير صحيح فالمرأة لها حق الطلاق مثل الرجل ، وقلما تطلب المرأة الطلاق حفاظا على الأسرة ، فظُنَّ أنه حق للرجل . وقد ألزمه القرآن والسنة بحقوق مختلفة حين يعمد إلى الانفصال عن زوجته ، وهى مبيَّنة فى سورتى البقرة والطلاق . وحاول الله أن يفسح للزوجين فى العودة إلى معاشرة كل منهما الآخر ، فجعله مرتين ومع كل مرة عِدَّة من الأيام والأسابيع والأشهر لعلهما يصطلحان ويحبِّبهما الله فى الصلح قائلا : ﴿والصلح خير﴾ ومن قوله فى ذلك للرجال بسورة النساء : ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

وقد سوى القرآن بين المرأة والرجل فى الفروض والحقوق الدينية من صلاة وزكاة وصيام وحج ومن ثواب ونعيم فى الجنة ، يقول جَلَّ شأنه فى سورة غافر : ﴿ومَن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يُرزقون فيها بغير حساب﴾ . وسوى القرآن بين الرجل والمرأة فى المسئولية الاجتماعية والسياسية بمثل قوله فى سورة التوبة : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فى صلاح الأمة اجتماعيا وسياسيا . وسَوَّى الإسلام بين المرأة والرجل فى العلم والتعليم فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرس لسبدات المدينة شئون دينهم ، وكن يروين عنه أحاديثه وفى مقدمتهن السيدة عائشة زوجة الرسول . واشتهرت محدثات كثيرات حمل عنهن الحديثَ النبوى أئمةٌ كبار ، وظلت المرأة المسلمة تُقْبل فى العصور الإسلامية على العلم والتعليم حتى كان منهن طبيبات حاذقات .

والآية الثالثة فى تمنى ما فى أيدى الناس من أموال عن طريق الميراث أو غيره سواء كانوا رجالا أو كُنَّ نساء ، والله – جلَّ شأنه – ينهى المؤمنين والمؤمنات عن هذا التمنى الذى

يصعب أو يستحيل حصوله ، تنزيها لهم وارتفاعا بهم عن أن يشغلوا نفوسهم بما قد يفسد علاقاتهم بعضهم بعض ، وقد يجرهم إلى التحاسد والبغضاء . ويقول الله - جلَّ شأنه - ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ وهو بذلك يسوِّى بين الرجل والمرأة فى حق التملك لما اكتسباه من عمل قاما به . ويتبع هذه المساواة بين المرأة والرجل أن تستقل اقتصاديا عن زوجها ، فتكون لها ثروتها الخاصة ، ولها أن تشترى وتبيع وتتَّجر وأن ترفع إلى القضاء خصوماتها ، كل ذلك دون أخذ إذن زوجها وموافقته . ولكل هذه الحقوق المكفولة للمرأة المسلمة كانت لا تفقد اسم أبيها وأسرتها فى الزواج ولا يضاف اسم زوجها إليها على نحو ما هو معروف فى الغرب ، بل تظل تحتفظ باسمها الشخصى ، مما يدل - بوضوح - على اكتمال حريتها فى التصرف بأموالها وشئونها الاقتصادية . ويقول الله - تبارك اسمه - بعد نهى المسلمين عن التطلع إلى ما فى يد المرأة أو الرجل من مال : ﴿ واسألوا الله من فضله﴾ أى سلونى من فضلى أعطكم ما تسألون ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج من الله ، وهو عليم بمن يستحق من الدنيا فيعطيه منها ، وبمن يستحق من الآخرة فيوفقه لأعمالها الصالحة .

ويصور القرآن الكريم الصلة الوثيقة بين الزوجين بقوله تعالى : ﴿هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن﴾ أى أنهما يبلغان من شدة الصلة الطيبة أن يكونا شخصا واحدا ، فكل منهما لباس للآخر يغطيه ويستره كما يستره اللباس ، فلا يخونه ولا يذيع سرَّه ، حين يفضى إليه بسريرة نفسه وهمومه ، فبينهما إخلاصٌ حميم . ويصف الله هذا الإخلاص بقوله فى الآية الرابعة ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ والله يمتنُّ على الناس بأنه خلق لهم من أنفسهم أى من نوعهم زوجات يأنسون إليها ، وسرعان ما تصبح الزوجة للزوج كأنها سكن يطمئن له ، فيفضى إليها بما يشغله وبخواطره وأفكاره ويستشيرها فى كل شئونه . ويضيف الله إلى ذلك المودة التى تنشأ بين الزوجين والمحبة إذ يصبحان بعد الزواج متحابين متوادِّين ، ويضيف الله أيضا أنه جعل بينهما رحمة ورأفة كرأفة الأبوة والأمومة . وكل هذه نعم عظمى يسبغها الله على الزوجين ليشعر كل منهما بواجباته لعشرته الصادقة وحقوقها فى القيام على الأسرة ورعاية مصالحها ورعاية الأبناء خير رعاية . ويوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الرعاية فى الحديث الرابع إذ يقول : الرجل راع على

أهل بيته ينفق عليهم ، ويقول الله : ﴿لينفق ذو سَعة من سعته ومَن قُدِر﴾ أى قُتِّر ﴿عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله﴾ . ويذكر الرسول وجوه الإنفاق فى حديث قائلا : دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى تحرير رقبة ودينار تصدَّقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك : فأجرُ النفقة على الأهل عند الله أكبر من أجر نفقةالصدقة على المساكين وأكبر من أجر النفقة فى سبيل الله وحرب الأعداء ، وهو حث عظيم لنفقة الزوج على أسرته من الزوجة والأبناء . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع : المرأة راعية على بيت زوجها وولده ، تقوم على تدبير المعاش فيه وعلى تربية الأبناء تربية قويمة . وكل ما قدمت واضح الدلالة على أن الإسلام – منذ أربعة عشر قرنا – أعطى المرأة حقوقا كثيرة تجعلها تصعد درجات فى مساواتها مع الرجل ، وكثيرمن هذه الحقوق وخاصة حقوق التملك والاحتفاظ بشخصيتها بعدالزواج لا تزال تفقدها – فى عصرنا – المرأة الغربية ، مع رعاية الإسلام التامة للحياة الزوجية والعائلية وأن تسودها المودة والمحبة والرحمة والرأفة .

٣٢ - الإخاء

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

الحجرات ١٠

٢ - وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

التوبة ٧١

٣ - مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ

الفتح ٢٩

٤ - يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾

الإنسان ٧ ، ٨

٥ - وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

الحشر ٩

الأحاديث

١ – عن أبى موسى الأشعرى : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الأدب) .

٢ – عن النعمان بن بشير : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الأدب) .

٣ – عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فَرَّج عن مسلم كُرْبة فرَّج الله عنه بها كربة من كُرَب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (رواه مسلم فى كتاب الأدب روى بعضه البخارى فى كتاب الإكراه) .

٤ – عن أنس : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان) .

٥ – عن أبى هريرة : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء) .

والله فى الآية الأولى يذكر أخوَّة المسلمين ، ويجعل واجبا على كل مسلم أن يستشعرها إزاء أخيه وإخوته فى الدين الحنيف . وهى أخوة تعقد بين المسلم وصاحبه حقوقا وواجبات كواجبات الأخوَّة الحقيقية بين الأشقاء وحقوقها ، وكأنها تربط بين المسلم والمسلم بنسب فى الدين كالنسب فى الأبوة ، ويوضح ذلك قول عمر بن الخطاب لامرأة شكت إليه حاجة أولادها وقالت إن زوجها شهد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عُمْرة الحديبية ، فقال عمر رضى الله عنه : « مَرْحَبًا بنسب قريب » يريد النسب فى أخوة الإسلام ويراه أقرب من النسب الحقيقى ، وقضى للمرأة حاجتها مطيبا خاطرها . وبحق يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فهما بنيان واحد تشده هذه الأخوة الوثيقة وتمسكه – مادامت – فلا يخر ولا يسقط منها شىء . ويقول الله فى الآية الثانية إن المؤمنين والمؤمنات ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أى أن بينهما ولاية أخوة توجب الإخلاص والتعاون بينهما ويصفهم – جل شانه – بأنهم يأمرون بالمعروف المندوب له فى الشريعة من وجوه الخير وينهون عن المنكر المنهى عنه من وجوه الشر .

والآية الثالثة تصف المسلمين بأنهم أشداء على الكفار لا يلينون لهم أى لين ، كما قال تعالى . ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ . ويقول ﴿رحماء بينهم﴾ أى أنهم يستشعرون العطف والحنو والبر والرأفة ، وصور ذلك الرسول – صلّى الله عليه وسلم – تصويرا رائعا فى الحديث الثانى إذ قال مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء وتجمعت بالسهر والسهاد والحمى والألم له . ويكثر الرسول – صلى الله عليه وسلم – من دعوة المسلم للرحمة بأخيه المسلم ، ومن قوله فى صحيح البخارى ومسلم : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » وفى صحيح البخارى : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فقال رجل يا رسول الله أنصره إن كان مظلوما أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال « تحجزه – أو تمنعه – من الظلم فإن ذلك نصره » . وكان لايزال يوصى المسلم أن يرعى حقوق أخيه المسلم الاجتماعية ، من ذلك قوله : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتّباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » بقولك له يرحمك الله .وفى رد السلام يقول الله عز شأنه : ﴿وإذا حُيِّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رُدُّوها﴾ . وفى عيادة المريض يقول الرسول : « إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل فى جَنَا الجنة (رواه مسلم) أى أنه يثاب ثوابا عظيما . وكان يدعو إلى اتباع الجنائز مؤازرة لأهل الميت . كما كان يدعو إلى إجابة الدعوة مهما كان الداعى فقيرا . وكان لايزال يوصى المسلم أن يلقى أخاه بوجه طلق وبالبشر وبالكلام اللطيف ومن قوله : « الكلمة الطيبة صدقة (رواه البخارى ومسلم) . وكان الرسول لا يزال يوثق الصلات الاجتماعية والسلوكية بين المسلمين مؤكدا أن كل عمل يؤديه المسلم لأخيه المسلم يثاب عليه ، ويقول كما فى الحديث الثالث : « مَنْ كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » ويقول من فرج عنه كُرْبة أى غما من شىء نزل به فَرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . وكان يدعو دائما إلى أن يستر المسلم أى عيب يجده فى أخيه ويجعل ثواب ذلك ستر الله له يوم القيامة .

والآية الرابعة تصف المسلمين بأنهم يطعمون الطعام – مع اشتهائهم له – مسكينا محتاجا ويتيما لا عائل له وأسيرا حتى لو كان مشركا يقول ابن كثير فى تفسير الآية عن ابن عباس : كان الأسراء يومئذ مشركين ، ويشهد لهذا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى . ومعروف أن الإسلام دعا دعوة واسعة فى القرآن

الكريم والحديث النبوى إلى الإنفاق فى سبيل الله وجعل الزكاة فريضة كبرى ، ودعا الأغنياء إلى هبة أموالهم للفقراء والمساكين من المسلمين تقربا إليه وزلفى ، وسمىَّ ذلك قرضا حسنا وأنه يضاعفه لصاحبه أضعافا كثيرة . وبذلك شرع القرآن – ومعه السنة النبوية – العدالة الاجتماعية فى الأمة الإسلامية ، إذ جعلا للفقراء والمساكين حقا معلوما فى أموال الأغنياء ، حقا دينيا ، فالغنىّ لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضا لأمته ، ويترابط معها ترابطا اقتصاديا كما يترابط اجتماعيا وسلوكيا .

والآية الخامسة فى أخوة الأنصار للمهاجرين ، وكانوا قد أسكنوهم فى أول هجرتهم معهم فى بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم ، ويقول الله إنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ أى شدة احتياج ، وهو نبل فى الأخلاق ذكرت فيه قصص وأخبار كثيرة عن الصحابة وتآخيهم ، ومن ذلك ما يُرْوَى عن حذيفة العدوى قال : انطلقت يوم اليرموك الذى سُحق فيه الروم أطلب ابن عم لى بين شهداء المعركة من المسلمين ومعى شيىء من الماء ، فإذا أنابه فقلت له أسقيك فأشار برأسه أن نعم فإذا بعكرمة بن أبى جهل يقول آه آه فأشار إلىّ ابن عمى أن أنطلق بالماء إليه فجئت إليه ، فقلت أسقيك فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول آه آه فأشار أن أنطلق إليه ، فجئت إليه فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى عكرمة فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو أيضا قد مات . وهى صورة رائعة للإيثار ، فكل من الثلاثة كان مثقلا بالجراح وهو فى أشد الحاجة إلى الماء ،ومع ذلك كان يرده إلى أخ جريح آخر يتأوه ، ولم يشربه أحد منهم وماتوا جميعا ، رضى الله عنهم وأرضاهم . وواضح مما قدمت كيف أن القرآن الكريم والسنة النبوية بثا فى روح المسلمين أخوة بارة فى الدين الحنيف ، وهى أخوة كان يرعاها الله ويتعهدها بشهادة الحديث : « كان الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » بل إنه ليحب له كما جاء فى الحديث الرابع ما يحبه لنفسه . وبهذا الإخاء الصادق والأخوة الجماعية المخلصة استطاع الصحابة أن ينشروا دينهم الحنيف وتعاليمه السمحة فى إيران والعراق والشام ومصر وأن يكوِّنوا دولتهم الإسلامية فى سنوات معدودة .

٣٣ - المساواة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾

النساء : ١

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾

الحجرات : ١٣

الأحاديث

١ - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله أذهب عنكم عَبِيَّة[١] الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس : مؤمنٌ تقيٌّ أو فاجر شقيٌّ ، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب (رواه الترمذى) .

٢ - من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع :

أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسودَ على أحمرَ ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .

٣ - عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمَّتهم المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا خشية إقامة الرسول لحد السرقة عليها من يكلِّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن

---

(١) عبية : تعاظم .

يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلّم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال له : أتشفع فى حدٍّ من حدود الله ؟ ! ثم قام فخطب فقال يا أيها الناس إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحدَّ ، وايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الحدود) .

والآية القرآنية الأولى تقول إن الله خلق الناس من نفس واحدة هى آدم وزوجها حواء ، ونشر منهما رجالا كثيرا ونساء فى أقطار العالم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم . والآية تدعو الناس جميعا إلى أن يؤدوا لله حق خلقه لهم وتناسلهم فيتقوه ويؤمنوا بالله ورسوله ، ويتبعوه . وإن اشتراك الناس فى أصل واحد وأب واحد لحرىّ أن يجعلهم يحسُّون أنهم جميعا سواء فى الأصل والنسب ، فلا شريف ومشروف ولا سيد ومسود ، فتلك مشاعر جاهلية عفَّى عليها الدين الحنيف ، ولذلك يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – حديثه الأول : أن الله محا عن المسلمين الزهو بالآباء والفخر بالأنساب ، وما هم إلا فريقان :فريق مسلم تقى يصدع بأوامر الله ونواهيه وفريق فاجر شقى كفر بخالقه . ويعلل الرسول لهذا التسوية بين الناس جميعا فأبوهم واحد ، هو آدم ، وآدم خلقه الله من تراب ، فلا داعى لصلف ولا لكبر ولا لشعور أحد باستعلاء على أحد .

والآية الثانية تحضّ على المساواة بين أفراد النوع الإنسانى فى جميع البقاع ، فهم جميعا لأب واحد هو آدم وأم واحدة هى حواء ، ويقول الله إنه جعلهم شعوبا وقبائل ، ليتعارفوا لا ليتنافروا ولا ليتفاخروا ولا ليتطاول بعضهم على بعض ، وإنما ليعرف كل شخص فضل ربه ونعمه عليه ويعبده حق عبادته ويتقيه ، فلا تفاضل بين شعب وشعب وقبيلة وقبيلة وفرد وفرد إلا بفضيلة جديدة هى الإيمان بالله ورسوله ، وتقوى الله حق تقواه ، فهى العنوان الإسلامى الجديد للتفاضل وأن الأفضل عند الله والأكرم والأشرف هو الأتقى المتصف بهذا الكمال الربانى . ويجعلها الرسول فى خطبته بحجة الوداع مدار الفضل بين أفراد المسلمين من كل الأجناس والألوان ، إذ يعلن لأمته أنه لا فضل فيها لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . وبذلك جعل الإسلام المساواة بين الناس جميعا قانونا إسلاميا خالدًا ، فالجميع متساوون سواء أكانوا عربا أو غير عرب ، وسواء أكانوا سودا (حتى لو كانوا

زنوجا) أو غير سود ، وسواء أكانوا حمرا أى بيضا أو غير بيض . وهذا هو التفسير الحقيقى لقيام الإمبراطورية الإسلامية الضخمة سريعا من الهند إلى المحيط الأطلنطى ، إذ كان المسلم – فى كل تلك الأنحاء – يشعر بمساواة حقيقية بينه وبين جميع الناس فى كل مكان .

والحديث الثالث تطبيق عملى لحدود الله على الشريف وغير الشريف دون أى تمييز أو أى مراعاة لشرف أو لمكانة عشيرة أو أسرة ، فقد سرقت امرأة قرشية من عشيرة بنى مخزوم ذوى المكانة الرفيعة فى قريش ، وشعر أهلها وغير قليل من قريش بهمٍّ لا يماثله هم إن طبَّق الرسول – صلى الله عليه وسلم – عليها حد الشريعة وقطع يدها وعاشت مقطوعة اليد . فوسَّطوا له أسامة بن زيد أملا فى أن لا يوقع عليها الحد . ولم يكد الرسول يسمع منه وساطته فى تلك المرأة حتى بادره منكرا عليه شفاعته لها قائلا : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ! ثم قام فخطب فى أهل المدينة قائلا إنما أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا يميِّزون فى حد السرقة وما يماثله ، فإن اقترف السرقة شريف لم يقيموا حدَّ الله عليه ، وإن اقترفها ضعيف أقاموا عليه الحدَّ ، ويقسم لو أن ابنته السيدة فاطمة رضى الله عنها سرقت – معاذ الله – لأقام عليها الحد وقطع يدها . إن عهد التمييز بين الشرفاء وغير الشرفاء انتهى فى الشريعة الإسلامية إلى غير رجعة ، وحلَّ مكانه عهد مساواة بين المسلم وأخيه المسلم فى كل شىء : فى الحدود وغير الحدود .

وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يطبق هذه المساواة على نفسه بينه وبين المسلمين تطبيقا دقيقا ، من ذلك أنه كان ينقل اللَّبِن المضروب من الحجارة فى بناء أول مسجد بالمدينة ، ومن ذلك أنه فى غزوة الخندق المشهورة شارك أصحابه فى حفر الخندق حول المدينة حتى يمنع جيش قريش من دخولها . وشاع فى المدينة ذات ليلة أنه يُسْمَعُ صوت لغارة بعض المشركين ، فركب فرسا عاريا لأبى طلحة ليس عليه سرج ، وتقلد سيفا ، وسبق الناس إلى الصوت ، وأوغل نحو الصوت ، ولم يجد أحدا ، فعاد يطمئن الناس ويقول : لن تراعوا لن تراعوا . ويروى أنه كان فى سفر مع جماعة من أصحابه ، فأمرهم بإعداد شاة للطعام ، فقال صحابى : يا رسول الله علىَّ ذبحها ، وقال ثان : يا رسول الله علىَّ سَلْخُها ، وقال ثالث : يا رسول الله علىَّ طبخها ، فقال

رسول الله– صلى الله عليه وسلم – : وعليَّ جمع الحطب والوقود ، فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد علمت أنكم تكفونى ولكن أكره أن أتميَّز عليكم . وبلغ من إحساس الرسول صلى الله عليه وسلَّم بالمساواة بينه وبين الناس أنه كان يشارك أهل بيته وخدمه فى العمل ، فكان يخيط ثوبه ، ويخصف نَعْله ، ويحلب شاته ، ويعقل بعيره ، ويكنس بيته ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع خادمه .

وبلغ من إحساس الرسول صلى الله عليه وسلم بالمساواة بينه وبين الناس وعمقها فى فؤاده أنه كان يقص من نفسه لأصحابه ،ومما يروى من ذلك أنه كان يقسم شيئا فأكبَّ عليه رجل ، فغمزه – ليدفعه عنه – بِعُرْجون[1] نخل كان معه . فصاح الرجل ،فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : تعال فاستقِدْ ، طالبا إليه أن يقتصَّ لنفسه منه هذه الغمزة ، فابتسم الرجل ، وقال : عفوت يا رسول الله . ويروى أن عمر بن الخطاب خطب فى خلافته ، فقال : ألا من ظلمه أميره فليرفع إلىّ ذلك أُقيده منه ، فقام عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين لئن أدَّب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصَّنَّه منه ؟ قال عمر : كيف لا أقصُّه منه ، وقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقصُّ من نفسه . وفى كل ما ذكرت ما يصوِّر كيف أن القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الرسول ، كل ذلك ثبَّت مبدأ المساواة بين أفراد المسلمين منذ أربعة عشر قرنا بينما لا تزال الولايات المتحدة إلى اليوم تتعثَّر فى هذا المبدأ ، لإنسانى القويم بين سكانها من السود والبيض .

(١) العرجون : ما يحمل الثمر ، والمراد طرفه

٣٤ - العمل

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

البقرة : ٢٥

٢ - وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

الأعراف : ١٠

٣ - نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا

الزخرف : ٣٢

٤ - فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

الجمعة : ١٠

٥ - إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

الكهف : ٧

الأحاديث

١ – عن المقدام بن معد يكرب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أكل أحد طعاما قَطّ خيرا من أن يأكل من عمل يده (رواه البخارى فى كتاب البيوع) .

٢ – وقال صلى الله عليه وسلم : إن اللهيحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس (روته كتب التفسير) .

٣ – عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم أحْبُله ، ثم يأتى الجبل ، فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه ، خيرٌ من أن يسأل الناس : أعطوه أو منعوه (رواه البخارى فى كتاب الزكاة وكتاب البيوع) .

٤ – عن جابر : ما من مسلم يغرس غَرْسًا إلا كان ما أُكل منه له صدقة ، وما سُرِقَ منه له صدقة ، وما أكل السَّبعُ منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يَرْزَؤُه (يأخذ منه) أحد إلا كان له صدقة (رواه مسلم فى كتاب المساقاة) .

والله يقول لرسوله فى الآية الأولى أخْبِرْ خبرا سارا الذين آمنوا بشريعتك وعملوا الصالحات جمع صالحة أى الأعمال الحسنة من العبادات وأوامر شريعتك ونواهيها وعمل كل ما فيه خير ، أخبرهم بأن الله أعدَّ لهم فى الآخرة نعيما دائما : جنات تجرى خلالها مياه الأنهار ، فتضفى عليها بهجة لا تماثلها بهجة . ودائما فى القرآن الكريم لا يذكر المؤمنون إلا ومعهم العمل الصالح ، وكأن هذا العمل هو الإيمان نفسه ، فلا إيمان بدون عمل صالح ، وبالمثل لا جنة بدون عمل من عبادة الله وتوحيده وأداء فروضه العملية من الصلاة والصيام والزكاة والحج .

والإسلام – بذلك – دين يقوم على العمل فى العبادة وكسب العيش . ويلفت الله – جَلَّ شأنه – مرارًا وتكرارا ، كما فى الآية الثانية ، إلى أنه مكَّن الإنسان وجعله قادرا على التصرف فى الأرض بشقها وإلقاء البذور فيها ورعايتها حتى تؤتى ثماراها وأكلها ، ولم يمكِّنه منها برا فقط بل مكنه منها أيضا بحرا وما تحمل السفن فيه من الناس ومن عروض التجارة . ولم يمكن الله الإنسان فى الأرض من مختلف الأعمال بها فقط ، فقد اتسع أيضا فى الأرض بمجتمعات المدن ،مما آذن بكثرة الأعمال فيها ، وبالتالى بكثرة المعايش ، إذ يصبح لكل

شخص فيها عمله : وبالتالى معيشته وما يجنيه من كسب ينفق منه على مسكنه وملبسه ومأكله أو طعامه وشرابه .

ويقول الله فى الآية الثالثة إنه قسم بين الناس معيشتهم وقدَّرها ببالغ حكمته إذ جعل منهم أغنياء وفقراء وزراعا وصناعا وتجارا ، وتختلف الزراعات والصناعات والتجارات باختلاف من يزاولونها اختلافا يقوم عليه نظام الحياة ، فكلٌّ وما يرغب فيه أو يهواه ، فهذا بستانى وذاك مزارع أو فلاح ، وهذا صانع سيارات وذاك صانع أفلام إلى غير ذلك من مختلف الصناعات ، وهذا تاجر أقمشة وذاك تاجر خردوات أو غير ذلك من أنواع التجارات ، وهذا عامل بناء وذاك عامل فى الميناء إلى ما لا يحصى من أنواع الأعمال . ويقول – جلّ وعزّ – إنه رفع بعض الناس فوق بعض درجات وجعل بعضهم مسخرا لبعض ومحتاجا إليه ، ومن هنا قالوا إن الإنسان مدنى أى أن أفراده محتاجون إلى أن يتعاونوا جميعا فى شئون حياتهم ، مما جعلهم يتعارفون وينتظمون – من أجل حاجة بعضهم إلى بعض – فى جماعات صغرى ، فتكون القبيلة وكبرى فتكون المدينة وجماعات أكبر فيكون الشعب أو تكون الأمة .

وإذا كانت حياة الأمة تقوم على عمل مقسوم لكل فرد حسب رغبته أو هواه فإن الإسلام وثّق هذا العمل إذ جعله فرضا على كل مسلم فى أداء صلاته وزكاته وصيامه وحجه ، ويأمر الله المسلمين – بعد أداء صلاتهم – أن ينتشروا فى الأرض برا وبحرا كما فى الآية الرابعة ابتغاء فضل الله وما يعود به عليهم من الكسب لمعايشهم . ويدعو الرسول دعوة حارة إلى الحض على السعى فى طلب الرزق حتى لا يكون المسلم عالة على غيره . وهو – فى الحديث الأول – يجعل طعامه من عمل يده أمتع وألذ من أى طعام يطعمه من عمل غيره ، إذ يأكل مما كسبته يداه لا مما كسبته أيدى آخرين مهما كانوا أقرباءه أو أصدقاءه . ويهتف الرسول فى المسلمين : إن الله يحب أن يحترف المسلم مهنة – كما فى الحديث الثانى – حتى تغنيه وتكفيه عن سؤال الناس . ويعد الرسول سؤالهم مذلة ما بعدها مذلة ، حتى ليقول فى أحاديث متعددة له : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وهو ما جعل الإسلام يفرض الزكاة على الأغنياء لعون الفقراء ، وعدَّ الله الصدقة على المحتاجين قرضا حسنا له . وكأن الرسول كان لا يريد أن يرى بين أصحابه سائلا يتكفّف الناس حتى ليقول حديثه الثالث الذى كرَّره مرارا قائلا : لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره ، ويبيعها ، ويقتات بثمنها خير له من أن يسأل أحدا من الناس فيعطيه أو يمنعه . ومرارا وتكرارا يوصى الرسول صلى الله عليه

وسلم المسلم بالعمل لمنفعة نفسه ومنفعة المسلمين ، ومن ذلك قوله فى الحديث الرابع : ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة .. حتى ما يأكله سارق أو حيوان أو طير .

وكما كان يوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه العمل كان يمقت فى الشخص البطالة والقعود عن العمل وعن السعى على عياله : ومن قوله : « مَنْ طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة وسعيا على عياله لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر » . وتبع الرسولَ الخلفاء الراشدون فكانوا ينهون بشدة عن البطالة ويدعون من حولهم إلى العمل على كسب أرزاقهم ، واشتهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أنَّ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشدد فى الرفق بالعمال وأداء أجورهم المجزية فلا تُبْخَسُ ولا تضيَّع عليهم ، حتى لو ترك عامل العمل ولم يأخذ أجره دُفع إليه دون أى نقص . ومرَّ بنا عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه حكى قصة ثلاثة رجال صالحين باتوا فى غار أو كهف فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، وبدأ بارٌّ بأبويه فانزاحت قليلا وتلاه عفيف عفة متناهية ، فانزاحت شيئا غير أنهم لا يستطيعون الخروج ، فدعا الثالث ربَّه – وهو مقصدنا من الحديث – قائلا : اللهم استأجرت أجَراء ، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الأجر الذى له وذهب ، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال : فجاءنى بعد حين ،فقال : يا عبدالله أدِّ إلىَّ أجرى ، فقلت له : كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق من أجرك ، فأخذه وابتاعه ولم يترك منه شيئا ، اللهمَّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون (روى الحديث البخارى ومسلم) .

ويذكر الله فى الآية الخامسة أنه بث فى الموجودات على سطح الأرض زينة وجمالا ، وهو يشير إلى ذلك مرارا فى القرآن الكريم ، من مثل قوله فى سورة النحل عن الأنعام : ﴿ولكم فيها جمال﴾ ويقول مرارا عن النجوم إنها تزين السماء . وكل ذلك ليغذى وينمىِّ النزعة الجمالية عند المسلمين ، وليبث فيهم المحبة لا للعمل فقط بل لإحسانه وإتقانه .

٣٥ – الصدقة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾

البقرة : ٢٦٣

٢ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ

البقرة : ٢٦٧

٣ – إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ

البقرة : ٢٧١

٤ – ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ

وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

التوبة : ٦٠

الأحاديث

١ – عن أبى ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، منهم : المنَّان بما أعطى (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٢ – عن أبى هريرة سأل رجل الرسول صلى الله عليه وسلم : أى الصدقة أعظم أجرا ؟ فأجابه أن تتصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغِنى ولا تمهل (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى) .

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبعةٌ يظلهم الله فى ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله ، وممن ذكره بين السبعة : رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن حنبل فى مسنده) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الساعى على الأَرْمَلة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وكالقائم الذى لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر (رواه كل من البخارى ومسلم فى كتاب الأدب ورواه الترمذى فى البر والنسائى فى الزكاة وابن ماجة فى التجارات) .

بيَّن الله – تبارك اسمه – قبل الآية الأولى جزاء المنفقين لأموالهم فى تجهيز الجيش المجاهد فى سبيل الله دون مَنٍّ بما أنفقوا ولا أذى للمجاهدين ، إذ لا يريدون بما أنفقوا سوى نصر الدين الحنيف ، ويعدهم اللهأن يضاعف جزاءهم على ما بذلوا أضعافا مضاعفة لأموالهم ، كحبة بُذرت فى أرض خصبة ونالها غيث فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . وأتبع الله ذلك بمن ينفقون أموالهم فى الصدقات على الفقراء والمساكين ، واستهلَّ حثه لهم على الصدقات بأن يمتنعوا امتناعا باتًّا عن إيذاء من يعطونهم الصدقات بمثل التطاول عليهم بأنهم

يطعمونهم أو لولاهم لجاعوا أو ينبغى عليهم أن يشكروهم ونحو ذلك من ضروب المن التى تؤذى من يأخذون الصدقة ، بل إن الله يقول فى مفتتح هذه الآية ﴿قول معروف﴾ أى الكلمة الطيبة ﴿خير من صدقة﴾ ملوثة أو مسممة بالأذى . والله فى ذلك يرفق بالمصدَّق عليهم ويلطف أعظم لطف ورفق حتى لا يؤذى شعورهم أى إيذاء من قريب أو من بعيد ، وكأن هذا الإيذاء موجه إليه ، ولذلك يقول إنه (غنى) عن هذه الصدقة المسممة (حليم) لا يؤذى أصحابها فى الدنيا . أما فى الآخرة فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم مصورا فى الحديث الأول غضب الله حينئذ على من يتبع صدقته منا وأذى إنه لن يكلمه يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه مثنيا عليه ، وله عذاب أليم . ويشبِّه الله مَنْ يتبع صدقته بالمن والأذى بالكافر الذى يتصدق ببعض ماله طلبا للمراءاة والسمعة عند الناس لا ابتغاء وجه الله .

والآية الثانية فى الصدقة أيضا والله – جَلَّ شأنه – يأمر عباده المؤمنين أن تكون صدقاتهم من خِيار ما كسبوا فى التجارة من الأموال ومن خيار الثمار والزروع التى أخرجها اللهلهم من الأرض ، وأن يتجنبوا أن تكون من خبيث أموالهم وزروعهم وثمارها ورديئها ، يقول الله : ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ ، أى أنكم لو أعطيتم هذا الخبيث لأبيتموه إلا أن تتغاضوا عنه ﴿واعلموا أن الله غنى حميد﴾ أى غنى عن صدقاتكم الرديئة أو الخبيثة التى لا ترضونها لأنفسكم ، ولذلك ينبغى إذا كانت الصدقة طعاما أن تكون من نفس طعام المتصدِّق وأسرته . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينى يحث أصحابه على الصدقة ، و كان يقول كل معروف صدقة وإنها وقاءٌ من النار حتى لو كانت بنصف تمرة . وعن السيدة عائشة أنها قالت له : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأعطيتها ثلاث تمرات فأعطت كل بنت تمرة ، ورفعت تمرة لتأكلها ، فلاحظت أن البنتين استطعمتا تمرتيهما ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها . فقال : إن الله قد أوجب لها بالتمرة الجنة وأعتقها بها من النار . وسأله رجل فى الحديث الثانى أى الصدقة أعظم أجرا ؟ فقال أن تتصدق بها وأنت صحيح شحيح بالملل تخشى الفقر لقلة مالك ومع ذلك تؤثر به الفقير .

والآية الثالثة تدفع وهما أن يظن المتصدق أنه لايجوز له إظهار صدقته والإعلان عنها خشية الرياء ، فجاءت تجيزه وتحمده ، مع تفضيل صدقة السر عليها حفظا وصيانة لماء وجه الفقير ، واختلف الفقهاء هل الإخفاء يعم فريضة الزكاة مع صدقة التطوع أو هو خاص بصدقة التطوع ؟ . وعلى كل حال يحسن فيهما الإخفاء ، حتى لا يطلع عليهما غير مَنْ يأخذهما حفاظا على شعوره ، وحتى لا يحسّ أنه أصابه فيهما أى خدش ، ولذلك يؤثر القرآن

الكريم أن يخفى المتصدق صدقته ، حتى لا يعلم بها – كما فى الحديث الثالث – أحد مهما كان قريبا منه ، وحتى لا تعلم شماله ما أنفقت وتصدقت به يمينه .

والآية الرابعة فى مصارف الصدقات ، وهى فيها ثمانية : الفقير وهو من لا يملك ما يكفيه لعيشه ، والمسكين وهو شديد الفقر حتى السؤال فيه والضراعة ، وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذى يطوف على الناس تردُّه اللُّقْمَة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يا رسول الله ؟ قال الذى لا يجد غِنىً يغنيه ، ولا يُفْطَنُ له ، فيُتَصَدَّق عليه ولا يسأل الناس شيئًا . والعامل على الصدقات وهو الساعى فى جمعها ، وكانت الدولة تعيِّنه لهذه المهمة فى صدر الإسلام والعصر الأموى ، وتعطيه من مال الصدقات حظا أو قسطا ، ولم يعد هذا المصرف قائما الآن . ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم بعض سادات قريش والعرب أمر الله رسوله أن يتألفهم بعد موقعة حُنَين ، حتى لا يكونوا أعداء للإسلام ورسوله ، فأعطى كلا منهم بعد قسمة الغنائم فى حنين ، مائة بعير . ولما دخل الناس فى دين الله أفواجا وبدأت انتصارات العرب على فارس والدولة البيزنطية أشار عمر رضى الله عنه على خليفة المسلمين أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – بإلغاء هذا المصرف من مصارف الزكاة ، إذ أغنى الله الإسلام وأعزَّه عن تألف هؤلاء السادة ، فوافقه على إلغائه . ﴿وفى الرقاب﴾ أى فى تحرير العبيد ، وهو مصرف لم يعد قائما فى ديار الاسلام . وبذلك تكون ثلاثة مصارف من الثمانية لم يعد لها وجود فى عصرنا ﴿ والغارمين﴾ أى المدينين ممن يعجزون عن أداء ما عليهم من الديون ، فيعطَوْن من الصدقات رحمة بهم ﴿وفى سبيل الله﴾ أى فى الجهاد ضد أعداء الإسلام وفيما يحتاجه المجاهد من الأسلحة ﴿وابن السبيل﴾ أى الطريق ، وهو الغريب المسافر المحتاج للطعام والمأوى . وللمتصدق أن يدفع صدقته إلى أى مصرف من المصارف الخمسة المتبقية . وفى نهاية الآية أن هذا البيان لمصارف الصدقات ﴿ فريضة﴾ مقدرة من الله العليم بمصالح عباده الحكيم فى أقواله وأفعاله وتشريعاته . وكان الرسول صلى الله عليه وسلَّم ما يزال يحث أصحابه على مد يد العون للمحتاجين من الأرامل والرجال من ذلك قوله فى الحديث الرابع إن من يعنى بالاكتساب للأرملة والمسكين لسد حاجتهما ثوابه كثواب المجاهد فى سبيل الله وكثواب المصلى ليل نهار وكثواب الصائم المديم لصيامه . ويقول فى حديث آخر من عال جاريتين أى قدَّم لفتاتين ما تحتاجانه من طعام وغذاء ومسكن حتى تبلغا ويظل لهما حافظا صائنا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضمَّ أصابعه أى مصاحبا لى .

٣٦ – الأمانة

القرآن الكريم
قال الله تعالى :

١ – ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾

البقرة ٢٨٣

٢ – ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾

النساء ٥٨

٣ – ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

الأعراف ٦٨

٤ – ﴿ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المؤمنون ٨

الأحاديث

٣ – قال صلى الله عليه وسلم : أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك (رواه ابن حنبل فى مسنده والترمذى وأبو داود) .

٢ – عن سمرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على اليد ما أخذته حتى تؤديه (رواه ابن حنبل وسنن أبى داود والترمذى) .

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آيات المنافق (أى علاماته) أنه إذا أؤتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٤ – عن حذيفة بن اليمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأمانة نزلت فى

جَذْر[١] قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : ينام الرجل النَّوْمَةَ فتُقْبَضُ الأمانة من قلبه .. إلى أن قال : فيُقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبَّة من خرْدَلٍ[٢] من إيمان . فذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمانَ فى موضع الأمانة (رواه البخارى فى الرقاق ومسلم فى الإيمان) .

التعبير القرآنى الأول فى آية الدَّيْن بآخر سورة البقرة ، إذ يقول الله : ﴿فإنْ أمنَ بعضُكم بعضا فليؤدِّ الذى اؤْتُمِنَ أمانته﴾ أى إنْ أمن الدائن صاحبه المدين ووثق بأمانته ، فلم يطالبه بكتابة ولا بإشهاد فإنه يجب على المدين الذى اؤتمن أن يؤدى الدين فى موعده المضروب دون أن ينقص منه أى شىء . والأمانة يراد بها الشىء من دين وغير دين المؤمَّن عليه بأن يؤدَّى فى ميقات معين . ويأمر الله بهذا الأداء وكأنه يحذر المدين من عدم الوفاء به ، لأنه عهد وثيق بينه وبين الدائن . وينبغى – لذلك – أن يوفِّى به وأن يرد الأمانة إلى صاحبها شاكرا فى موعدها المحدد . وهذا من حيث التأخر فى أداء الأمانة ، أما إن جحدها وقال للدائن ليس لك عندى شىء فإنه حينئذ – يكون قد خان الأمانة ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول يجب أن تؤدى الأمانة إلى صاحبها ، ولا تقابل السيئة بالسيئة حتى لو كان خانك فلا تخنه ، إذ خيانة الأمانة من أعظم الذنوب والآثام .

والله فى الآية الثانية يأمر المسلمين أمرا عاما بأداء الأمانات إلى أصحابها ، فمن ائتمن شخصا على شىء وأودعه عنده ليحفظه له إلى حين طلبه منه يجب أن يؤديه له دون توان أو تأخير . وذكر الواحدى فى كتابه : « أسباب النزول » أن السبب فى نزول هذه الآية – وكانت قد نزلت يوم فتح مكة – أن سِدانة الكعبة وخدمتها كانت فى الجاهلية لبنى عبد الدار القرشيين ، وطلب الرسول من أحد أفرادهم وهو عثمان بن طلحة حاجبها – فيما يقال ، وكان قد أسلم وهاجر – أن يعطيه مفتاح الكعبة ، فأعطاه له وفُتحت له فدخلها ، وخرج والمفتاح بيده ، فتطلع إليه بعض بنى هاشم لتكون سدانة الكعبة فيهم ، فدعا رسول الله عثمان بن طلحة ، وأعطاه المفتاح ، وقال لعثمان : خذوها خالدة تالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم ، ونزل عثمان عنها لابن عمه شيبة ، فبقيت سدانة الكعبة فى ذريته ، وتلا رسول

---

(١) جذر : أصل .

(٢) الخردل : حب صغير من توابل الطعام .

الله صلى الله عليه وسلم الآية : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ . والأمر بأداء الأمانات في الآية يشمل الدين عند المدين فهو أمانة عنده كما يشمل الرهن الذى يتركه المدين عند الدائن . وعادة يكون الرهن أغلى قيمة من الدين الذى رهن من أجله . والله كما يأمر المدين أن يؤدى للدائن دينه دون بطء أو تراخ يأمر الدائن أن يؤدى الرهن للمدين ولا ينكره ولا ينقص منه أى شيىء ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا عاما : على اليد أى التى تسلمت الأمانة حفظ ما أخذت حتى تؤديه تاما غير منقوص .

والآية الثالثة من خطاب هود رسول عاد إلى قومه ، وقد نعتوه بالسفاهة والكذب فقال لهم إنى إنما أبلغكم رسالات ربى إليكم ، فهو تكليف منه ولن أتراخى فى إبلاغه إليكم حتى تعبدوا الله ولا تشركوا بعبادته أى شيىء ، ﴿وأنا لكم ناصح﴾ مريد لكم كل خير ﴿أمين﴾ أى متصف بالأمانة التى تلزمنى بأداء حقوقكم وأن أعمل كل ما فيه خير لكم ، وإلا كنت خائنا لكم لا أرعى ما يجب لكم ولا أوفيكم حقوقكم . وفى تعظيم الأمانة والمؤدين لها وتقبيح الخيانة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث الثالث عن المنافق الآثم إثما عظيما إن من علاماته الدالة عليه والتى لا تتخلف أنه إذا أُعْطِى أمانةً أنكرها وجحدها وخان من أعطاها له فيها خيانة كبرى لا تغتفر له ، وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم كما يقول الرسول ، فهو ليس مسلما بحق .

وينعت الله المؤمنين فى الآية الرابعة بأنهم راعون وحافظون لأماناتهم وعهدهم يؤدون دائما حقوقهما أداء مخلصا صادقا . والوصف بالأمانة من أهم أوصاف المسلمين ، لأن المسلم لا يأكل حقا لأحد ، فضلا عن أنه لا يأكل أمانة لشخص إذ يراها نارًا تقطِّع أمعاء آكلها فى الدنيا ويصلاها فى الآخرة : جحيما حامية . ويصور الرسول شدة الأمانة على الناس وأنها قد تصعب على كثيرين من الناس فى حديثه الرابع ، فيقول إن الأمانة نزلت فى أصل قلوب الرجال ، فإن الله أودعها فى فطرتهم ، ثم نزل القرآن فأكدها كما فى الآيات التى استشهدنا بها ثم جاءت السنة النبوية فأكدتها كما فى الأحاديث المذكورة . يقول صلى الله عليه وسلم ثم أخذت ترفع من العالم ، فينام الرجل عنها ، فتقْبض من قلبه لسوء فعله إزاءها ، وتقبض من قلوب كثيرين مثله .. حتى يقال لندرة الأمناء ندرة شديدة : ظهر فى بنى فلان رجل أمين ، كأن ذلك قد أصبح ميئوسا منه ، فيقال تنويها به : ما أجلده على العمل ، ما أظرفه فى الحديث ، ما أعقله فى الرأى . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : مع ما قيل عن هذا الرجل وعن أمانته : ما فى قلبه مثقال حبّة من خَرْدَلٍ من إيمان فضلا عن الأمانة التى هى من شعبه .

٣٧ - الوفاء بالعهد

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ

المائدة ١

٢ - ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾

الرعد ٢٠

٣ - وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ

النّحل ٩١

٤ - وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾

الإسراء ٣٤

الأحاديث

١ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آية المنافق ثلاث ، وعَدَّ منها أنه إذا وعد أخلف (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان) .

٢ - عن ابن عمر وابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم : لكل غادر لواء يوم القيامة ، يقال هذه غَدرة فلان (رواه مسلم فى كتاب الجهاد والسير) .

٣ - عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامّة (رواه مسلم فى كتاب الجهاد) .

٤ – وفى اللسان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كرم العهد من الإيمان (رواه ابن منظور) .

والله – عز شأنه – يطلب إلى المؤمنين فى الآية الأولى الوفاء بالعقود ، والعقود جمع عقد ، وهو مصدر سُمِّى به ما يعقد ثم أطلق على الالتزام به من جانبين . وهى فى الآية عامة ، فتشمل العقود التى يعقدها المؤمنون بعضهم على بعض كعقود المعاملات فى البيع والشراء وغيرهما من مثل الإيجار للمنازل والحقول ومثل عقد الزواج . وكل هذه العقود تحتاج إلى إيجاب وقبول ، ولعلها المقصودة بالحديث الأول للرسول ، فالمسلم إذا تعهد لأخيه المسلم بعهد كان وعدا عليه الوفاء به فإن لم يف به كان ناقص الإيمان . وجعل الرسول ذلك علامة نفاق فيه ، بل جعله غادرا كما فى الحديثين الثانى والثالث وقال إن لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ويقال هذه غدرة فلان . وتشمل العقود فرائض الشريعة الإسلامية التى ألزم الله بها المؤمنين ، كما تشمل المصالحات والمهادنات ، فكل هذه العقود وما يماثلها يطلب الله من المؤمنين الوفاء بها ، وفى مقدمتهم حكامهم وأمراؤهم الذين يلون أمورهم ، كما يشير إلى ذلك الحديث الثالث . ويصف الله في الآية أولى الألباب والعقول النيرة من المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله الذى بيَّنه في سورة الأعراف بقوله : ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربِّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ والآية تذكر أن الله أخذ العهد على ذرية بنى آدم جميعا بالإقرار بربوبيته . ويمكن أن يكون ذلك تمثيلا لما جعل الله فى فطرة الإنسان عند تكوينها من الإيمان بوحدانيته وأنه إله الكون وخالقه . والآية الثانية تقول عن المؤمنين إنهم يوفون بالعهد أى أنهم يستجيبون لما أودع الله فى فطرتهم السليمة من الإيمان بوحدانيته ، والله يثنى عليهم بوفائهم لهذا العهد الربانى وأنهم لم ينقضوا الميثاق أى العهد الذى أخذه عليهم بما أودع فى فطرتهم من التوحيد .

ويذكر الله فى الآية الثالثة عهده للمؤمنين ، وهو يريد ما كان يبايعهم عليه الرسول من الإيمان بوحدانية الله والشريعة التى أنزلها عليه ونصرته ، وتذكر كتب السيرة النبوية بيعة العقبة الأولى حين قدم من المدينة فى موسم الحج ستة نفر والتقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ودخلوا فى دينه وفى العام المقبل جاء من المدينة اثنا عشر شخصا وبايعوه على أن لا يشرك أحدهم بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف . وأوفد الرسول معهم مصعب بن عمير يقرئهم

القرآن ، ويعلّمهم الإسلام ويفقههم فى الدين . واستدار العام ، فوفد على الرسول من المدينة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، وكانوا جميعا مسلمين ، وبايعوه بيعة العقبة الثالثة قائلين : بايعنا على السمع والطاعة فى عُسرنا ويُسرنا ومَنْشَطنا ومكرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم . وإنما أطلت فى عرض بيعات العقبة ليتضح العهد الذى كان يأخذه الرسول على من يعتنق الإسلام والذى نسبه الله إليه لأنهم دخلوا فى دينه كما قال فى سورة الفتح : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم﴾ .

ويقول الله – جلّ شأنه – فى الآية الرابعة : ﴿وأوفوا بالعهد﴾ والعهد فى الآية عام ، فهو يشمل عهد الله الذى أودعه فطرة البشر أن لا يعبدوا إلها سواه ، والعهد الذى أخذه على الأمم بأخذه على رسله أنه إن بُعث فيهم رسول مصدق لما معهم يؤمنون به كما قال : ﴿وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرى[1] قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ . والمقصود من هذا العهد على النبيين أخذ العهد على أممهم ، وأيضا البيعة للرسول بتوحيد الله واتباع دينه ونصرته ، وقد عدَّها الله عهدا له كما مرَّ . ويشمل العهد فى الآية فرائض الشريعة الإسلامية التى عهد الله بها للمسلمين وفرضها عليهم ، كما يشمل جميع المصالحات بين الأفراد والأمم وجميع ما ينعقد بين الدولة الإسلامية والدول من معاهدات ، ففى كل تلك العهود ينبغى الوفاء كل الوفاء بالتزاماتها .

ويقول الرسول فى الحديث الرابع : إن كرم العهد من الإيمان وهو يريد العهد بين الناس فى العلاقات كعلاقة الزوجة بزوجها والآباء بالأبناء والإخوة بالأخوات والأقارب والأصهار بعضهم ببعض . ومراد الرسول صلى الله عليه وسلم بكرم العهد المودة والرحمة بين كل من ذكرتهم ، فهم يتوادون ويتراحمون أو قل إنه ينبغى – كما أراد الرسول – أن يتراحموا ويتوادوا ويأنس بعضهم ببعض ، بل إن الرسول يريد أن يكون ذلك عاما بين المسلمين كما مر بنا فى الحديث عن الإخاء بين المسلمين وأنه ينبغى أن يلقى المسلم أخاه بالمودة والبشر واللطف .

---

(١) الإصر : الميثاق .

٣٨ - الحق

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

الإسراء ٨١

٢ - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾

الأنعام ٧٣

٣ - ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

المؤمنون ١١٦

٤ - ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾

الرعد ١

الأحاديث

١ - عن طارق بن شهاب البجليّ أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم أيُّ الجهاد أفضل ؟ قال النبى : كلمة حقٍّ عند سلطان جائر (رواه النسائى فى البيعة) .

٢ - عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتأخذُنَّ على يد الظالم ، ولَتَأْطِرُنَّه(١) على الحق أَطْرًا ، ولتَقْصُرُنَّه(٢) على الحق قَصْرًا (رواه أبو داود فى الملاحم) .

---

(١) لتأطرنه أطرا : لتردنه ردا .

(٢) لتقصرنّه قصرا : لتحبسنّه حبسا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ – عن معاذ بن جبل قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معاذ هل تَدرى ما حقُّ الله على عباده ؟ وما حقُّ العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذِّب مَن لا يشرك به شيئا (رواه البخارى فى التوحيد ومسلم فى الإيمان) .

٤ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آية الميراث بسورة النساء : إن الله قد أعطى كل ذى حق حقَّه (رواه ابن كثير وقال ثبت فى الحديث الصحيح) .

يقول الله تقدَّس اسمه – فى الآية الأولى (وقل جاء الحق) أى جاءت الرسالة التى تحق الحقَّ الثابت الذى لا يرقى إليه شك وتبطل الباطل نقيضه ، وتجعله يضمحل ، ولا يبقى له أثر . ودارت كلمة الحق فى القرآن عشرات المرات ، بمعان متقاربة ، فقد تكون بمعنى اليقين مثل : ﴿قوله الحق﴾ وقد تكون بمعنى الصدق مثل : ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وقد تكون بمعنى العدل مثل : ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ . وقد تكون بمعنى الحظ والنصيب مثل : ﴿والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم﴾ . وقد تكون بمعنى أحد الحقوق من المنافع التى يستحقها شخص على شخص من مال أو عقار كقوله تعالى فى سورة البقرة عن كتابة الدَّيْن : ﴿وليملل الذى عليه الحق﴾ . ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة ، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما تعبد من دون الله ، فأمر بكبِّها على وجوهها ، وجعل يقول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ فقد استقر وثبت الحق الذى دعا إليه ، وزهق الباطل وانقضى ووطئته الأقدام .

ويقول ربُّ العزة فى الآية الثانية إنه خلق السموات والأرض وجميع ما فيهما من الأشياء والموجودات بالحق أى بالحكمة ، وكما يقول فى آية سورة صٓ : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾ فالكون لم يخلق عبثا ولا لعبا ، إنما خلق لحكمة إلهية أرادها مبدعه ، وقد أودع فيه نظما تصونه ، وتحفظ الأرض وكل ما عليها من البشر ومن النباتات والأشجار والجبال والأنهار والبحار والمحيطات ، كما تحفظ السماء وما فيها من سُدم وكواكب ونجوم وتسخِّرها له حسب مشيئته وحكمته . ويصور الله ما أودع فى الشمس والقمر من نظام فى حركتهما الدائبة بسورة يٓس قائلا : ﴿والشمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم . والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم . لا الشمسُ ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ فى فلك يسبحون﴾ . فالشمس ستظل جارية فى الكون

حتى نهاية أمد الدنيا ، والقمر سيظل مثلها يجرى فى السماء ، وتختلف صورته وهيئته من ليلة إلى ليلة حتى يصبح فى المنظر كعرجون النَّخل ، وهو أصل عِذْقه الأصفر الشبيه بالهلال . ولكل من الشمس والقمر مداره وما يتبعه من نهار وليل . وهى مسيرة قدَّرها خالق حكيم أدق تقدير ، وكأنما وزنت بميزان فى غاية الدقة ، لا تفوته ذرة مهما صغر حجمها وتضاءل . وهو ميزان يدل على أن وراءه إلها قادرا حكيما لا يخلق شيئا إلا منحه ما يحفظ له حياته . وإذا كان قد أعطى الإنسان العقل الذى ظل يرتقى به حتى كوَّن حضارته ومدنيته فإنه أعطى الحيوانات الإلهام الذى تعرف به هبوب العواصف ونشوب الزلازل قبل حدوثها ، وأعطى الطير والأسماك والزواحف نفس الإلهام ، وتلك العنكبوت تبنى بيتها بصورة عجيبة ومثلها النَّحْل .

ويسمى الله نفسه فى الآية الثالثة باسم الحق ، وتكرر ذلك فى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى عن الخلق وبعثهم يوم القيامة ليحكم بينهم كما جاء فى سورة الأنعام : ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ﴾ . وتكررت هذه الصيغة فى سورة يونس ، وفيها أيضا : ﴿فذلكم الله ربُّكم الحق﴾ . وفى سورة مريم بعد أن تحدث الله عن حمل مريم البتول لابنها عيسى ومولده وكلامه الناس فى المهد قال جَلَّ شأنه : ﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق﴾ فى قراءة من ضم قول الحق ، أما قراءة النصب لقول فعلى معنى : قولا حقا .

وهو الحق الأزلى صانع الكون ومديره . ولعل الله سمى نفسه باسم الحق إعلاء له بين المسلمين ،حتى يشيع بينهم احترام حقوق الأفراد فلا ينهب شخص مال شخص ولا عقارا له ، وحتى لا يرضخوا ولا يستكينوا لحكم حاكم ظالم لا يخاف الله فيهم ولا يخشاه ، ولذلك يعد الرسول كلمة الحق يقذف بها شخص فى وجه سلطان ظالم ضربا من الجهاد كما فى الحديث الأول ، إذ لم يخف منه ولا من ظلمه وبطشه . ويدعو فى الحديث الثانى إلى الأخذ على يد الظالم لتردوه وتمنعوه .

وتسمِّى الآية الرابعة الشريعة الإسلامية باسم الحق ، وسمى القرآن بنفس الاسم الشرائع السماويَّة جميعا قائلا فى سورة الأعراف : ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ ويشير القرآن مرارا وتكرارا إلى أن الشريعة الإلهية واحدة وأن ما أوحى به إلى رسول هو ما أوحى به إلى غيره من الرسل . ومن قوله فى ذلك بسورة الشورى : ﴿شَرَع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا

فيه﴾ فشريعة الله شريعة واحدة ظل الرسل يبلّغونها إلى شعوبهم واحدا بعد واحد حتى ختموا برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم . والله لا يريد بتلك الشريعة الواحدة أن كل ما جاء به رسول يطابق فى مصالح الناس تمام المطابقة ما جاء به الرسول الآخر ،فإن أصول الشريعة هى التى لا تختلف ، وهى توحيد الله وعبادته والإيمان بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، أما الفروع فإنها تختلف باختلاف الأعصار وفقا لمصالح الجماعات وحاجاتها المتجددة ، ولذلك يقول الله لرسوله : ﴿لكل جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ . ويذكر اللهعن الشريعة الإسلامية أنها خاتمة الشرائع الإلهية وأنها تصححها وتسيطر عليها كما جاء فى سورة المائدة : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب﴾ أى الكتب السماوية ﴿ومهيمنا عليه﴾ أى ومراقبا وحاكما عليها ، لأنه الصورة الإلهية الختامية للشريعة الربانية ، ويقول الله إنه يعدِّل فى فروع الشريعتين اليهودية والنصرانية بما يرفع عن اليهود والنصارى ما فى شريعتيهما من إصْرٍ وأغلال أى أوامر ثقيلة شاقة كما جاء فى الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف ، ويقول تعالى فى سورة البقرة : ﴿ما نَنْسَخ من آية﴾ من آيات الكتب السماوية فى القرآن ﴿أو نُنْسِها﴾ أى نؤجلها إليه ﴿نأتِ﴾ فيه ﴿بخير منها أو مثلها﴾ لمصلحة الناس ، إذ أُرسل الرسول صلى الله عليه وسلم للناس كافة .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث لمعاذ بن جبل : هل تدرى حقّ الله على عباده وحق العباد على الله ؟ ويجيبه : الله ورسوله أعلم ، فيقول له : إن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئا وعلى المسلم بجانب حق الله فى العبادة حق فى العقيدة وهو أن يؤمن بالحساب والجزاء فى اليوم الآخر والملائكة والرسل والكتب السماوية وأن يؤدى ما فرض الله عليه من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وأيضا حق فى السلوك الخلقى ومصالح الأسرة والمجتمع مما فصَّلته الشريعة الإسلامية تفصيلا وافيا . وقد فصلتْ ما أعطاه الله للمسلم من حقوقه فى الميراث وغير الميراث كما يشهد الحديث الرابع القائل بأن الله أعطى كل ذى حق حقه ، مما يعنى أن الشريعة الإسلامية تحافظ للإنسان على ما له من حقوق لذاته ،وما عليه من حقوق لربه وأسرته ومجتمعه وأمته .

٣٩ - الجهاد ضد الأعداء

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

البقرة ٢١٦

٢ - ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

التوبة ٣٦

٣ - ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

التوبة ١١١

٤ – ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

الصف ١٠ ــ ١٣

الأحاديث :

١ – عن أبى هريرة رضى الله عنه : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسل أىُّ العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله (رواه البخارى فى كتاب الإيمان وكذلك مسلم) .

٢ – عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن رجلا أتى رسول الله صلّى عليه وسلم ، فقال :أىُّ الناس أفضل ؟ قال : رجل يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله (رواه مسلم فى كتاب الإماراة) .

٣ – عن عثمان رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل (رواه الترمذى وابن حنبل فى مسنده) .

٤ – عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة (رواه البخارى ومسلم مع اختلاف فى بعض الألفاظ) .

والله يقول فى الآية الأولى مخاطبا المسلمين إن القتال كُتب عليكم وفُرض لحرب أعدائكم من المشركين لإعلاء كلمة الله ، ﴿وهو كره لكم﴾ إذ يباعد بينكم وبين حياتكم العادية وما فيها من طمأنينة ، وتتعرضون فيه لخطر القتل ولآلام ما قد يحدث من جروح لكم ،

ويقول مطمئنا لهم : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرا لكم﴾ إذ يحقق لكم مصالح تجهلونها ، ويدفع عنكم مضار لا تعرفونها ، على الرغم من كراهيتكم له ونفوركم منه ، فقد تكرهون شيئا وفيه نفعكم ﴿وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم﴾ فيه هلاككم (والله يعلم) ما فيه نفعكم أكبر نفع وما فيه ضرركم أشد ضرر ، لأنه يعلم العواقب ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ مما يوجب عليكم أن تتلقوا دائما تشريعاتكم مؤمنين بأنها تتضمن الخير لكم كل الخير والنفع لكم كل النفع . ويكرر الله – جَلَّ شأنه – فى القرآن الدعوة إلى القتال وجهاد أعدائه وأعداء المسلمين . ويكثر الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الدعوة فى أحاديثه على نحو ما نرى فى الحديث الأول ، وقد سُئل أى العمل أفضل ؟ فقال : الإيمان بالله ورسوله ، وقيل له ثم ماذا ؟ فقال الجهاد فى سبيل الله ، فجعل الجهاد موازيا للأصل الأول فى الشريعة الإسلامية ، وهو الإيمان بوحدانية الله ورسوله ، وكأنه يجعله الأصل الثانى . وكرر ذلك فى الحديث الثانى إذ سأله رجل أى الناس أفضل ؟ فأجاب : رجل يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله .

وذكر الله الآية الثانية عقب حديثه عن الأشهر الحُرم حتى لا يُظَن أن النهى عن انتهاك الأشهر يؤذن بالنهى عن قتال المشركين فيها إذا حملوا السلاح لقتال المسلمين واستحلوا ذلك ، فإنه يجب على المسلمين حينئذ أن يقاتلوهم فيها ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أى أنه سينصركم لتقواكم . والآية الثالثة تحمل تلطفا عظيما من الله جلَّ وعز بأنه اشترى من المؤمنين المجاهدين أنفسهم وأموالهم بجزاء عظيم لجهادهم هو الجنة ، ويستمر الله – جل جلاله – فى تلطفه للمؤمنين بقوله إن هذا وعد عليه فى الكتب السماوية الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . ويقول أيضا متلطفا : ﴿ومَن أوفى بعهده من الله﴾ وهى بيعة إلهية لا تماثلها بيعه نظير الجهاد وأنهم يقتلون أعداء الله من المشركين فى ميدان الحرب ، وقد يُقتَلون ويستشهدون ، ويصبحون من أهل الجنة . (وذلك هو الفوز العظيم) الذى لا يماثله فوز .

ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث الثالث وما يذكر فيه من أن مرابطة يوم فى حرب المشركين خير من ألف يوم فى عبادة الله ، وفى رواية لسلمان الفارسى رضى الله عنه أن رباط يوم فى الحرب خير من صيام شهر وصلاة لياليه . وفى حديث

ثالث أن بكورا للجهاد أو روحة له فى المساء خير من الدنيا وما فيها ، وفى حديث رابع : أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف فى حرب المشركين . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر يستنهض الصحابة : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض فقال عُمَير بن الحمام الأنصارى رضى الله عنه : يا رسول الله عرضها السموات والأرض ! قال : نعم فأخرج تمرات كانت معه ، فجعل يأكل منها ثم قال لئن أنا حَيِيت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ، ورمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتل المشركين حتى قُتل .

ويخاطب الله المؤمنين فى الآية الرابعة قائلا : ﴿هل أدلكم على تجارة﴾ تخلصكم ﴿من عذاب أليم﴾ واستعيرت التجارة للدلالة على العمل الصالح لتشابههما فى طلب النفع عن طريق كل منهما . ويجيب الله – جَلَّ جلاله – بأنها الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس ، فإن فى ذلك خير الدنيا والآخرة لو أنكم تعلمون . ويصور الله هذا الخير قائلا إنه يغفر للمجاهدين فى سبيل الله ذنوبهم ويدخلهم جنات مونقة ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ويسكنهم فى قصور طيبة ﴿فى جنات عَدْن﴾ وإقامة خالدة ينعمون فيها نعيما لا مثيل ولا نظير له ﴿ذلك الفوز﴾ الربانى ﴿العظيم﴾ . ويصور الرسول مدى هذا الفوز للشهداء المؤمنين ومدى ما أُغْدق عليهم من النعيم والفضل الإلهى بقوله :إنه لا يقبل أحد ممن يدخل الجنة أن يعود إلى الحياة الدنيا وما كان يملكه فيها من أشياء سوى الشهيد فإنه يتمنى أن يعود إليها ويستشهد فيها عشرات المرات ، لينعم مرارا بما أغدق الله عليه من أفضاله ، ويذكر الله بعض هذه الأفضال على شهداء المؤمنين بقوله فى سورة آل عمران : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يُرزَقُون . فَرِحين بما آتاهم الله من فضله ويَستَبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

والآيتان تثبتان لهؤلاء المجاهدين الشهداء موتا دنيويا إذ قتلوا ودفنوا ، وتنفى عنهم الموت الحقيقى إذ هم أحياء عند ربهم يُرزقون ، فهم أموات الأجسام أحياء الأرواح ، وهى حياة نجعلهم مع موتهم الجسدى ﴿فَرِحين بما آتاهم الله من فضله﴾ مستبشرين بأن رفقاءهم من المؤمنين الذين لم يكتب لهم الاستشهاد يوم أحد يظلون ينتصرون على المشركين فى الغزوات والحروب التالية دون أن يمسهم أى قَرْح أو أى أذى .

٤٠ - العفو

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ - فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ

البقرة ١٧٨

٢ - وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

آل عمران ١٣٤

٣ - خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

الأعراف ١٩٩

٤ - وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ

البقرة ٢١٩

الأحاديث

١ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن أصيب بقتل فإنه يختار إحدى ثلاث : إما أن يقتصَّ ، وإما أن يأخذ الدية ، وإما أن يعفو .. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها (رواه ابن حنبل فى مسنده وابن كثير فى تفسيره الآية الأولى) .

٢ - عن أُبَيّ بن كعب رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن سَرَّه أن تُرْفَع له الدرجات ، فليعفُ عمن ظلمه ، ويُعطِى من حَرَمه ، ويصل من قطعه (رواه ابن كثير فى تفسيره الآية الثانية) .

٣ - عن عقبة بن عامر أنه لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا رسول

الله أخبرنى بفواضل الأعمال ، فقال : يا عقبة صِل مَن قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك (رواه ابن حنبل فى مسنده وابن كثير فى تفسيره للآية الثالثة) .

٤ – عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل فى إعطاء الصدقة : ابدأْ بنفسك فتصدَّق عليها ، فإن فضل شئ فلأهلك ، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك ، فإن فضل عن قرابتك شئ فأنت أبصر (رواه مسلم وابن كثير فى تفسير الآية الرابعة) .

ولكى تُفْهم الآية الأولى نتلوها كاملة إذ يقول جَلّ شأنه : ﴿ياأيهاالذين آمنوا كُتب عليكم القصاص فى القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ . القصاص وهو قتل القاتل بمن قتله كان معروفا فى الأمم السابقة ، فعفا الله لهذه الأمة الإسلامية أن يأخذ أهل القتيل من القاتل دية لقتيلهم . وأصل العفو فى اللغة الفضل ، والعفو فى الآية ليس من ولى الدم ، ولكن من الله ، إذ جعل الله لهذه الأمة فى القتيل الدية عفوا منه وفضلا أى أن الله عفا عن القاتل بالدية وأباحها لولى الدم يأخذها مؤثرا لها على القصاص ، وعليه أن يطلبها بالمعروف أى بالطريقة الحسنة ، وعلى القاتل أن يؤدى الدية إليه بإحسان . والآية تدعو لقبول الصلح بين أهل القتيل والقاتل استبقاء ومحافظة على ما بين الأسرتين أو العشيرتين من أخوة الإسلام التى أقامها الله مقام أخوةالسبب ، ومن أجل ذلك وصف القاتل بأنه أخوه ترغيبا لولى القتيل فى الصلح وقبول الدية منه ، وسماها ﴿شىء﴾ أى شىء ميسور من المال يستطيع القاتل تقديمه . وتقول الآية إن ذلك تخفيف من ربكم عليكم ورحمة عظيمة ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أى بعد العفو عنه وعاد إلى القتل مرة أخرى فلا تقبل منه الدية ويُقتص منه ، وله فى الآخرة عذاب أليم . وأجازت الشريعة لولى القتيل أن يعفو عن القاتل ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول أن ولى القتيل إما أن يقتص منه وإما أن يمنحه العفو وإما أن يأخذ الدية .

والآية الثانية تدعو إلى العفو عن إساءات الناس مطلقا مسلمين وغير مسلمين ، ودعا الله هذه الدعوة فى القرآن مرارا وتكرارا ، وسمى نفسه العفُوّ تباركت أسماؤه ، وطلب مرارا من رسوله ومن المؤمنين العفو والصفح عن المسيئين وأنه سيجزيهم عن ذلك يوم القيامة الجزاء

الأوفى . والحديثان الثانى والثالث فى هذا العفو المستحب لرب العزة : أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تعطى من حرمك يوما ، وأن تصل قريبك الذى قطعك ، وبذلك تَلْقى سيئاتهم جميعا بحسنات يضاعف الله لك أجرها وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم خذوا أجوركم ، فإنه حق لكل امرئٍ مسلم عفا عمن ظلمه أن يدخل الجنة .

والله – تبارك اسمه – فى الآية الثالثة يقول للرسول صلى الله عليه وسلم (خُذ العفو) أى اجعله صفة لازمة لك ، والعفو : الصفح عن ذنب المذنب ، والرسول يعد مثلا أعلى فى العفو ، فقد عفا عن كل من أسلم من المشركين مهما كان قد أساء إليه ، ويقول الله له :﴿فبِما رحمة من الله لنْتَ لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لا نفَضُّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم﴾ وكان كلما تعرضت له قريش بالإيذاء لم يدع عليها بل دعا لها ربها قائلا : اللهم اغفرْ لقومى فإنهم لا يعلمون . ويقول الله له ﴿وأْمر بالعرف﴾ وهو الفعل الذى لا ينكره العقل ولا الشرع ، وهو فعل الخير مما يحث عليه الإسلام ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أى السفهاء من المشركين فلا تقبل عليهم ولا تلتفت إليهم وعفوه – صلى الله عليه وسلم – عن أعدائه المحاربين له فى قريش يوم فتح مكة مما سارت به القصص والأمثال .

والآية الرابعة فى الصدقة ، والعفو فيها هو ما فضل عن حاجة الشخص من المال بعد نفقته ونفقة أهله ، وذكرُ الله للعفو أو الفضل دليل على أنه لا يريد من المتصدقين أن يشقوا على أنفسهم فى إعطاء الصدقات ، بل يؤدونها من الفاضل عن حاجاتهم بحيث لا تشق علبهم ، وهى حكمة عظيمة من الله ، أراد بها الخير للمتصدقين والمحتاجين . وإنفاق هذه الصدقة إنفاق تطوعى ، وهو غير إنفاق الزكاة الواجبة على كل مسلم . وقد حبَّب الله فى القرآن المسلم فى أن يؤدى الصدقة لمن يحتاجون من الفقراء والمساكين ، وسماها قرضا حسنا له ، وقال إن جزاءها يضاعف إلى سبعمائة ضعف . وفى الوقت نفسه شدد الرسول على أن لا يصَّدق المسلم بكل ماله ، مخافة أن يؤول به وبأهله إلى فقر ، وهو نفسه ما دعا إليه القرآن إذ قال إن الصدقة عفو أو فضل زائد من مال الشخص ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً ، وابدأْ بمن تعول أى من الزوجة والأولاد وذوى الرحم ، والإنفاقُ عليهم جميعا صدقة مفضّلة مقدمة على غيرها من الصدقات ،

وقال صحابى جليل لرسول الله إنك تعلم أن عندى مالا كثيرا وأريد أن أتصدق به . فلفته إلى أن له زوجة وأولادا وكان مما قال له : إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس .

وفى الحديث : إنك لا تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجِرْتَ عليها حتى اللقمة تجعلها فى فم زوجتك . والحديث الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد كل ما ذكرناه ، فقد قال لمن سأله عن الصدقة ابدأ بنفسك فإن فضل شىء فلأهلك أى لزوجتك وأولادك ، فإن فضل شىء فأعطه لأقربائك ، فإن فضل شىء منهم جميعا فأنت أدرى بمن تعطيه إليه .

٤١ – الرِّفق

القرآن الكريم

قال الله تعالى

١ – فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ

آل عمران : ١٥٩

٢ – ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

طه : ٤٣ ، ٤٤

٣ – وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾

الشعراء : ٢١٥

٤ – مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ

الفتح : ٢٩

الأحاديث

١ – عن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله رفيق يُحبُّ الرِّفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة) .

٢ – وعنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرِّفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع عن شىء إلا شانه (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب) .

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تحقرنَّ من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب) .

يقول الله – تقدس اسمه – لرسوله صلى الله عليه وسلم : فى الآية الأولى إنه جعل خُلقه لينا رحمة منه به وبالأمة الإسلامية ، حتى يستطيع حملها على شريعته واقناعها بكل ما جاء به من مبادئ وتعاليم ، وهى منة عظيمة لله على رسوله وعلى أتباعه ، وهى أن يكون لطيفا معهم أنيسا لهم ، مما كان له أثر بعيد فى التفافهم حوله . ويقول الله لرسوله : ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك﴾ والفظ : الجاف سيئ الخلق ، والغليظ القلب : القاسى الذى لا يعرف رأفة ولا رحمة ولا شفقة ، وكان الرسول مملوءا شفقة ورحمة ورأفة على أتباعه من المؤمنين كما يقول جَلَّ شأنه – فى وصفه : ﴿لقد جاءكم رسولُ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ والآية موجهة للمؤمنين والمشركين ، فهو يعز عليه عنت المؤمنين بالقتال ، وأيضا عنت المشركين فيه ، وهو منتهى الرأفة والرحمة بهم . وهو حريص أشد الحرص على المؤمنين أن لا يتكلفوا أى مشقة ، وبالمثل حريص على الكافرين من المشركين أى على إيمانهم واعتناقهم للإسلام ، وهو أيضا منتهى الرأفة والرحمة والرفق بهم . وكان لا يَنِي يحبِّب المسلمين فى الرفق والرحمة والرأفة ، ومن قوله فى الحديث الأول : إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لايعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه ، فالله رفيق منتهى الرفق ، وطبيعى أنه لا يعطى على العنف ، وإنما يعطى عطاء مستمرا على الرفق ، والرسول – بذلك – يحض على الرفق . وبالمثل يقول فى الحديث الثانى : إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ، ولا يُنزَعُ من شيء إلا شانه .

والله – جَلَّ وعز – يقول فى الآية الثانية لموسى وهرون : ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ وعتا فى الأرض وازداد عتوّه وطغيانه ﴿فقولا له قولا ليِّنا﴾ أى خاطباه بالملاطفة واللين كما فى أمر موسى أن يقول لفرعون بسورة النازعات ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ وكأمر موسى مع هرون أن يقولا لفرعون : ﴿قد جئناك بآيةٍ من ربِّك والسلام على من اتبع الهدى﴾ وفى سورة العنكبوت أن مجادلة أهل الكتاب ينبغى أن تكون بالكلام اللين حتى يتقبلوا جدالكم كما فى قوله تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾ . ويُعلى الله من شأن الكلمة الطيبة اللينة قائلا : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذًى﴾ أى قول حسن للفقير أو كلمة طيبة خير من صدقة تعطى له تتبعها إساءة كأن يظهر المتصدق تطاولا واستعلاء على الفقير أو يعيِّره بالفقر وغير ذلك مما يؤذيه .

ويجعل الرسول صلى الله عليه وسلم الكلمة الطيبة اللينة – فى حديث له – بوجهها المسلم لأخيه من المسلمين صدقة ، وكأنه يريد أن يكون كلام جميع المسلمين بعضهم لبعض كلاما لينا طيبا ، فيعم بينهم الرفق والرأفة والأخوة الصحيحة .

ويقول الله لرسوله فى الآية الثالثة : ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ أى تواضع لهم وعاملهم بالرفق واللين واللطف ، والأحاديث عنه فى هذه المعاملة الرفيقة كثيرة ، من ذلك أنه كان إذا جاءته هدية من طعام أو شراب أرسل إلى أهل الصفَّة ، كما يروى أبو هريرة يقول : دخل الرسول البيت فوجد قدحا كبيرا من لبن ، فقال له : ادع أهل الصفَّة ، فجاءوا فأمر أبا هريرة أن يمر على كل منهم بالقدح حتى إذا ارتووا جميعا تبسم وقال لأبى هريرة بَقيت أنا وأنت ، وقال : اقعد واشرب ، وكرر ذلك عليه مرارا . ثم ناوله أبو هريرة القدح ، فحمد الله تعالى وسمَّى وشرب الفضلة . وهى صورة من رفقه العظيم بصحابته . وكان لا يمر على غلمان فى طريقه إلا ويسلم عليهم ، وحدث أن كان فى مجلس له يوما وعلى يمينه غلام وعلى يساره الأشياخ ، وأُتى بقدح فيه شراب ، فشرب منه ، وقال للغلام : أتأذن لى أن أعطى القدح هؤلاء فقال الغلام : لا والله يارسول الله لا أوثر بنصيبى منك أحدا ، فوضع رسول الله عليه وسلم القدح فى يده . وهذان خبران من أخبار كثيرة تدل على مدى ما كان يأخذ به نفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاملة أصحابه من الشيوخ والغلمان من الرفق الكريم . وكان لا يزال يوصى به أصحابه ، حتى ليوصيهم بالكلمة اللينة الطيبة المؤنسة ، وأيضا فإنه كان يوصيهم – كما فى الحديث الثالث – بحسن لقائهم بعضهم لبعض وما ينبغى أن تعبر عنه وجوههم من البشر والصفاء والطلافة والبشاشة .

ويثنى الله – عزَّ شأنه – على الرسول وأصحابه فى الآية الرابعة معرَّفا لهم بأنهم (الذين معه) وهى معية أو صحبة كريمة ، ويصفهم الله بأنهم ﴿أشداء على الكفار﴾ يقاتلونهم لأنهم جند الله ورسوله وجند الدين الحنيف يحمونه ويدافعون عنه . وهم مع هذه الشدة التى تنطوى عليها نفوسهم ﴿رحماء بينهم﴾ إذ هم إخوة يتراحمون ويرفق بعضهم ببعض ، كما وصفهم فى سورة المائدة بقوله : ﴿أذلة على المؤمنين أعزَّة على الكافرين﴾ والذل فى الآية معناه لين الجانب وما يتضمنه من الرفق والرحمة والرأفة

بإخوانهم من المؤمنين ، وهم أعزة شداد صلاب على الكافرين . ولعل حديثا لا يصور ما بين المسلمين من الرفق والرأفة والرحمة كحديث النعمان بن بشير عن الرسول صلى الله عليه وسلم : مثلُ المؤمنين فى توادّهم وتعاطفهم مثل الجسدإذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وكأنهم ليسوا أمة ذات أفراد ، بل كأنهم جسد واحد ، إذا مرض منه عضو لبَّته جميع الأعضاء بالسَّهر له والحُمَّى ، وهو تعظيم لحقوق المسلمين بعضهم على بعض والحض على أن يلاطف كل منهم أخاه ويعاونه ويمد له يد الرفق والرأفة .

٤٢ - المواساة - الإيثار

القرآن الكريم
قال الله تعالى

١ - ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ

البقرة ١٧٧

٢ - لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

آل عمران ٩٢

٣ - وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ

الحشر ٩

٤ - وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾

الإنسان ٨

الأحاديث

١ – عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل حسنة ابن آدم عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف (رواه ابن حنبل فى مسنده)

٢ – عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة – رضى الله عنه – أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحبُّ أموال إليه بَيْرَحاء (حديقة) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب .

قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال للرسول إن أحبَّ مالٍ إلىَّ بيرَحاء ، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برَّها وذُخرَها عند الله تعالى ، فضَعها – يا رسول الله – حيث أراك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بَخٍ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعتُ ما قُلْتَ ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه (رواه البخارى فى الزكاة والتفسير ورواه مسلم فى الزكاة) .

٣ – وعن أنس قال : قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمْنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير ، لقد كفونا المئونة وأشركونا فى المهنأ[١] ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

٤ – عن أبى هريرة جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى مجهود[٢] ، فأرسل إلى بعض نسائه ، فقلن : ليس عندنا إلا الماء ، فقال صلى الله عليه وسلم : مَن يُضيف هذا الليلة ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلى بيته ، فقال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألها هل عندك شىء ؟ فقالت لا إلا قوت صبيانى ، قال : علِّليهم بشىء ، وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم ، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج ، وأريه أنا نأكل ، فقعدوا ، وأكل الضيف . فلما أصبح غدا على النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له : لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة (رواه مسلم فى الأشربة والترمذى والنسائى فى التفسير) .

---

(١) فى المهنأ : فيما يعولهم .

(٢) مجهود : متعب تعبا شديدا .

نزلت الآية الأولى بعد أن أمر الله المؤمنين بالتوجه فى صلاتهم إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين فيها إلى بيت المقدس ، وشق ذلك على بعض أهل الكتاب وبعض المسلمين . والمراد بالبر فى الآية طاعة الله وامتثال أوامره ، فهذا هو البر وليس – كما قال الله – فى لزوم التوجه فى الصلاة إلى المشرق أو المغرب ، فالبر إنما هو فى الإيمان الكامل بالله ووحدانيته واليوم الآخر وأنه لا ريب فيه وبالملائكة والكتب الربانية والنبيين ، وفى إخراج المؤمن للمال مع حبه له مواساة للأقرباء واليتامى الذين لا يقتدرون على التكسب والمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم فى معاشهم ، وابن السبيل المسافر الذى فرغت نفقته فيعطَى ما يكفيه لإكمال مسيرته والسائلين من الفقراء الطالبين للعطاء من الزكاة والصدقة ﴿وفى الرقاب﴾ أى فى العبيد المكاتبين لتحريرهم وينقصهم بعض المال المطلوب . وهذه المواساة لكل هؤلاء الأشخاص طلبها الله – جل شأنه – لهم فى القرآن مرارا وتكرارا وقال إنه يجزى عليها الجزاء الأوفى ، وسماها قرضا له ، وأنها تفتح للمواسين أبواب الجنة ، سوى الثواب المضاعف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول إن الله جعل الحسنة فى هذه الصور من المواساة تتضاعف عند الله إلى عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

والبر فى الآية الثانية هو كمال الخير وطاعة أوامر الله فى الشريعة الإسلامية ، والله يخاطب فى الآية المؤمنين قائلا إنهم لن ينالوا البر الإلهى حتى ينفقوا من مالهم المحبوب لهم العزيز عليهم ، وهى دعوة عظيمة لأهل الجود من أغنياء المؤمنين كى يبذلوا للفقراء بعض ما يتشوَّفون إليه من نفيس أموالهم ، وبذلك تتوثق الصلات بين أغنياء المؤمنين وفقرائهم ، وتدعم أواصر الأخوة التى ينبغى أن تسود وتعم فى الأمة . وحين نزلت الآية أسرع بعض الصحابة يعرضون على الرسول صلى الله عليه وسلم خير ما يملكون من أموالٍ صدقة لله يرجون برها وأن يضعها حيث يريد ، وفى مقدمتهم أبو طلحة الأنصارى وكان من أكثر أهل المدينة ثراء ومالا ، وقال له – كما فى الحديث الثانى أن أحب أموالى إلىَّ حديقة بَيْرحاء – وكانت فى مواجهة المسجد – وأنا أقدِّمها صدقة لله تعالى أرجو برَّها وذُخرها عند الله ، فضَعها يا رسول الله حيث تريد فقال له استحسانا بَخٍ ذلك مال رابح عند الله وأشار عليه أن يجعل الحديقة فى أقربائه ، فصدع لمشورته ، وقسمها بين أقاربه .

والله يثنى فى الآية الثالثة على أخوة الأنصار للمهاجرين قائلا إنهم ﴿تبوَّءوا الدار

والإيمان من قبلهم﴾ أى سكنوا المدينة كما سكنوا الإيمان بالله وتوحيده وبرسوله ورسالته مخلصين للإسلام اشد الإخلاص وأعمقه ، وإنهم ليحبون المهاجرين إليهم مع الرسول من مكة ، ولا يجدون فى صدورهم لهم أى غضاضة أو رغبة فى شيء مما أعطى الرسول لهم من فَيء بنى النضر حين أخرجهم من المدينة حتى يردّوا على الأنصار ثمارهم التى كانوا شاطروهم فيها . ويمدح الله الأنصار مدحا عظيما بما قدموا للمهاجرين من مؤاخاة ومواساة بل من إيثار على أنفسهم قائلا : ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة﴾ أى احتياج شديد . وهى مؤاخاة قامت على ثلاثة مبادىء : على الحق ، والمواساة فى المال ، والتوارث ، وكانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار بحيث كان يتآخى كل مهاجر منهم مع أنصارى فينزله داره ويعطيه من نخيله .

وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة دون القرابات حتى نزلت آية المواريث فى سورة النساء بالسنة الرابعة للهجرة وآية سورة الأنفال : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ . ويصور الحديث الثالث عن أنس بن مالك مدى ثناء المهاجرين على الأنصار فى هذه المواساة إذ قالوا : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير ، لقد كفونا المئونة وأشركونا فيما يعولهم ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، فقال لا ما دمتم تثنون عليهم وتدعون الله لهم .

والآية الرابعة تصور مدى إيثار المؤمنين إطعام المساكين واليتامى والفقراء والأسارى طعامهم مع محبتهم له واشتهائه . والمسكين ، المحتاج ومن لا يجد الكفاية لعيشه ، والمراد باليتيم الذى ليس له من يعوله ، والأسير يشمل المسلم وغير المسلم ، وهو حنو عظيم لله على أسرى المشركين ، ويشهد لهذا الحنو كما مر بنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى من المشركين فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء . وفى كتب السيرة وتراجم الصحابة قصص كثيرة عن الإيثار ، إيثار المؤمن لأخيه المؤمن بما هو فى أشد الحاجة إليه . فمن ذلك أن فقيرا من الأنصار أُهْدى إليه رأس شاة فوجه به إلى جار له ظانا أنه أحوج إليه منه ، فوجَّه الجار بالرأس إلى جار آخر ، حتى تداولته سبعة بيوت ، إلى أن عاد إلى صاحبه الأول . ومن ذلك قصة الماء

التى مرت فى غير هذا الموضع إذ عُرض على عكرمة بن أبى جهــل وأصحابه فكان كل منهم يأمر بدفعه إلى أخيـه ، وهو يئن جريحا أحوج مـا يكون إلى المـاء ، فيسمع جريحا يئن مثله ، فيقول لحامل المـاء أعطه له ، فيسمع الثانى أنين جريح مثله فيؤثره بالمـاء ، ويموت الثلاثة ، ولم يشرب أحد منهم المـاء مؤثرا صاحبه . ومن صور هذا الإيثـار الرائع الحديث الرابع الذى آثر فيـه أنصـارى ضيفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعشائه وعشاء زوجته وأولاده ، وباتوا جميعا طـاوين لوجه الله مرضاة له ولرسوله ، وطلبا لثوابه .

٤٣ - الرحمة بالإنسان - وبالحيوان

القرآن الكريم

قال الله تعالى

١ - ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾

الأنعام ٥٤

٢ - ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

الأعراف ٥٢

٣ - ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يونس ٥٧

٤ - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

الأنبياء ١٠٧

الأحاديث

١ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى (رواه البخارى ، فى الرقاق ومسلم فى التوبة)

٢ – عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله (رواه مسلم فى كتاب الفضائل)

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والأنس والبهائم والهوام[1] فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخَّر الله تسعا وتسعين من رحمته يرحم بها عباده يوم القيامة (رواه البخارى فى الأدب ومسلم فى التوبة)

٤ – عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : عُذِّبَت امرأة فى هرة عذّبتها : حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها ولا سقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشاش[2] الأرض (رواه مسلم فى كتاب السلام باب تحريم قتل الهرة) .

والله – جَلَّ شأنه – يقول فى الآية الأولى إنه كتب على نفسه الرحمة أى أنه فرضها على نفسه والتزم بها التزاما ، وقد كتبها – كما يقول الحديث الأول – فى كتاب عنده فوق العرش وسلطانه الكونى وفى علمه ، وجعلها بحيث تغلب غضبه ، ومعناها العطف على الأحياء ، وتُرَى آثار عطفه ورحمته فى إحسانه إليهم وعونهم والرفق بهم والرأفة وما يسَّر لهم من النعم المادية والمعنوية . وقد ترددت نعمة الرحمة الإلهية ومشتقاتها فى القرآن الكريم مئات المرات ، وجعلها الله لا تعم الناس فحسب ، بل تعمّ الأشياء جميعا كما جاء فى آية سورة الأعراف : ﴿ورحمتى وسعت كل شىء﴾ ودعا القرآن بقوة إلى أن لا ييأس أحد من رحمة الله مهما يكن ذنبه ومهما تكن معصيته بمثل قوله فى سورة الزُّمَر : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ . وهو بذلك يفتح أبواب الرحمة والغفران للعصاة المذنبين النادمين .

ويقول الله جَلَّ شأنه فى الآية الثانية إنه جاء الناس ﴿بكتاب﴾ هو القرآن الكريم ﴿فصَّلناه﴾ وبيناه ﴿على علم﴾ عظيم ، علم ربانى لا يعتريه أى خطأ ، بل هو علم صحيح منتهى الصحة فيه ﴿هدى﴾ أى دلالة كاملة لما فيه صلاح الدنيا والآخرة ، وفيه ﴿رحمة﴾

(١) الهوام : الطير والحشرات .
(٢) خَشاش الأرض : هوامها وحشراتها .

أى رفق بالمؤمنين فى تشريعاته . وصوَّر الله ذلك تصويرا بآية النسخ فى سورة البقرة قائلا : ﴿ما ننسخ من آية﴾ أى من آيات الكتب السماوية السابقة ﴿أو ننسها﴾ أى نؤجلها ﴿نأتِ بخير منها أو مثلها﴾ فى القرآن رحمة بالناس وتخفيفا عليهم . أما ما قد يقال من أنّ الله فرض مع هذه الرحمة فى الشريعة الإسلامية صورا من القصاص والحدود فإن ذلك أوجبته مصلحة المجتمع الإسلامى إزاء الكبائر من مثل القتل والسرقة وهو لا يعارض الرحمة بل توجبه لتنظيم حياة المسلمين ولكى يسودها الأمن ، بالحدود من جهة ، وبالرحمة التى ينبغى أن تشيع بينهم وتشيع معها المودة والأخوة بين المؤمنين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث عليها كما فى الحديث الثانى قائلا إن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ولا يحنو عليه .

ويصور الله عزَّ شأنه – فى الآية الثالثة ما يحمله القرآن الكريم للناس من مواعظ فى قصصه عن الأنبياء وفى تصويره لنعيم المؤمنين فى الجنة وعذاب الكافرين فى النار ، مما يجعل الكافر الضال يرعوى ويؤمن بالله ولا يشرك معه أحدا . ويقول الله عن كتابه إنه شفاء لما فى الصدور من الكفر والضلال ، وكأنه دواء ربانى يقضى على هذين المرضين قضاء مبرما ، إذ يصبح المؤمن به المتناول له معافى منهما ويتم له الشفاء النفسى المقابل لشفاء الجسد المادى من مرض عضال . ويقول الله فى هذه الآية – كما فى الآية السابقة – إنه أنزل القرآن لهداية الناس إلى الطريق الدينى القويم ورحمة لهم إذ يشفيهم شفاء نفسيا تاما ويوجِّههم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله لرسوله فى الآية الرابعة : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ ويقتضى ذلك أن يكون الرسول رحمة بحق لأمته كما قال ربُّ العزة : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ والرأفة ومعها الرحمة صفتان من صفات الله عز وجَلَّ فى الذكر الحكيم فى مثل قوله بسورة البقرة : ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ . وهو تشريف لرسولنا لا يماثله تشريف . وكما أسبغ الله الرحمة على رسوله أسبغها على شريعته كما أوضحنا ذلك فى الآية السابقة ، وأسبغها الإسلام فى معاملته الرحيمة لغيرالمسلمين إذ ارتضى منهم أديانهم وقال الله ﴿لا إكراه فى الدين﴾ وقال لرسوله : ﴿ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ والحكمة : البراهين العقلية كما فى إثبات القرآن لوحدانية الله ، والموعظة الحسنة كما فى

قصص الرسل وما نزل من العقاب بمن عصوهم ، والمجادلة الحسنة كمجادلته اليهود في سورة البقرة . وكل تلك أساليب رحمة ورفق بالناس في إقناعهم بالأدلة البينة ، ولذلك يقول الله إنه أرسل رسوله ﴿رحمة للعالمين﴾ أى لجميع الخلق إذا أرسله إلى الناس كافة بهذه الرحمة في طرق الاستدلال . وقد ذكر في سورة الأعراف أن القرآن يضع عمن يسلم من اليهود والنصارى ﴿إصْرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾ أى الأوامر والنواهى الشاقة في ديانتيهما . والقرآن – بذلك – شريعة رحمة بحق لأتباعه ولمن يدخل فيه من الخلق أجمعين .

وعلى هذا النحو قامت شريعة الإسلام على دعامة الرحمة ، وأنزل الله من رحمته جزءا واحدا في الأرض وأمسك بقية أجزائها – كما يقول الحديث النبوى – ليوم القيامة يرحم بها عباده . وجزء الأرض تقاسمه الإنس والجن وكل ما على الأرض من الحيوان والطير ، فبه يتعاطفون ويحنو بعضهم على بعض ، وبه يتراحمون ويرفق بعضهم ببعض ، فيحنو الآباء على أبنائهم ، ويحنو الطير على فراخه ويقوتها في أعشاشها ، وتحنو الدواب على أولادها ، حتى لتحذر الدابة أن يقع حافرها على ولدها .

ومع أن الله خلق للإنسان كل ما على الأرض من الحيوانات كما جاء في مثل قوله : ﴿هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ مع ذلك دعت الشريعة الإسلامية إلى الرحمة بالحيوان رحمة بالغة ، بحيث لا يشق عليه الناس فيما يعمل وفيما يحمل . ونرى الرسول صلى الله عليه وسلم يشدد في الرحمة بالحيوان المستأنس وأن لا يناله أى أذى ، كما في الحديث الرابع إذ يقول إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت ، إذ لم تطعمها ولا سقتها ولا تركتها تأكل من هوام الأرض . وعن أبى ذرٍّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر ، فملأ خُفَّه (حذاءه) ماء ثم أمسكه بفيه ، حتى رَقِىَ (صعد) فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . وزاد البخارى : فأدخله الجنة ، وقال الصحابة يا رسول الله إن لنا في البهائم أجرا ؟ فقال : في كل كبد رَطْبةٍ أجر (رواه البخارى ومسلم) . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينهى عن اللعب

بالطير وعن تعذيب الحيوان بالنار حتى النملة ، وفى حديث رواه أبو داود عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فانطلق لحاجة ، فرأينا حُمَّرة (قُبَّره) معها فرخان ، فأخذنا فَرْخَيها ، فجاءت الحمرَّة فجعلت تُعَرِّش أى ترتفع وتبحث عن فرخيها ، فقال الرسول : مَن فجع هذه بولدها ؟ رُدُّوا ولدها إليها . ورأى قرية (مجمع) نَمل حرقها بعض الصحابة فقال : من حَرَّق هذه ؟ قالوا نحن ، قال إنه لا يعذب بالنار إلا رَبُّ النار . أرأيت إلى هذه الرحمة والشفقة على الحيوان والطير بجانب الرحمة والشفقة على الإنسان أليس بحق يسمى الإسلام دين الرحمة .

٤٤ - إكرام اليتيم

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

النساء : ٢

٢ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

النساء : ١٠

٣ - ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾

البلد : ١١ ـ ١٥

٤ - ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾

الماعون : ١ و ٢

الأحاديث

١ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كافلُ اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين (مشيرا بإصبعيه : الوسطى والسبابه) فى الجنة (رواه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق) .

٢ - فى الحديث أن رجلا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : فقال : إن عندى يتيما عنده مال وليس لى مال هل آكل من ماله ؟ قال الرسول : كل بالمعروف غير مسرف (رواه أبو داود والنسائى بكتابيهما فى السنن) .

٣ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصدقة على المسكين صدقة واحدة وعلى ذى الرحم اثنتان ، صدقة وصلة (رواه الترمذى فى جامعه والنسائى فى سننه) .

٤ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير بيت فى بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَن إليه ، وشرُّ بيت فى بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه (رواه ابن كثير فى تفسيره) .

والله - جَلَّ وعز - يأمر كفلاء اليتامى بأن يدفعوا لهم أموالهم ، وهم لا يدفعونها لهم إلا إذا بلغوا أو كانوا راشدين ، وإذن فتسميتهم يتامى باعتبار ما كانوا عليه ، وشرط الرشد سيذكره الله فى آية تالية . وقيل المراد بالأموال هنا أموال المواريث إذ كانوا لا يورثون اليتامى لأنهم صغار ، وبذلك تكون كلمة يتامى بمعناها الأصلى ، فهم يتامى حقيقيون لا باعتبار ما كان . ﴿ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ إذ كان بعض الكفلاء يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويعطيه مكانها شاة هزيلة ، ويقول شاة بشاة ، فنهى الله الكفلاء أن يصنعوا ذلك أو ما يماثله ، كما نهاهم أن يأكلوا أموال اليتامى إلى أموالهم ، بمعنى أن يستولوا على أموال اليتامى ويضموها إلى أموالهم . والنهى عن أكل أموال اليتامى ليس واقعا فقط على ضمها إلى أموالهم ، بل هو عام سواء ضموها أو لم يضموها ، والقيد فى الآية أى قيد الضم إلى أموالهم أريد به التشنيع على الكفلاء الأغنياء الذين لا يخشون الله فى أموال اليتامى ، فيضمونها إلى مالهم من أموال . وكافل اليتيم فى الحديث الأول هو الذى يقوم بأموره فى الدنيا والدين ، وذلك بالنفقة عليه والكسوة والمسكن والتربية سواء من ماله الخاص أو من مال اليتيم ، وكافل اليتيم له أو لغيره فى الحديث أى كافل اليتيم القريب كأن يكون جده أو أخاه أو عمه أو غيرهم من أقربائه ، وكافل اليتيم لغيره الأجنبى من غير الأقرباء . ويقول الله لكفلاء اليتيم فى الآية

السادسة فى السورة : اختبروا اليتامى حين يوشكون على البلوغ فى سِنّ الخامسة عشرة ، فأعطوهم شيئا من أموالهم وانظروا كيف يتصرفون ﴿فإن آنستم منهم رشدا﴾ أى تصرفا سليما ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ فهى تدفع إليهم بشرطين : البلوغ وتحقق الرشد ﴿ولا تأكلوها إسرافا﴾ أى بالإسراف فى الإنفاق والتبذير فيه قبل البلوغ ﴿ومن كان غنيا﴾ من الكفلاء فَلْيَسْتَعْفِف قيل هذا أمر للوجوب : تعفف الكفيل الغنى عن أخذ مقابل لكفالة اليتيم ، وقيل بل أمر للندب فيجوز أخذ أجر مثله ﴿ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ أى ﴿بالتى هى أحسن﴾ .

ويقول الله – تَقدس اسمه – فى الآية الثانية إن من يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا أى أنهم يعذبون بها وسيصلون نار الجحيم فى الآخرة ، وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اجتنبوا السبع الموبقات من الفواحش الكبرى ، وعدَّ منها أكل مال اليتيم . وسأل رجل الرسول – كما فى الحديث الثانى – أن عنده يتيما له مال بينما هو ليس له مال فهل يأكل من مال اليتيم ؟ فقال الرسول له : كُل بالمعروف غير مسرف أى أنه يأكل بما لا يتجاوز أجر مثله ، واختلف الأسلاف هل مثله يرد ما أخذه من مال اليتيم ؟ قولان أصحهما أنه لا يردّ ما أخذه ، لأنه أخذ أو أكل بأجرة عمله وكان فقيرا .

والآيتان الأوليان فى اليتامى ذوى الأموال ، والآيات التالية فى اليتامى الذين لا كاسب لهم وهم صغار ضعفاء دون القدرة على التكسب ، ودون البلوغ ، وجعلهم الله فى القرآن مرارا من مصارف الصدقة والزكاة مثل الفقراء والمساكين .والله يقول فى سورة البلد إنا أوضحنا للإنسان طريقى الخير والشر ، ويفاخر بما ينفق من مال كثير ، ومع ذلك لم يقتحم ولم يدخل الطريق الشاق : طريق تحرير العبيد الأرقاء أو طريق إطعام قريبه اليتيم فى يوم مسغبة ومجاعة حين يشتد الجوع ، وحين تشتد الحاجة إلى الطعام . وجعل الله إطعام اليتيم كأنه يساوى فك رقبة أو تحرير عبد حثا على هذا الإطعام لليتامى الفقراء البائسين . ويحض الرسول صلى الله عليه وسلم على الصدقة الكريمة لليتامى الفقراء الأقرباء قائلا : الصدقة على المسكين صدقة واحدة وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة .

ويقول الله – عزَّ شأنه فى سورة الماعون مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلَّم ﴿أرأيت﴾ يا محمد ﴿الذى يكذِّب بالدين﴾ أى بالمعاد والحساب والجزاء والثواب ﴿فذلك﴾ أى فهو ﴿الذى يَدُعُّ اليتيم﴾ أى يدفعه بعنف فى جفوة شديدة . والآيتان تؤذنان بأن الإيمان بالمعاد والبعث من شأنه أن يرقق القلوب وأن يملأها بالعطف والحنو على اليتامى والفقراء . ويدعو الله فى سورة الفجر إلى إكرام اليتيم وحسن معاملته وبره لانكسار خاطره بفقد أبيه ، وإذا كان هذا الإكرام مطلوبا من كل إنسان فإن أجره يتضاعف من الأقرباء ذوى رحمه . وينوه الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع بالبيت الذى يأوى يتيما ويحسن أهله معاملته ابتغاء مرضاة الله ، ويقول إنه خير بيت من بيوت المسلمين لما يأخذون به اليتيم من اللِّين والرفق والمعاملة الطيبة .

٤٥ - إكرام الجار والضَّيف

القرآن الكريم
قال الله تعالى :

١ - ﴿ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾

النساء : ٣٦

٢ - ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

الذاريات : ٢٤ ـ ٢٨

الأحاديث

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : مَنْ يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يَأْمَنُ جارُه بوائقه أى شروره (رواه البخارى فى الأدب) .

٢ — عن ابن عمر والسيدة عائشة رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (رواه البخارى فى الأدب) .

٣ — عن أبى هريرة قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم :مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (رواه البخارى فى الأدب) .

٤ – عن خُوَيلد بن عمرو الخزاعى رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضَيْفه جائزته قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : يومه وليلته . والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه (رواه البخارى فى الأدب ومسلم فى كتاب اللقطة) .

والله فى الآية الأولى يأمر بالإحسان والحنو على الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين ، وعرضنا فيما مر للإحسان والبر بهم جميعا ، ويأمر أيضا بالإحسان إلى الجار ذى القربى ، وكأن مقتضى الإحسان إليه عاملان : الجوار والقرابة وشدَّد الإسلام فى الإحسان إلى الأقرباء توثيقا لعلاقات المودة بين الجيران فما بالك إذا كان من بينك وبينه صلة القرابة جارا لك ، فإن حق الإحسان إليه يتضاعف ويصبح حقين : حق القرابة وحق الجوار . وكأن القرآن ينكر ما يكون أحيانا بين الأقرباء من تنافس وتحاسد ، لأن ذلك يجرُّ إلى البغضاء التى قد تكون أحيانا بين مسلم ومسلم ، وهو يدعو إلى أن تكون بينهما أخوة رفيقة لا تعرف البغض وإنما تعرف المحبة والمودة والرحمة . وذهب بعض المفسرين للآية إلى أن الجار ذا القربى هو الجار القريب الدار ، والجنب بعيدها ، وكلمة القربى لا تستعمل فى القرب المكانى إنما تستعمل فى القرابة بين ذوى الرحم . وأكد الرسول صلى الله عليه وسلم التوصية بالجار مرارا وتكرارا موضحا حقوقه على نحو ما نرى فى الحديث الأول إذ جعل الجار الذى تكثر شروره ودواهيه على صاحبه غير مؤمن لأنه لا يتبع وصايا القرآن للمؤمن ، إذ لا يسدُّ خلة جاره من المؤمنين ولا يحسن معاملته فضلا عما ينبغى له من حقوق عليه .وفى الحديث : مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسنْ إلى جاره ، وعن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصاه إذا طبخ مرقا أن يكثر ماءه ، ثم لينظر أهل بيت من جيرانه ، فيصيبهم منه بمعروف . ويقول : يانساء المسلمين لاتحقرن جارةٌ ما تهديه لجارتها ولو كان ظلف شاة أى تهديها بما تيسر . وقال صلى الله علبه وسلم :الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فأما الجار الذى له حق واحد فالجار المشرك له حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم . وتراه فى الحديث

الثانى يقول : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه أى سيجعل له الجار حق إرثه . والجار فى اللغة الذى يلاصقك فى المسكن ، أما فى الشرع أو الشريعة الإسلامية فأربعون دارا من كل جانب . وهذه الوصايا الكثيرة للجار يراد بها قيام الألفة والمودة بين الجيران .

والآيات التالية من سورة الذاريات تحكى قصة ضيوف إبراهيم الخليل من الملائكة وقد ذكرت فى سورتى هود والحجر . والضيف اسم للواحد والجمع ، ويقال إنهم كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل .والله يقول لرسوله : ﴿هل أتاك﴾ وهو استهلال يدل على أن ما بعده خبر عظيم ، وهو قصة ضيف إبراهيم المكرمين . والوصف بالمكرمين لا لئنَّ إبراهيم الخليل سيكرمهم ، بل لأنهم ملائكة وصفتهم فى القرآن أنهم مكرمون كما فى سورة الأنبياء : ﴿بل عباد مكرمون﴾ وسورة الانفطار : ﴿كرامًا كاتبين﴾ . وتقول القصة إنهم دخلوا عليه ﴿فقالوا سلاما قال سلام﴾ أى أنهم حيوه فرد عليهم تحيتهم ﴿قوم منكرون﴾ أى أنه وصفهم بذلك فى نفسه لأنه لم يعرف لماذا جاءوه ولماذا نزلوا عنده ﴿فراغ إلى أهله﴾ أى تسلَّل إليهم خفية ﴿فجاء بعجل سمين﴾ من خيار عجوله ، وفى سورة هود ﴿فما لبث أنْ جاء بعجل حنيذ﴾ أى مشوى ﴿فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾ فلم يمدوا أيديهم إلى الطعام . ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ أى أحسَّ منهم خوفا ، وأضمر ذلك فى نفسه إذ خاف أن يكونوا مضمرين له شرا ، وظهر ما فى نفسه من خوف على وجهه ﴿قالوا لا تخف﴾ وعرَّفوه بأنفسهم وأنهم ملائكة ﴿وبشروه بغلامٍ عليم﴾ هو ابنه إسحق . والقصة تحمل آداب الضيافة فقد نزل عليه هؤلاء الملائكة فاستضافهم ، وفى رأى بعض العلماء من الأسلاف وجوب الضيافة لمن ينزل عليك .

والآيات تحمل آداب الضيافة ، فإبراهيم يحسن استقبال ضيوفه ويبادلهم التحية وينسلُّ إلى أهله ليحضر طعاما غير مجاهر لهم خشية أن يكفُّوه عن ذلك وشوى لهم عجلا من خيار ماله ، وقرَّبه من مجلسهم ولم يقربه إليه تلطفا منه لهم وإكراما ، بل وضعه بين أيديهم ، وعرضه عليهم قائلا ﴿ألا تأكلون﴾ تتمة للإكرام . وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بإكرام الضيف مرارا وتكرارا كما فى الحديثين الثالث والرابع ، وهو فى الحديث الأخير لا يريد أن يزيد الضيف فى ضيافته على ثلاثة أيام حتى لا يثقل على من نزل عنده ومخافة أن لا يكون عنده ما يضيفه به ويضطر إلى الاستدانة من أجله .

٤٦ – عيادة المرضى – تشييع الجنازات مع الصلاة – زيارة القبور

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ

آل عمران ١٤٥

٢ – فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

النحل ٦١

٣ – وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ

لقمان ٣٤

٤ – كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

العنكبوت ٥٧

الأحاديث :

١ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حق المسلم على المسلم خمس وعدَّ منها : عيادة المريض واتباع الجنائز (رواه البخارى فى كتاب الجنائز ومسلم فى كتاب السلام) .

٢ – عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلَّى عليه وسلم : ليس منا من لطم الخدود أو شقَّ الجيوب . (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا صلَّيتم على الميت فأخْلِصوا له الدعاء (رواه أبو داود) .

٤ – عن بُرَيدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها (رواه مسلم فى كتاب الجنائز ورواه ابن ماجة عن ابن مسعود) .

والرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول يدعو كل مسلم إلى زيارة أخيه وصديقه إذا ألم بهما مرض ، ويجعل له فى هذه المواساة ثوابا عظيما ، ويقول فى حديث له رواه البخارى عن أبى هريرة : إن الله عَزَّ وجَّل يقول يوم القيامة يا بن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنى قال : ياربِّ كيف أعودُك وأنت ربُّ العالمين قال الله : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمت أنك لو عُدْته لوجدتنى عنده . وليس ذلك فى المكان ، فالله مقدس عن المكان والحلول فيه ، وإنما بالعلم ، فعلمه شامل لجميع الموجودات : كما قال : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم﴾ بالعلم ، فعلمه يحيط بكل ما فى الوجود . ولعيادة المريض أو زيارته آداب ، ألف فيها الأسلاف ، منها أن لا يطيل الزائر الجلوس عند المريض إلا إذا طلب منه ذلك أنسًا به ، ويسأل الزائر المريض عن حاله ويرفّه عنه كربه بالمرض ، وأن الله لن يطيله عليه وسيعافيه منه سريعا .

والآية الأولى تذكر أن أحدا لا يعلم وقت موته وانتهاء أجله إلا الله وحده ﴿الذى خلق الموت والحياة﴾ وهو مدبِّر الكون وصاحب الأمر ، وإذا أُراد شيئا يقول له كُن فيكون تَوا ، ويقول جَل شأنه : ﴿وما يعمَّر من معمَّر ولا يُنْقَص مِن عُمُره إلا فى كتاب﴾ . ويقول الله فى الآية الأولى : ﴿كتابا مؤجلا﴾ كما قال تعالى فى سورة الرعد : ﴿لكل أجل كتاب﴾ أى أن كل أجل محدد بوقت فى علم الله كما قال سبحانه فى سورة الحج : ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب﴾ أى فى علم الله .

والآية الثانية تذكر أنه لا إمهال لأحد إذا حل أجله فلا يغرنه تأخير أجله . ويطلق الأجل على الوقت المحدد لحياة الشخص كما يطلق على منتهاه ، وهو فى الآية يمكن أن يكون المراد به أحد هذين المعنيين . وقوله تعالى فى الآية الثانية ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أى

لا يتأخرون عن الأجل ولا يتقدمون والمراد أنه محدد ولا يتأخرون عنه بحال إذ هو مقدر بعلم الله ولا يستطيع أحد تغييره أو تعديله .

والآية الثالثة تنفى دراية النفس بما تكسب غَدًا ، لأن علم ذلك مغيب عنها ، ولا يعلمه إلا الله وهل تكسب خيرا أو شرا وهل تكسب قليلا أو كثيرا ، فعلم ذلك عند الله وحده . وبالمثل لا تدرى نفس بأى أرض تموت ، وهل تموت برا أو بحرا أو جوًّا ؟ وهل تموت فى موطنها أو تموت فى موطن آخر ؟ ولا يدرى شخص متى يموت ؟ فقد يموت غدا أو بعد غد ، فالله وحده هو العالم بذلك كله المختص به جَلَّ جلاله .

والآية الرابعة مثل الآيات السابقة تذكر أن الموت مصير لكل نفس ، فكل من على الأرض فانٍ ، وأينما يكون الإنسان يدركه الموت . وينبغى أن يجعل المسلم هذا المصير نصب عينيه ، فيطيع الله طاعة صادقة مخلصة ، ويأتمر بكل أوامره وينتهى عن كل نواهيه ، إذ الموت لا بد منه ولا مفر ، ثم إلى الله – كما تقول الآية – المرجع والمآب فمن كان مطيعا لله نال أفضل الجزاء وأدخل الجنة ، ومن كان عاصيا نال جزاء عصيانه ، وأدخل النار .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقن بعض الأهل من يموت فى احتضاره شهادة أن لا إله إلا الله ، وعن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة . وفى البكاء على الميت أحاديث كثيرة تجيزه ، ورأى سعد بن أبى وقاص الرسول تفيض عيناه صلى الله عليه وسلم فى وفاة ابن لإحدى كريماته ، فقال له ما هذا يا رسول الله ، قال : هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء . وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم النساء عن لطم الخدود وشق الجيوب كما فى الحديث الثانى .

صلاة الجنازة : يكبِّر المصلى أربع تكبيرات ، يتعوذ بعد الأولى ثم يقرأ الفاتحة ثم يكبر الثانية ويقول اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد . ثم يكبر الثالثة ويدعو للميت وللمسلمين ، ثم يكبر الرابعة ، ويدعو . ومن أحسن الدعاء اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنَّا بعده ، واغفر لنا وله . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث : إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء أى بعد التكبيرة الثالثة ، ومن أحسنه : اللهم اغفر له وارحمه وأكرم نُزله ، وأَبْدلْه دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وأدخله الجنة ، وأعِذْه من عذاب القبر وعذاب النار .

وتستحب كثرة المشيعين للجنازة والموعظة عند القبر ، كما يستحب الدعاء للميت بسؤال الغفران له وأن يقرأ عنده شيء من القرآن ، ولو خُتم القرآن عنده أو فى داره رحمة له كان ذلك حسنا . وتستحب أيضا الصدقة له والدعاء ، وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولدٍ صالح يدعو له .

وتستحب زيارة القبور والدعاء فيها للموتى ، وفى صحيح مسلم عن بُرَيْدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها . وعن بريدة أيضا فى صحيح مسلم : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا – إن شاء الله – بكم لاحقون . وفى صحيح مسلم عن السيدة عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج فى آخر الليل إلى البقيع (مقبرة شهداء بدر وأحد) فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون . غدًا مؤجَّلون ، وإنا – إن شاء الله – بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل البقيع .

٤٧ - فعل الخير

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

البقرة ٢٧٢

٢ - وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ

آل عمران ١١٥

٣ - وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ

المزمل ٢٠

٤ - فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾

الزلزلة ٧

الأحاديث

١ - عن عديّ بن حاتم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تَحْقِرَنَّ من المعروف والخير شيئا ولو أن تُفْرِغ من دلوك في إناء المستسقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط (رواه البخارى) وفى رواية أخرى عن عديّ : ولو بكلمة طيبة .

٢ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى الناس (رواه مسلم) وفى رواية ثانية لمسلم عن أبى هريرة : مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال. والله لأُنحِّيَنَّ هذا عن

طريق المسلمين لا يؤذيهم فأُدْخلَ الجنة . وفى رواية ثالثة لمسلم عن أبى هريرة : بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوكٍ على الطريق فأخَّره فشكر الله له فغفر له (روى مسلم كل ذلك فى كتاب البر) .

٣ – عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يَغْرِس غَرْسًا إلا كان ما أُكِل منه له صدقة ، وما سُرِق منه له صدقة ولا يرزؤه (ينقص منه) أحد إلا كان له صدقة (رواه مسلم) . وفى رواية لمسلم عن جابر : لا يغرس المسلم غرسا فلا أكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة (روى مسلم ذلك فى كتاب المساقاة) :

٤ – عن عبدالله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله ؟ قالوا يارسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحبّ إليه من مال وارثه ، قال إنما مال أحدكم ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر أى من أعمال الخير (رواه البخارى فى كتاب الرقاق) .

والله – جَلَّ شأنه – فى الآية الأولى – يقول للمؤمنين إن كل ما تنفقونه من خير فلأنفسكم لأنه عائد عليكم بأجر ضخم من رب العزة . وإنكم لا تنفقون خيرا قليلا أو كثيرا إلا إبتغاء وجه الله وابتغاء مرضاته ، وإنكم ستوفون يوم القيامة أجر ما تنفقون كاملا لا ينْقص منه شيء ، ولا تظلمون فيه أى ظلم بل ستوفون أجوركم وحقوقكم كاملة . وقد افتتحت الآية بقول الله للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ليس عليك هداهم﴾ أى هدى المشركين والكافرين ﴿ولكن الله يهدى من يشاء﴾ من المشركين وغيرهم . وعن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأن لا يتصدَّق أحد من الصحابة إلا على المسلمين ، فلما نزلت هذه الآية أمر بالصدقة بعدها على كل من سأل صحابيا من أى دين ، فإذا تصدق مسلم على مشرك ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ، وهو لطف عظيم من الله عز شأنه بعباده حتى المشركين الذين يشركون الأوثان والأصنام وآلهتهم فى عبادته .

والآية الثانية تقول إن كل ما يفعله المؤمنون لن يكفروه أى لن يضيع ثوابه عند الله ، بل سيجزون عليه أوفر الجزاء . والخير يشمل كل ما فرضه الإسلام من عبادات ومعاملات طيبة وكل ما فرضه على المسلم من إنفاق على أسرته وذوى الرحم ومن زكاة لمصلحة المجتمع ، سوى ماندب إليه من الصدقة وجميع وجوه البر والخير ، والله يجزى عنها

جميعا الجزاء الأوفى . ومما يصور جزاءه وأنه قد يكون عاجلا فى الدنيا حديث الغار والصخرة الذى مرَّبنا والذى رواه عبدالله بن عمر إذ قال إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن ثلاثة آواهم المبيت فى غار ، وانحدرت صخرة من الجبل سدَّتْ عليهم الغار ، فقالو إنه لا ينجينا من الصخرة إلا دعاء الله بصالح أعمالنا ، فذكر أولهم أنه كان له أبوان شيخان كبيران ، وكان يحلب لهما من أغنامه فى كل مساء لبنا ، وتأخر عنهما يوما فوجدهما نائمين ، فظل بجوارهما ، والقدح على يده ، حتى هلَّتْ تباشير الفجر ، فاستيقظ أبواه ، وشربا اللبن ، واتجه إلى ربه يقول له إننى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة قليلا ، وقال الثانى إنه كان يحب ابنة عم له وأرادها على نفسها ، فأبت إباء شديدا ، وانتهز فرصة حاجتها إلى مال ، فقدم لها المال على أن ينال ما أراد منها ، ولما همَّ برغبته قالت له : اتَّق الله ، فانصرف عنها وترك لها المال ، ودعا ربه قائلا إنه صنع ذلك ابتغاء وجهه وسأله أن يفرج عنهم ماهم فيه ، فانفرجت الصخرة قليلا . وقال الثالث – كما ذكرنا ذلك فى غير هذا الموضع – أنه كان استأجر عمالا فى أداء عمل وأدوه ، وغاب منهم عامل فثمَّر له أجره ، وظل يثمره أو يستثمره سنوات ، حتى استحال إبلا وبقرا وغنما ، وجاءه العامل يساله أجره ، فقال له إننى ثمرت مالك ، وقدم له غنمه وبقره وإبله فاستاقها جميعا . واتجه إلى ربه داعيا أنه فعل ذلك ابتغاء وجهه ، وسال أن يفرِّج عنهم ماهم فيه ، فانفرجت الصخرة نهائيا . والحديث رواه البخارى ومسلم ، ولم أروه بلفظه لطوله ، وهو يصور مدى انتفاع المسلم بأعماله الخيرة الطيبة ، فإنه إذا توسل بها إلى الله تعالى فى شدة أو حالة خطيرة استجاب له وفرَّجها عنه على نحو ما فرَّج عن هؤلاء الثلاثة الكرب العظيم الذى كانوا فيه .

ويقول الله – عزَّ شأنه – فى الآية الثالثة إن كل ما تقدمونه لله من خير وأعمال طيبة تجدون جزاءه عنده ، وهو جزاء مضاعف كما قال ﴿إن تُقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم﴾ . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يترك أى عمل طيب ، مهما كان قليلا ، إلا وينبه على أنه عمل خير يجزى الله عليه ، كما فى الحديثين الأول والثانى فقد رأى رجلا ينعم فى الجنة بنعيمها لأنه نحَّى عن الطريق شجرة تؤذى ، وبالمثل من نحَّى غصن شوك عن الطريق كان يؤذى الناس فإن الله يغفر له ، ويكرر الرسول أن من ينحَّى

الأذى أى أذى عن الطريق يغفر الله له . ونوه طويلا بأن عمل الإنسان لقوته فى أى زراعة أو صناعة أو تجارة يعد من وجوه الخير المثابة ، وما يغرس غرسا كما فى الحديث الثالث ويأكل منه إنسان – ولو سرقة – أو دابة أو طير إلا يؤجر عليه .

ويقرأ الرسول الآية الثالثة ويعلق عليها بالحديث الرابع الذى يقول فيه إن مال الإنسان أحب إليه من مال وارثه ، ويشبِّه ما يقدمه إلى ربه بماله ، ونعم هذا المال المقدم إلى الله ، أما مال الوارث فليس ماله . وهو بذلك يحبب إلى المسلم عمل الخير . ويكاد يجعل كل أعماله النافعة خيرا ، وحتى الكلمة الطيبة يرضى بها الإنسان شخصا يعدها من وجوه الخير المثابة ، وحتى لقاء أخيك بوجه طلق كما فى الحديث الأول تثاب عليه ، وحتى إمساكك عن الشر فى حديث رواه أبو موسى الأشعرى يُعَدّ من وجوه الخير ، وناهيك بإغاثة المحتاج وإطعام الجائع المسكين فإن الأجر على ذلك عظيم .

وكان الصحابة يتحرجون من أن يعطوا الفقير أو المسكين شيئا قليلا ، وكان الفقير يجىء إلى أبوابهم ، فيتحرجون من أعطائه الكِسْرة أى القطعة من الخبز وإعطائه التمرة والتمرتين ، فنزلت الآية الرابعة : ﴿فمن يعمل مثقال ذَرَّة﴾ أى وزن أصغر شيىء ﴿خيرا يَرَه﴾ فإن ذلك يقدر له أجره به مضاعفا ، ونبَّه الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك مرارا ، وكان لا ينى يقول للصحابة : اتقوا النار ولو بشِقّ (نصف) تمرة ، ومن قوله للسيدة عائشة أم المؤمنين : استَتِرى من النار ولو بِشقٍّ تمرة فإنها تسدُّ من الجائع مسدَّها من الشبعان . وكان يقول : يا معشر نساء المؤمنين لا تحقرن جارة ما تعطيه لجارتها الفقيرة ولو فِرْسِنَ شاة أى حافرها ، يريد أن لا تمتنع جارة مسلمة من إهدائها إلى جارتها المحتاجة شيئا عندها تحتقره أو تظنه قليلا ، فيقول بنبغى أن تجود على جارتها بما تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة .

القسم الثالث
أسس أخلاقية



٤٨ - الإخلاص مع النِّيَّة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

الأعراف ٢٩

٢ - قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾

الزُّمر ١٤

٣ - هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

غافر ٦٥

٤ - وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

البينة ٥

الأحاديث

١ - عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نَوَى (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة والترمذى) .

٢ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (رواه مسلم فى كتاب البر والآداب) .

٣ – عن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (حديثا قُدْسيا) فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بَيَّن ذلك . فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عَشْر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة ، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة (رواه البخارى فى الرقاق ومسلم فى الأعمال) .

٤ – فى رسائل ابن تيمية الكبرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله : لاقونى بنياتكم ولا تلاقونى بأعمالكم .

والله – عزَّ شأنه فى الآية الأولى يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس إن الله أمر بالقسط أى العدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يقيموا وجوههم ﴿عند كل مسجد﴾ أى يقبلوا على عبادته فى كل مكان متَّخذ لعبادته ﴿وادْعوه مخلصين له الدين﴾ أى اعبدوه عبادة خالصة له أى صافية وخالية من إشراك غيره معه . والدين فى هذه الآية والآيات التالية بمعنى الطاعة من قول العرب : دان لفلان أى أطاعه . ويأمر الله رسوله فى الآية الثانية أن يقول إننى لا أعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصا له دينى وطاعتى وعبادتى . وخير ما يصور هذا الإخلاص فى طاعة الله وعبادته حق عبادته قول الله فى سورة الأنعام لرسوله : ﴿قل إن صلاتى ونُسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ فصلاته ونسكه أو عبادته ومحياه أى كل ما يأتيه من عمل فى الحياة وما يكون عليه موته أى حتى النفس الأخير ، كل ذلك يقدمه إلى ربه خالصا لوجهه .

والآيات الأربعة تدعو الرسول والمسلمين إلى هذا الإخلاص فى عبادة ربهم بحيث يكون نقيا من كل شائبة ابتغاء وجه الله وطلبا لرضاه ، وهو بذلك إخلاص قلبى ، يجتمع فيه العمل واكتمال النية . والأحاديث الأربعة تفيض فى بيان النية حتى يجعلها الرسول فى الحديث الأول مبدأ عاما للحياة الدينية فى الإسلام ، فكل عمل فيها إنما يقدر – أو لا يتم – إلا بالنية التى تصحبه ، والمسلمون يرددونها مع كل عبادة : فى الصلاة والصيام والزكاة والحج ، إذ هى دليل الإخلاص وعنوانه ، وبدونها لا يتحقق عمل أبدا ولا يُعْتَدُّ به شرعا كما يقول الحديث الأول : وإنما لكل امرئ ما نوى ، فجزاؤه على عمله بقدر نيته . وبذلك تخرج العبادة التى يخالطها الرياء سواء أراد بها المتعبد أن يراه الناس ، وقد ذم الله هذه الصورة فى

القرآن مرارا ونعت بها المنافقين ، أو أراد بها التقرب إلى الله مع مخالطتها بالرياء فإن العبادة إذن تحمل حظا لغير الله ، فلا تكون خالصة لوجهه ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الرياء الشِّرْك الأصغر » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم » والنظر فى الحديث مجازى ، إذ المراد به الجزاء أى أنه لا يجزى الناس ولا يثيبهم حسب أجسامهم وصورهم ، فذلك ظاهر منهم لا يهمه إنما يهمه منهم قلوبهم ومقاصدهم ونياتهم ، فهى التى تقدَّر بها عباداتهم وأعمالهم الشرعية .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث القدسى الثالث « إن الله كتب الحسنات والسيئات » أى علمها علما مرافقا لواقعها ، وبَيَّن الله ذلك « فمن همَّ بحسنة » وعزم عليها وصمَّم ، ثم لم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وهو كرم عظيم من الذات العلية ، وكأنه جزاه على نيته وحدها دون قيامه بعمل الحسنة . « وأن هم بها » أى نواها وصمم عليها « فعملها » وأداها مطابقا بين النية بها وعملها « كتبها الله عنده » أى جزاه عليها « عشر حسنات » كما قال فى سورة الأنعام ﴿مَنْ جاء بالحسنة فله عَشْر أمثالها﴾ ويقول الرسول : « إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة كما قال الله فى سورة البقرة : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حَبَّةٍ أنبتتْ سبعَ سنابل فى كل سُنْبلة مائة حَبَّة والله يضاعف لمن يشاء﴾ .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وإن همَّ بسيِّئة « فلم يعملها » ابتغاء وجه ربه لا عجزا ولا خوفا ولا رياء « كتبها الله عنده حسنة كاملة » وهو لطف عظيم من الله أن يعد امتناع العبد عن عمل السيئة خيرا ويجزيه عليه بحسنة كاملة « وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيِّئة واحدة » فلا يُجْزَى إلا مثلها كما قال الله فى سورة الأنعام : ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثلها وهم لا يُظْلمون﴾ . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى أول هذا الحديث إن الله يجزى على النية وإن لم يتبعها العمل ، وهو ما يؤكده الحديث الرابع الذى يقول الله فيه : « لاقونى بنياتكم ولا تلاقونى بأعمالكم » فالنية الصادقة الصادرة عن قلب المؤمن هى الأساس وهى التى يثاب بها المؤمن الصالح إذ هى الدافع لعبادته وأعماله .

٤٩ – العِزَّة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾

البقرة ١٢٩

٢ – ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾

آل عمران ٢٦

٣ – ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾

فاطر ١٠

٤ – ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

المنافقون ٨

الأحاديث

١ – عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تَدْرِينَ لِمَ كان قومُك رفعوا باب الكعبة ؟ قلت : لا قال تعززا أن لا يدخلها إلا مَنْ أرادوا (رواه مسلم فى كتاب الحج) .

٢ – عن أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ألا لا تمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول الحق إذا رآه أو شهده ، فإنه لا يقرِّب من أجل ولا يباعد من رزقٍ أن يقول الحق (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

٣ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ قال يتحمل من البلاء ما لا يطيق (رواه ابن كثير وقال : ثبت فى الصحيح) .

٤ – قال عبد الله بن أبىّ المنافق فى غزوة بنى المصطلق : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها (يريد أهلها من الأنصار) الأذلّ (يريد الرسول والمهاجرين) ولما وصلوا إلى المدينة استلّ عبد الله ابنه سيفه ، فلما جاء أبوه قال له لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله ، فأذن له ، وقال لابنه ترفَّقْ بأبيك وأحسنْ صحبته ما بقى معنا (روته كتب التفسير فى سورة المنافقين وكتب السيرة النبوية فى غزوة بنى المصطلق) .

وتحمل الآية الأولى لفظة (العزيز) وهى من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى وهو القوى الغالب لكل شىء من العز ، وهو القوة والشدة والغلبة ، ومنه العزة وهى الرفعة والامتناع ، والأصل فى ذلك كله العَزاز والعزز وهى الأرض الصلبة ، ومن أسماء الله المعز ، وهو الذى يهب العزة لمن يشاء من عباده . وفى الحديث الموجه للسيدة عائشة إن أهلك رفعوا باب الكعبة تعززا أى تشددا وإظهارًا للغلبة والقوة . والعزيز : القوى الذى لا يغلب ، ومنه فى وصف القرآن الكريم بسورة فصِّلت : ﴿وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أى لا يأتيه الباطل من أى جهة من جهانة لأنه منزل من رب العالمين .

والله – تبارك اسمه – فى الآية الثانية يوجه الخطاب للرسول وهو موجَّه له ولأمته (اللهم) تقال فقط فى الدعاء أى يا ألله أغْدِقْ علينا من نعمك إنك ﴿مالك الملك﴾ أى المتصرف فى الملك والكون جميعه ، تدبره أعظم تدبير ﴿تؤتى الملك من تشاء﴾ وتعطيه له عطاء ربانيا ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ وتأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وتعزُّ من تشاء﴾ فتهب له العزة والمنعة والقوة ﴿وتُذِلّ من تشاء﴾ فتهوى به فى مهاوى الذل والهلاك والحرمان ﴿بيدك الخير﴾ جميعه ، تمنحه وتمنعه من تريد ، لا رادَّ لإرادتك ولا لخيرك ولا لإعطائك ، فأنت المعز المذل ، الرافع الخافض الذى ينبغى أن لا يعوِّل أحد فى خفض ورفع وذل وعز إلا عايه ولا يرهب سواه . ويوصى الرسول – صلى الله

عليه وسلم – مرارا المسلم كما فى الحديث الثانى أن لا يرهب أحدا فى قول الحق ، فإن قوله لا يقرِّب من موت ولا يباعد من رزق بل إن واجبه أن يعلنه إعلانا لا يخشى فيه لوم لائم حتى ينال رضا ربه ورضا الناس من حوله .

والله – جَلَّ شأنه – فى الآية الثالثة – يقول إن من يعرض عن الإسلام يخال فى ذلك تمسكا بعزته فتخيله أو خياله باطل ، إذ العزة الحقيقية إنما هى لله صاحب العزة القاهرة ، من عَزّ الشخص إذا غلب وسيطر . فهو المسيطر على الوجود وكل من فيه ، سيطرةً لا يستطيع أحد دفعها ولا معارضتها أو ممانعتها ؟ . وقيل العزيز من عز بمعنى ندر وقلّ ، والله عديم المثل فى القدرة والسلطان ﴿ليس كمثله شىء﴾ . ويقول الغزالى : العزيز هو الخطير الذى يقلّ وجود مثله ، وتشتد إليه الحاجة ويصعب الوصول إليه ، وكم من شىء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره ، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه فإنه لا يسمى عزيزا كالشمس مثلا ، فإنها لا نظير لها ونفعها عظيم والحاجة إليها شديدة ولكن لا توصف بالعزة ، إنما العزيز الله وحده الذى يستحيل وجود مثله بينما يحتاج إليه كل موجود فى وجوده وبقائه وما من مسلم إلا ويستشعر به العزة لنفسه . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث إنه ينبغى للمسلم أن لا يذل نفسه فسأله الصحابة وكيف يذلّ نفسه ، فأجاب : يتحمَّل من البلاء ما لا يطيقه ويرتضيه فيستشعر بذلك ذلا ، لا يماثله ذل .

وكان السبب فى نزول الآية الرابعة أن عبد الله بن أُبَى بن سَلول قال : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ (أى الأنصار) منها (أى من المدينة) الأذلَّ (أى المهاجرين) . وذلك بسبب شر وقع بين جهجاه الغفارى أجير عمر بن الخطاب وبين سنان بن وَبر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج ، ونادى جهجاه الغفارى : يا للمهاجرين ، ونادى سنان الجُهَنى يا للأنصار ، وعلّق عبد الله بن أبىّ تعليقه السالف ، وبلغ تعليقه أو مقالته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشاع ذلك عنه ، فتبرأ منه ابنه عبد الله ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا رسول الله أنت – والله – الأعز ، وإن شئت والله لنخرجنّه من المدينة . وفى رواية ثانية أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ بن سلول قال : يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت تريد ذلك فمُرْنى بقتله ، فإنى أخشى

يا رسول الله إن قتله غيرى أن لا أصبر عن طلب الثأر فأقتل به مسلما فأدخل النار ، وقد علمت الأنصار أنى من أبرِّ أبنائها فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خيرا ودعا له وقال له : بِرَّ أباك ، ولا يرى منك إلا خيرا . ويقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما سمع أن المتخاصمين دعوا : يا للمهاجرين ويا للأنصار قال ما بال دعوى الجاهلية القائمة على التعصب عادت ، وقال : دَعُوها فإنها منتنة . ومعروف أن الإسلام أبطل كل الدعوات الجنسية والعصبية ، وقال عمر بن الخطاب : دَعْنى – يا رسول الله – أضربْ عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَعْهُ لا يتحدَّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه . ويجرِّد الله عبد الله بن أبى وأمثاله من المنافقين من كل عزة قاصرا العزة عليه وعلى رسوله وعلى المؤمنين أما لله فلأنه صاحب العزة والقوة والسيطرة التامة على الكون ومخلوقاته ، وأما للرسول فبما منحه الله من الرسالة النبوية التى تهب الناس السعادة فى الدنيا والآخرة ، وأما للمؤمنين فبما أعطاهم من نصر على المشركين ، وبما أعزَّهم به من طاعة له واستهانة بالشهوات وملذات الدنيا الفانية .

٥٠ – الصِّدْق – النُّصْح

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾

المائدة ١١٩

٢ – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

التوبة ١١٩

٣ – ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

الأحزاب ٣٥

٤ – ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

الأعراف ٦٨

الأحاديث

١ – عن الحسن بن علي بن أبي الطالب رضى الله عنهما : حَفِظْتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة (رواه الترمذى ورواه ابن حنبل فى مسنده عن أنس)

٢ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ الصدق يَهْدى إلى البرِّ ، وإن البرَّ يهدى إلى الجنَّة ، وإن الرجل ليَصْدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب البر) .

٣ – عن تميم بن أوس الدارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة ،

قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٤ - عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء للزكاة والنُّصْح لكل مسلم (رواه البخارى فى كتاب الإيمان) .

يبشر الله فى الآية الأولى عباده الصادقين الموحدين له بأن يوم القيامة يوم نفعهم بصدقهم وتوحيدهم له ، إذ يجزيهم الجزاء الأوفى لصدقهم ، فيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يخلدون فيها خلودا أبديا . ويصفهم الله فى نفس الآية بأنه رضى عنهم هذا الرضا الذى يتمناه الأتقياء الأبرار ، ويشفع ذلك بأن الصادقين كما رضى عنهم رضوا عنه ، وهو إكرام من الله ما بعده إكرام . ورضاهم عنه كناية واضحة عن كثرة إنعامه عليهم وتوالى ذلك حتى طابت نفوسهم . وبحق تقول الآية فى خاتمتها : ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ وهو فوز لا يتمنى المسلم الصادق فوزا وراءه ، فوز يملأ نفسه أمنا وطمأنينة . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم لحفيده الحسن ناصحا : « دَعْ ما يريبك » ويدخل الشك على نفسك « إلى ما لا يريبك » ويدخل الطمأنينة النفسية عليك أى دع الكذب إلى الصدق ، فإنه يريح النفس ويشعرها بالأمان . ومما يروى فى قصص العرب تحبيبا فى الصدق وتنفيرا من الكذب أن صبيا كذابا كان يرعى غنم أبيه ، وسوّل له الكذب أن يصرخ فى قريته أن ذئبا عدا على غنمه فخرجت القرية لترد الذئب ، وإذا هى تجد الصبى كاذبا ، ومرَّت أيام وإذا ذئب يعدو على غنمه ، فصرخ فى أهل قريته مستنجدا بهم ، غير أنهم ظنوه يكذب فى صراخه الثانى كما كذب فى صراخه الأول فلم ينجده أحد . وتلك عاقبة الكذب وكيف أنه يعود على صاحبه بخسران محقق ، سوى خسرانه لكرامته ومروءته وسط أهله ووسط عارفيه من قريته وغير قريته ، مما يجعل الناس تنفر منه وتزورُّ عنه ، بينما الرجل المعروف بالصدق تودُّه الناس وتقبل عليه وتأنس له أنسا متصلا .

ويقول الله - جَلَّ شأنه - فى الآية الثانية : ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ أى كونوا أيها المسلمون مع من يتخذون الصدق شعارهم ولم يعدلوا عنه يوما . والمراد الصدق فى العقيدة الإسلامية ، فهم يأتمرون بما أمر الله به من عبادات وما حذَّر منه من منهيات عن اقتناع عميق تتعانق فيه الأدلة العقلية والشرعية ، وهم - بذلك - مسلمون صادقون . وهم

لا يقولون إلا الكلام اللين الطيب الذى يستروحه السامعون ، وإذا تحدثوا صدقوا فى حديثهم . وهم بذلك أصفياء النفوس والقلوب .

ويبشر الله فى الآية الثالثة الصادقين والصادقات بأن لهم مغفرة إلهية لما فرط من ذنوبهم وأجرا عظيما ، هو ما ذكرناه منذ قليل من جنات يخلدون بها خلودا أبديا . والوصف بالصدق هنا يشمل الصدق مع النفس مما يتصل بالطهر والإخلاص والصدق مع الله فى الوفاء له بالإيمان المخلص لذاته وللملائكة والرسل والكتب السماوية واليوم الآخر وبأداء فروضه من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، والصدق مع الزوجة والأبناء والأسرة فى أداء مطالبهم ، والصدق مع غيرهم فى جميع الالتزامات والعقود والمعاملات ، مع التحلى بمحامد الآداب والأخلاق . وإلى ذلك كله أشار الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث إلى أن الصدق يهدى إلى البرِّ ، والبر هو الخير الكامل الذى يشمل جميع مقاصد الشريعة أو أكثرها كما جاء فى آية ﴿ليس البِرَّ﴾ من سورة البقرة ، فقد شمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والتصدق بالأموال على الفقراء والمساكين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر ، ووصف الله فى ختام الآية من يقومون بذلك كله بأنهم : ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ فى إسلامهم . ويقول الحديث إن البر يهديهم إلى الجنة جزاء أوفى لصدقهم ، كما يقول إن الرجل ليظل يصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا أى مبالغا فى الصدق مكثرا منه ، والرسول صلى الله عليه وسلم يشير بذلك إلى آية سورة النساء : ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا﴾ وهو جزاء للصِّدِّيق لا يماثله جزاء ، إذ وضعه الله فى سجلّ مَنْ أنعم عليهم من النبيين والشهداء والصالحين .

والنصح للمسلمين من الخصال الإسلامية الرفيعة ومن سنن المرسلين القويمة ، فقد قال نوح لقومه إننى مرسل إليكم من ربِّ العالمين ﴿أبلِّغكم رسالاتِ ربِّى وأنصح لكم﴾ . والنصح والنصيحة إرادة الخير – مع حسن النية – فى تنبيه الشخص إلى ما يعود عليه بالنفع مع دفع المضرة عنه .ويقول الله فى الآية الرابعة على لسان هود لقومه عاد : قد بلَّغتكم رسالات ربى ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ أى سأظل لكم ناصحا أمينا أؤدى ما كلَّفنى الله بتبليغه إليكم أداء أمينا أمانة تامة لا أضيِّع منه شيئا . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث

الرابع : الدين النصيحة ، وسُئل لمن النصيحة ، فقال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

والنصيحة لله وصفه بما يستحقه ،وتنزيهه عما لا يليق به ، وتعظيمه وطاعته ظاهرا وباطنا ، وعمل ما يحبه ويرضى عنه ، والبعد عما يسخطه ويغضبه ، وموالاة مَنْ أطاعه ومعاداة من عصاه . والنصيحة لكتابه إحسان تلاوته وتفهم معانيه ، والإخلاص لأوامره ونواهيه ، قال الله تعالى :﴿كتابٌ أنزلناه إليك مبارَك ليدَّبَّروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب﴾ . والنصيحة للرسول صلَّى الله عليه وسلم بنَصره ومؤازرته فى حياته واتباع شريعته وسنته وتعاليمه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، مع التخلق بأخلاقه الرفيعة وخصاله الكريمة . والنصيحة لأئمة المسلمين : عَوْنهم على ما ينهضون به من مصالح الأمة ، والإخلاص فى إرشادهم عند الحاجة . والإخلاص لعامة المسلمين : الشفقة على ضعفائهم من الشيوخ واليتامى والنساء ، والرحمة بفقرائهم ، ومدّ يد البِرِّ لهم ، وتفريج كروبهم ، والمساعدة فى كل ما يعود على أفراد الأمة بالخير .

وكان مما يأخذ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم البَيْعة لاعتناق الإسلام – كما فى الحديث الخامس : النُّصْح لكل مسلم مما يشمل مصالح الأفراد ومصالح الأمة ، وكان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يقول : رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى . وقد تكون جرعة النصيحة مرة ، ولكن العاقل يتقبَّلها كما يتقبَّل جرعة الدواء لعاقبتها الحسنة ، وقال عمر بن عبد العزيز لميموَن بن مهران : قل لى فى وجهى ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حقا حتى يقول له فى وجهه ما يكره . ومما يقال وَدُّك من نصحك ، وغشك من مشى فى هواك .

٥١ – التواضع – الحياء

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾

الشعراء : ٢١٥

٢ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

المائدة : ٥٤

٣ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ

الحجرات : ١٣

الأحاديث

١ – عن عياض المجاشعي التميمي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يَبْغى أحد على أحد (رواه مسلم فى كتاب الجنة ونعيمها وأبو داود وابن ماجة جميعا عن عياض) .

٢ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب) .

٣ – وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان) .

٤ – عن أبى مسعود الانصارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت (رواه البخارى) .

والله – عزَّ شأنه – يطلب من رسوله فى الآية الأولى أن يتواضع للمؤمنين ويرفق بهم ، واستعارت الآية للتعبير عن ذلك خفض الجناح من الطائر ،وأصله أن الطائر إذا أراد ضمَّ فرخه إليه بسط له جناحه ثم قبضه عليه ، والجناحان من الشخص جانباه ، وكأنه يقول لرسوله : ليِّن جانبك للمؤمنين ، وارؤفْ بهم وتواضَعْ لهم ، إذ بذلك يحبونك ويلتفون حولك . وكان شديد التواضع لصحابته ، ويقول خادمه أنس بن مالك إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيده ، فتنطلق به حيث شاءت ليقضى لها حاجة تريدها . ويحكى الصحابة وزوجاته عن تواضعه الشديد حكايات وأمثلة كثيرة . وتبعه الصحابة يقتدون به فى تواضعه ، وكان يوصى به الصحابة دائما ويقول لهم – كما فى الحديث الأول إن الله أوحى إليه – إما إلهاما وإما برسالة عن طريق جبريل – أن تواضعوا أيها المسلمون ، والتواضع يكون لله بتعظيمه ، أما للناس فمنه محمود ومنه مذموم ، والمحمود منه يدخل فيه التواضع للأهل وللعلماء وأصحاب العمل الصالح ، وهو تواضع لله ، أما التواضع لأهل الظلم فذلك ذل ما بعده ذل . وينهى الرسول فى الحديث عن التفاخر بالآباء والأعمال كما ينهى عن البغى والظلم المفسد للحياة .

ويُطَمْئِنُ الله فى الآية الثانية الرسول والمسلمين بأنه إذا كان بينهم من لايزال فى قلوبهم مرض وشك فى الدين الحنيف وارتدوا فعلا عن الإسلام وعادوا إلى ما كانوا فيه من الشرك ﴿فسوف يأتى الله بقوم﴾ غيرهم يعتنقون هذا الدين العظيم راغبين فيه مخلصين له يحبهم الله ويرضى عنهم ويحبونه فيطيعونه ويعبدونه ويعظمونه حق تعظيمه ، ويصفهم الله بأنهم ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أى متواضعون لهم تواضعا كريما كله رقة ورأفة ومحبة ورحمة ومودة ﴿أعزة على الكافرين﴾ أى يشعرون إزاءهم بالعزة والقوة وأن لهم الغلبة . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى : ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ، أى فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه يضع فى قلوب الناس محبة له فيبجّلونه ويعظمونه وينزلونه فى نفوسهم منزلة كريمة ، وأما فى الآخرة فإن الله يجزيه عن تواضعه جزاءً حسنا ، ويدخله جنته .

ويخاطب الله الناس فى الآية الثالثة قائلا إنه خلقهم جميعا من ذكر وأنثى هما آدم وحواء أبو البشر ، فأنتم بذلك متساوون فى النسب والأبوة ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ أى لا ليفخر بعضكم على بعض ولا ليشعر بعضكم بالاستعلاء على بعض بل إنه ينبغى لذلك أن يتواضع بعضكم لبعض ، ويعرف كل منكم أخوته لغيره ، فلا يفخر عليه ولا يتطاول بل يخفض له جناحه ويرفق به . ويستضيء الرسول بهذا النسب الواحد للبشر فى إلغاء العنصرية والتفاضل بين الأمم والناس فى خطبة حجة الوداع ، ويرد التفاضل - كما فى الآية - إلى التقوى قائلا : « يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى » . والله ورسوله بذلك يدعوان إلى المساواة بين الشعوب والناس فلا تفاخر ولا شعور بصلف أو استعلاء ، إنما تواضع وتساوٍ وتعايش سليم .

وينوِّه الرسول مرارا بخلق الحياء ويحثّ عليه لأنه يحجب صاحبه عن الفواحش والمعاصى ويدفعه إلى أن لا يأتى من الأقوال والأفعال إلا ما كان حسنا طيبا ، مع إيثار كل ما فيه خير ورفض كل ما فيه شر . وهو من شيم الرسول الرفيعة إذ كان - كما ذكر المحدِّثون - أشدَّ حياء من العَذْراء فى خِدْرِها أى بيتها ، وأنه كان إذا رأى شيئا يكرهه لم يتكلم حياء ، بل يتغير وجهه ، فيفهم الصحابة كراهته لذلك . ويقول - كما فى الحديث الثالث - الحياء شعبة من الإيمان أى أنه جزء منه لمنعه الإنسان من المعاصى كما يمنعه الإيمان الصادق . وللحياء ثلاثة فروع : حياء من الله وحياء من الناس وحياء صاحبه من نفسه ، فأما الحياء من الله فيكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ،وهو بذلك يحمل صاحبه على الإخلاص فى عبادة الله وتقواه . والحياء من الناس يكون بكف الأذى عنهم وأداء حقوق كل من له حق عليه من مثل بر الوالدين والإنفاق على الزوجة والأبناء وصلة الأقارب .ومن الحياء من الناس الامتناع عن المجاهرة بكل قبيح من قول أو فعل ، ومن قول الرسول : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى (أى الأنبياء السابقين) إذا لم تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شئت » أى إذا لم تستح من إتيان القبيح قولا أو فعلا فاصنع منه ما شئت . والحديث بذلك تهديد وتوبيخ لمن ينضب ماء الحياء من وجهه . ويمكن أن يوجَّه الحديث توجيها آخر ، وهو أنك إذا أردت فعل شيىء وكنت آمنا فيه من أن

تستحى من الله ومن الناس وأنك تجرى فيه على طريق سليم فافعل ما شئت ، وإلاَّ فلا تفعله ، والحديث بذلك يكون الأمر فيه للإباحة كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما أحببت أن تسمعه أذناك فأْته وما كرهت أن تسمعه أذناك فاجتنبه » . والمعنى الأول للحديث وهو أن الأمر فيه للتهديد لا للإباحة أصح من المعنى الثانى . وأما الحياء من النفس فيكون بالتزام العفة وصيانة الفكر عن خواطر المعاصى والشهوات مع محبة عمل الخير وقوله ، ومع حسن السريرة .

٥٢ – العفاف

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

البقرة : ٢٧٣

٢ – وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ

النساء : ٦

٣ – وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ

النور : ٣٢ و ٣٣

٤ - ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾

النور : ٦٠

الأحاديث

١ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده التمرة والتمرتان ،واللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفَّف ، واقْرَءوا إن شئتم قوله تعالى : لا يسألون الناس إلحافا (رواه البخارى) .

٢ - عن رجل أنه جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : إن عندى يتيما عنده مال وليس لى مال هل آكل من ماله ؟ قال كُلْ بالمعروف غير مسرف (رواه أبو داود والنسائى) .

٣ - عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (أى القدرة على الزواج) فليتزوَّج فإنه أغضْ للبصر وأحصن للفرج ، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاءٌ (أى وقاية) (رواه البخارى ومسلم) .

٤ - عن حكيم بن حزام أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: اليَدُ العُلْيا خير من اليد السُّفْلَى ،وأبْدَأْ بمن تعولُ ، وخير الصدقة عن ظهر غنِىً ، ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يعفَّه الله ، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنه الله (رواه البخارى ومسلم) .

المراد بالفقراء فى الآية الأولى المهاجرون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم بمكة وجاءوا المدينة دار الهجرة ، ويقول الله إنهم ﴿ أُحْصِروا﴾ فى سبيل الله أى حُبسوا للجهاد مع رسول الله وكانوا يخرجون للغزو فى السرايا التى كان يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزلهم الرسول فى رواق ألحقه بمسجده كان يسمى الصفَّة ، ولذلك يسمون أهل الصفة ، ويقول الله إنهم ﴿لا يستطيعون ضربا فى الأرض﴾ أى سيرا فيها للتجارة لضيق ذات يدهم ، ويقول : ﴿يحسبهم الجاهل﴾ بأمرهم وحالهم ﴿أغنياء من التعفف﴾ وهو

النزاهة عن السؤال : ونهى الرسول الفقراء من صحابته مرارا وتكرارا عن سؤال الناس مالا أو شيئا ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ خطاب لكل شخص أى تعرفهم بالعلامات الدالة على فقرهم وحاجتهم دون أن يتعرّضوا لك بالسؤال ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾ أى إلحاحا فهم لا يلحون فى السؤال إن سألوا . والأولى أن يكون المعنى لا يسألون الناس مطلقا بدليل قوله تعالى : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول : ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان بسؤاله الناس إنما المسكين الذى يتعفف واقرءوا قوله تعالى : ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾ . ويقول الله حاضا على الإنفاق على أهل الصفة من الفقراء المتعففين عن السؤال : ﴿وما تنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليم﴾ أى أنه عليم به وجزاؤه عنده عظيم .

والآية الثانية موجهة إلى الأوصياء على أموال اليتامى وأنه ينبغى عليهم حين يأتى الوقت على اليتيم من مقاربة البلوغ ونضج العقل وقرب أن يصبح راشدا أن يبتليه الوصى ، وهو قوله تعالى : ﴿وابتلوا اليتامى﴾ أى يختبر الوصى اليتيم بتصرفه حينئذ فى بعض ماله ليرى بوضوح قدرتَه على التصرف به . وواضح من قوله تعالى بعد ذلك ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ أى الزواج أنَّ وقت اختبار اليتيم بتصرفه فى بعض ماله يكون بعد التمييز وقُبَيْل البلوغ . ويقول الله إنهم حين يبلغون ﴿فإنْ آنستم﴾ أى علمتم ﴿منهم رشدا﴾ أى تصرفا سليما فى المال وحسن تدبيره ﴿فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا﴾ أى إفراطا فى إنفاقها على اليتيم فى ثيابه وطعامه ومسكنه ومركبه ، حتى إذا بلغ الرشد لم يجد مالا ينتفع به ويتعيش منه بالتجارة أو غيرها . يشير إلى ما كان يصنعه بعض الأوصياء من أكل أموال اليتامى إسرافا ﴿وبدارا﴾ أى مبادرة قبل ﴿أن يكبروا﴾ وتُرَدّ عليهم أموالهم . ﴿ومن كان غنيا﴾ من الأوصياء ﴿فليستعفف﴾ عن أخذ شيىء من مال اليتيم : وقيل الأمر ليس للوجوب بل للندب فيأخذ أجر مثله ﴿ومن كان﴾ من الأوصياء ﴿فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قيل أى أجرة مثله وقيل قدر حاجته . وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى وصيًّا فقيرا سأله هل يأكل من مال يتيم وصىٌّ عليه ، فقال له : كُلْ بالمعروف غير مسرف .

والآية الثالثة حض على الزواج والتزويج ، والأيامى جمع أيِّم وهى المرأة لا زوج لها

بكرا أو ثيبا ، والله جَلَّ شأنه يحض على تزويج الحرائر من المسلمات إذ يقول : ﴿ وأنكحوا﴾ أى زوِّجوا ﴿الأيامى منكم﴾ أى الحرائر ، وبالمثل زوِّجوا ﴿والصالحين من عبادكم﴾ قيل أى عبيدكم ﴿ وإمائكم﴾ فالله يأمر بتزويج الأحرار والعبيد . وقيل ﴿ الصالحين﴾ فى الآية ليست من الصلاح بمعنى التقوى وإنما المراد الصلاح للتزوج بمعنى القيام بحقوق الزواج . وذهب بعض الفقهاء إلى أن الآية توجب على كل من قدر من المسلمين على الزواج أن يتزوج مستدلين بالحديث الذى يخاطب فيه الرسول الشباب بقوله : من استطاع منكم الباءة أى القدرة على الزواج فليتزوج . ويعد الله المتزوجين من الفقراء أن يغنيهم من فضله ، وهو وعد لا يتخلف ، لسعة فضله وآلائه على البشر ، ثم يقول عزَّ شأنه : ﴿ولْيَسْتعفف الذين لا يجدون نكاحا﴾ أى زواجا وقدرة عليه ، وهو أمر إلهى بالتعفف عن الحرام ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ وعطائه الذى لا حد له . ويوصى الرسول صلى الله عليه وسلم من لا يستطيعون الزواج فى الحديث الثالث بالصوم فإنه لهم وقاية عظيمة .

والآية الرابعة خاصة بالقواعد من النساء أى المتقدمات فى السن ﴿اللائى لا يرجون نكاحا﴾ أى لا يطمحن إلى الزواج فإنه لا جناح عليهن فى أن يتخففن من ثيابهن ﴿غير متبرجات بزينة﴾ أى غير قاصدات بالتخفف من ثيابهن تبرجا وتكشفا لما عليهن من الزينة مثل بعض الحلى يقول الله : ﴿وأن يسْتعففن خير لهن﴾ أى أن إبقاء ثيابهن عليهن وعدم خلعها طلبا للاستعفاف والعفَّة خير وأفضل لهن .

وواضح أن القرآن الكريم حضَّ على التعفف والعفة عن سؤال المحتاج مستعينا بالصبر آملا فى الفرج من عند الله ، كما حض على العفة والتعفف عن أخذ أموال اليتامى نهبا واغتصابا ، وأيضا فإنه حض على وجوب العفة والتعفف عن شهوات النفس ، وافتتانها بالنساء ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع : مَنْ يستعفف يُعفّه الله أى يرزقه العفَّة فى كل شيء : فى القول والفعل وفى كل ما يأتى من الأمر .

٥٣ - الحلم

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾

هود ٧٥

٢ - وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ

آل عمران ١٣٤

٣ - فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

الحجر ٨٥

٤ - وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

فُصِّلَتْ ٣٤

الأحاديث

١ - عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمنذر بن عاذل فى وفد عبد القيس الملقب بالأشج لجراحة كانت فى جبهته : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٢ - عن معاذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة) .

٣ – عن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله (رواه البخارى) .

٤ – عن أبى هريرة أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أَوْصِنِى قال لا تَغْضب وردَّد الرجل طلب الوصية ، والرسول يقول : لا تغضب (رواه البخارى فى كتاب الأدب) .

والآية الأولى يمدح فيها الله – تقدَّس اسمه – خليله وحبيبه النبى إبراهيم بصفة من صفاته التى كررها فى القرآن كثيرا فى مثل : ﴿إن الله غفور حليم﴾ ومثل : ﴿إن الله لعليم حليم﴾ . والحلم عفو وصفح عن عدوان السفهاء ، والحليم لا يستفزّه التقصير فى حقه ، ولا يغضب إذا تناوله شخص بقدح أو ذم ، وقد حلم إبراهيم أعظم حلم حين هيأ له قومه حطبا كثيرا وأوقدوا فيه النار ، وقذفوا به فى النار ، كل ذلك وهو كاظم غيظه إلى أن قال الله للنار : ﴿كونى بردا وسلاما على إبراهيم﴾ . ونجاه الله منها دون أن يصيبه أى أذى . وقصة ابنه إسحق أو إسماعيل مشهورة ، وذلك أن إبراهيم قال لابنه كما فى القرآن الكريم . ﴿يابُنَىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ وبلغ ابنه ذروة الحلم قائلا لأبيه إبراهيم : ﴿يا أبت افْعلْ ما تُؤْمَرُ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ . وصمَّم إبراهيم على ذبح ابنه ، فأخذه وأخذ معه سكينا ، واستسلم له ابنه ، فألقاه على وجهه أو بعبارة أدق كما يقول القرآن : ﴿وتَلَّه للجبين﴾ أى أكبَّه على جبينه ليذبحه ، ولما هَّم بذلك سمع نداء من خلفه : ﴿أنْ يا إبراهيم قد صَّدقتَ الرؤيا﴾ والتفت ، فإذا الله قد أرسل إليه بكبش سمين عظيم فداء لابنه . ويقول الله بعد ذكره لهذه القصة فى سورة الصافات : ﴿ فبشَّرناه﴾ أى إبراهيم ﴿بغلام حليم﴾ وهى بشارة تالية للقصة وتدل على أنه إسحق وأن الذبيح هو إسماعيل .

واشتهر كثيرون – عند العرب – بالحلم والأناة وضبط النفس ، وفى مقدمتهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ربما سمع كلمة نابية من أعرابى جاف فابتسم ولم يرد عليها ، بل حاول أن يسترضيه ، وخاصة حين يقسم غنيمة أو مالا من غزوة بين الصحابة . وكان يستحب خصلتى الحلم والأناة بين أصحابه وبهما امتدح أشج بنى عبد القيس فى الحديث الأول . ومن الحلماء أبو بكر الصديق ، وقال له رجل سفيه لأشتمنَّك شتما يدخل معك

فى قبرك ، فأجابه : يدخل – والله – معك فى قبرك لا معى . ومن حلماء العرب الأحنف بن قيس مستوطن البصرة بعد الفتوح قال له رجل إن قلت فىَّ كلمة لتسمعنَّ عشرا ، فقال الأحنف له – لكنك لو قلتَ فىَّ عشر كلمات لم تسمع منى واحدة . ويُرْوى أن رجلا شتمه وهو يماشيه فى الطريق فلما قرب من الحىِّ الذى به منزله وقف الأحنف وقال له : إن كان لا يزال معك شىء فَقُلْه هنا ، فإنى أخاف إن سمعك فتيان الحى أن يؤذوك . وقال الأحنف تعلمت الحلم من سيد قبيلتنا تميم : قيس بن عاصم الوافد على الرسول صلى الله عليه وسلم فإننى كنت جالسا معه وهو يحدِّثنا إذ جاءت جماعة تحمل قتيلا ومعها شابٌّ أسير ، فقيل له : هذا ابنك قتله ابن عمه ، فلم يقطع حديثه ولا غيرَّ جلسته حتى فرغ من كلامه ، ثم التفت إلى بعض أبنائه ، فقال له : أطلق ابن عمك من أسره ، ووار أخاك التراب ، وسُقْ إلى أمِّه مائة من الإبل ، فإنها غريبة . وشتم رجل حليما ، فأعرض عنه ، فقال له : إياك أعنى ، فقال الحليم وعنك أُعْرِضُ .

وتمدح الآية الثانية من يضبطون أنفسهم أشد الضبط فيكظمون غيظهم ويظلون متمسكين بحلمهم ، وكظم الغيظ مستعار من كظم القربة المملوءة ماء ، وقد أُمسك منها فمها ، وهو تمثيل لإمساك الحليم فمه ، وهو ممتلىء غضبا ، فلا تندُّ منه كلمة ، مما يصور قوة عزيمته وإرادته فى قهر غيظه وغضبه . ويصور الحديث الثانى أن من تجرع غيظه وتحمله مع القدرة على إنفاذه أثابه الله ثوابا عظيما يوم القيامة إذ يدعوه على رءوس الخلائق تنويها بقدره وإعلاء لمكانته عنده ، ويخيِّره من الحور العين ما شاء . وينوِّه الرسول مرارا بكظم الغيظ وكتمه ، من ذلك ما رواه أبو هريرة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمنا وإيمانا . والحليم مع كظم غيظه قد يعفو عمن أساء إليه ، وبذلك يعظم ثوابه .ولذلك تقول الآية الثالثة : ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ وهو الرضا والمسامحة بدون أى عتاب . والله يضيف فى آيات مختلفة إلى الصفح العفو كأنه يعده جزء لا يتجزأ منه فى مثل قوله بسورة البقرة : ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ . ويقول فى سورة التغابن : ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ .

وتقول الآية الرابعة إن الحسنة لا يستوى جنسها مع جنس السيئة ، والحسنة تشمل جميع

أفراد جنسها من أعمال البر والخير ، وبالمثل تشمل السيئة جميع أفرادها من الشرك بالله والمعاصى ، وكأن الله يقابل بين حسنات المسلم المحسن وسيئات المشرك بالله المسىء ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنُّور﴾ ويقول الله لرسوله ﴿ادفع بالتى هى أحسن﴾ أى ادفع بالحسنى وبالهدى المنزل فى القرآن السيئةَ كما قال فى سورة المؤمنون ﴿ادفع بالتى هى أحسنُ السَّيِّئة﴾ والمراد بالحسنى الرفق واللين فى الكلام . وكل أمر موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن موجه إلى أفراد أمته جميعا . ويقول الله لرسوله : إن دفعك لعدوك بالحسنى والرفق ولين الكلام من شأنه أن يؤثر فى نفسه تأثيرا عميقا ﴿فإذا الذى بينك وبينه عدواة﴾ قد أصبح وليا ناصرا لك وصديقا ودودا . ويوصى الرسول أصحابه مرارا أن يكونوا حلماء يأخذون أنفسهم بالرفق ولين الجانب فى حديثهم مع المشركين وحديثهم بعضهم مع بعض ويقول فى الحديث الثالث إن الله رفيق أى بعباده لطيف بهم حليم حتى مع العصاة إذ يمهلهم ليتوبوا إليه .

وكما أمر الرسول أصحابه مرارا بالرفق فى القول والفعل لما يدل عليه من الحلم المستحب كذلك أمرهم أو قل أوصاهم بعدم الغضب ، ومعروف أن غضب المسلم قسمان : محمود ومذموم : والمحمود ما كان فى جانب الدين والحق ، والمذموم ما كان فى غير الحق ، وهو ما نهى عنه الرسول مرارًا ، كما فى الحديث الرابع ، إذ كرر لرجل حين طلب منه وصية أن لا يغضب ، لعلمه أن ذلك نافع له . وفى المثل لا يُعْرف الحليم إلا عند الغضب ، وقديما قيل لا نوقدنَّ فى صدرك جمرة الغضب . وشتم رجل الشعبى عالم الكوفة بقبائح وهو صامت لا يرد عليه ولا يغضب ، حتى إذا أكثر قال له : إن كنت كاذبا فغفر الله لك ، وإن كنت صادقا فغفر الله لى . ولقى رجل جرير بن عبدالله البجلى الصحابى الجليل ومعه ابنه ، ونال منه الرجل وشتمه وجرير ساكت ، فلما مضى قال ابن جرير لأبيه : يا أبت لم سكتَّ عن الرجل ولم تغضب ؟ قال يا بُنَى أفأُوسِّع جَرْحى ، يريد جرير أنه لو كان قد ردَّ عليه لزاد فى شتمه ، فوسَّع الجرح الذى أحدثه الرجل ، وهو حلْمٌ محمود ، وقد مدح مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : إن محبة الله وجبت لمن أُغْضِب فحَلُم أو استشعر الحلم .

٥٤ - الصَّبْر

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

البقرة ١٥٣

٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾

آل عمران ٢٠٠

٣ - ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

الشورى ٤٣

٤ - ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾

الأحقاف ٣٥

الأحاديث :

١ - عَنْ أبى سعيد الخُدرْى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ يتصبَّرْ يصبِّرْهُ الله ، وما أعطى أحدٌ عطاء خيرا وأوسع من الصبر (روته كتب الصحاح الستة) .

٢ - عن عبدالله بن أبى أوفى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى إحدى حروبه مع العدو : يا أيها الناس لا تتمنَّوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنَّة تحت ظلال السيوف (رواه ابن حنبل والبخارى ومسلم وأبو دواد) .

٣ – عن أسامة بن حارثة أن إحدى كريمات الرسول صلى الله عليه وسلم أرسلت إليه إن ابنى قد احتُضر فاشْهَدْنا ، فأرسل إليها يقْرئها السلام ويقول : (إن لله ماأخذ ، وله ما أعطى ، وكل حَىٍّ عنده بأجل مسمىً ، فَلْتَصْبِرْ ولتَحْتَسِبْ (رواه أصحاب الصحاح إلا الترمذى) .

٤ – وفى الجامع للترمذى بكتاب الدعوات قال الرسول صلى الله عليه وسلم : انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة .

والله – تقدَّس اسمه – يأمر المؤمنين فى الآية الأولى أن يستعينوا بالصلاة لأداء شكره على ما أنعم به عليهم ، وبالصبر على ما نزل بهم من محن ، ويصور الرسول صلى الله عليه وسلم الحالتين قائلا : عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء وشكر الله عليها كان ذلك خيرا له ، وأن أصابته ضراء فصبر كان ذلك خيرا له . والصبر أقسام : صبر على أداء الطاعات وامتثال أوامر الله فيها مع ما يكون فى ذلك من بعض المشقة ، وله منازل أن يكون أداء الطاعات رغبة فيما عند الله فى أدائها من ثواب وأن يكون هذا الأداء تقربا لله ابتغاء مرضاته ، وأن يكون محبة له وشغفا به دون أى تفكير فى ثواب أو جزاء أو حتى مرضاته . وبجانب هذا الصبر صبر ثان عن ارتكاب المعاصى التى نهى الله عنها وشدَّد فى تحريمها ، ونوعَّد مرتكبها بالعقاب الأليم فى الآخرة . وصبر ثالث على ما ينزل بالمؤمن من مكروه او يحلّ به من محنة أو بلاء ، وله أيضا منازل إذ قد يكون طلبا لحسن الجزاء ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن صبرت مَضَى أمر الله أى نفذ وكنت مأجورا أى مثابا ، وإن جزعت فلم تصبر مضى أمر الله ونفذ وكنت مأزورا أى غير مأجور ولا مثاب . وقد يكون الصبر على المكروه والبلاء عن رضا وتقبل صادق للقضاء وحسن ظن بالله ، وقد يكون عبادة لله بتجرُّع غصص المحنة والبلوى ، دون أى جزع ودون أى شكوى .وقدَّم الله فى الآية الصبر على الصلاة أم العبادات لمنزلته عنده ، وهو إعزاز لأصحابه أنه مع الصابرين ، ونوَّه الله به مرارا فى القرآن الكريم ، وقال فى سورة الزمر تنويها بأصحابه وما ينتظرهم من ثواب عظيم : ﴿إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ ويقول الرسول فى الحديث الأول من يتصبر إزاء أى شىء يُعنه الله على التصبر ، ويقول إن اللهلم بعط أحدا عطاء خيرا وأوسع من الصبر ويصور الله هذا العطاء فى آية سورة الرعد وما جاء فيها من أن أهل الجنة ينادَون : ﴿سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدار﴾ فقد أثابهم ثوابا كبيرا بجنته لصبرهم على طاعته وصبرهم عن معصيته .

ويأمر الله فى الآية الثانية المؤمنين بالصبر على أداء الصلاة والعبادات ، وأيضا على الاستعداد للقاء عدوهم ، ويقول لهم صابروا العدو أى اثبتوا فى مواجهة العدو الصابر ، حتى تغلبوه على أمره وحتى يلقى عن يد وهو صاغر . والصبر فى جهاد العدو هو أعلى مقامات الصبر فى الذكر الحكيم وهو يتطلب الاستماتة فى حرب العدو وبذل كل الطاقة والتضحية بالنفس والروح . والإجماع منعقد على أن جهاد العدو فرض كفاية إلا إذا نزل بدار الإسلام ، فإنه يصبح فرضا عاما على كافة المواطنين وعلى كل فرد فيهم حتى النصر . والآية تشتمل على ثلاثة مقامات :مقام الصبر على طاعة الله فى أوامره ونواهيه ، ومقام مصابرة العدو فى الحرب ومنازلته ومباغتته بمنتهى القوة ، ثم مقام ثالث تحمله كلمة : (ورابطوا) وهى المرابطة فى جبهات ميادين الحرب وعلى حافاتها بحيث لا يبرحها المؤمنين المجاهدون فى سبيل الله حتى يدقوا أعناق الأعداء دقا ويطحنوا ضلوعهم طحنا . وسعداء من يقاتلون الأعداء حتى الموت ، وحتى تكتب لهم الشهادة ظافرين بما وعد الله به المجاهدين فى سبيل الله من الحياة الخالدة والنعيم الدائم كما قال فى سورة آل عمران : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتِلُوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزقون فَرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ . وينقض الحديث الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول أعداؤه من أنه كان يدعو دائما للحرب فإنه لم يحارب أعداءه إلا مضطرا . وواضح أنه فى مستهله ينهى المؤمنين عن تمنى لقاء العدو وحربه وأن ينتظروا فربما مدَّ يده يطلب السلام ، ويقول لهم إن أبى إلا الحرب فاصبروا فى حربه وجهاده ومن استشهد منكم فجزاؤه جنَّة الله ونعيمه إذ تجاهدون فى سبيل إعلاء دينه .

والآية الثالثة فى بيان فضل المؤمنين الذين تحملوا – فى مكة – الأذى من المشركين وصبروا ولم يؤاخذوهم – بعد إسلامهم – على أذاهم لهم ، ولم يحاولوا الانتصاف منهم ويقول الله ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أى من الأمور المشكورة والأفعال المحمودة التى يثيب عليها عباده ، إذ يرجع بصاحبه إلى باب العفو ، وهو باب واسع ، وفيه يقول الله : ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ . وروى أبو هريرة أن رجلا شتم أبا بكر والرسول صلى الله عليه وسلم جالس فجعل يعجب من الرجل ، فلما أكثر رد عليه أبو بكر بعض قوله ، فغضب الرسول وقام من المجلس ، ولحقه أبو بكر ، فقال يارسول الله إنه كان يشتمنى وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، فقال إنه كان معك ملك يرد عنك ، ثم قال :

يا أبا بكر ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله إلا أعزّه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة لله إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجلّ بها قلة . ويستحب الله التسليم له عند نزول محنة أو مصيبة بالإنسان قائلا :﴿وبشرِّ الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ أى أنهم ملك لله يتصرَّف فيهم كما يشاء وأنهم راجعون إليه فى الدار الآخرة فيجزيهم على صبرهم الجزاء الأوفى . ويردد المسلمون هذه الآية كلما نزلت بهم مصيبة وتسمىّ آية الاسترجاع وهى مستحبة ، إذ ليس أمام المسلم حين تنزل به محنة أو مصيبة إلا أن يسترجع ويصبر تاركا الأمر لربه . والرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث حين دعته إحدى كريماته وقد احتضر ابنها لزيارتها فقال : لتصبر لقضاء الله ولتحتسب أى لتطلب منه الثواب . ويأمر الله – عزّ ذكره – رسوله فى الآية الرابعة وقد علم أخبار الرسل فى أممهم السالفة أن يصبر على أذى مشركى قريش له وتكذيبهم لرسالته وقرآنه ، ويضرب له مثلا بالرسل أولى العزم المحمود وما صنع بهم أقوامهم من ضروب الإيذاء ومن الكفر بهم وبرسالاتهم ، وقد صبروا جميعا حتى أتاهم الفرج من قبل الله ، فقضى على أعدائهم ، وأنْجَى رسله ومن آمنوا بهم مما حلّ بهم من العذاب . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع : انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ، إذ يسلم الشخص أمره فيما نزل به إلى ربه ذاكرا دائما له . ويقول الله تعالى : ﴿فاصبرْ صبرا جميلا﴾ وهو الصبر الذى لا شكوى فيه ولا شعور بحزن ، ويقول الله فى سورة لقمان : ﴿واصبرْ على ما أصابك إن ذلك من عَزْم الأمور﴾ .

٥٥ - كتمان السر - الستر على ذنوب المسلمين

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

يوسف ٥

٢ - ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ﴾

البقرة ١٧٧

٣ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾

النور ١٩

الأحاديث

١ - عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من شَرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجلُ يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سِرَّها (رواه مسلم فى باب إفشاء سر المرأة) .

٢ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعب مع الغلمان فسلَّم علينا وبعثنى فى حاجة ، فأبطأت على أمى ، فلما جئت قالت ماحبسك ، فقلت بعثنى رسول الله لحاجة قالت ما حاجته ؟ قال إنها سرٌّ ، قالت : لاتخبرنَّ بسرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا (رواه مسلم فى الفضائل) .

٣ - عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلُّ أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول :

يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا وقد بات ستَره ربُّه ويصبح يكشفُ سترَ الله عنه (رواه مسلم فى كتاب الزهد) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن ستَر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة (رواه مسلم فى الدعوات) .

كان يوسف عليه السلام قد رأى رؤيا أو حلما فى صباه ذكره لأبيه قائلا : ﴿إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾ وكانت زوج أبيه يعقوب حاضرة الحديث ، فنصحه أبوه أن يحتفظ بهذه الرؤيا لنفسه سرًّا وأنْ لا يذكرها لإخوته العشرة غير الأشقاء وكانوا يغارون منه لمحبة أبيه له ولأخيه من أمه الشقيق . فخشى يعقوب إن قصَّ رؤياه أن تشتد بهم الغيرة منه والحسد فيكيدوا له كيدا شديدا . وفى الإسرائيليات أن زوج أبيه أذاعت هذه الرؤيا لإخوته ، وفى سورة يوسف أن إفراط أبيه فى محبته هو الذى أغوى إخوته على الكبد له ، فسألوا أباهم أن يخرج معهم فى الرَّعى ، ورضى ، وألقوه فى جُبٍّ والتقطه منها شخص فى قافلة كانت ذاهبة إلى مصر ، وعُرض فى أحد أسواقها عبدا واشتراه عزيز مصر ، وكانت حينئذ فى حكم الكنعانيين .

وكتمان الأسرار من الخصال الحميدة ، وينبغى لصاحب السر أن يحافظ عليه وأن لا يذيعه لأحد بأى صورة إذ لا يلبث أن يذيعه بدوره لأحد خلصائه ، فينتشر . وفى الحديث النبوى : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، ويقول على بن أبى طالب : سرُّك أسيرك ، فإذا تكلّمت به صرْت أسيره ، ويقول عمر بن عبد العزيز : القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سرّه ، ويقول بعض الحكماء : سِرُّك من دمك فلا تُجْرِه فى غير أوداجك[1] أى فى غير عروقك . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى زوجته وتفضى إليه ويفشى سِرهًا بين أصحابه ، إذ أضاع حق نفسه وأضاع حقوقها عليه . وينبغى على صاحب السر أن يعلم أنه بمجرد أن استأمن شخصا على سره فقد أذاعه ، ومهما عاهده أنه لن يذيعه فسيشعر إزاءه بنفس القلق والهم الذى جعل صاحبه يذيعه له فيذيعه بدوره لصديق ، ويذيعه الصديق لصاحب له ، وينتشر . والله –جلَّ شأنه– ينوه فى الآية الثانية

---

(١) أوداج جمع ودج : عرق فى العنق يقطعه الذابح .

بمن يوفون عهودهم إذا عاهدوا وهم فى عهود الأسرار قلة شديدة . وكان أنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه القلة حتى وهو لا يزال غلاما كان الرسول إذا استأمنه على سر لا يخبر به أحدا . وإذا كان صدر صاحب السر يضيق به ويشعر بغير قليل من الكرب إزاء الاحتفاظ بسره فليعلم أن صدر من يأتمنه عليه مثل صدره ، بل ربما كان أشد ضيقا وأكثر منه شعورا بالكرب ، فبفشيه حتى يستريح بدوره . والعاقل من ضَنَّ بأسراره عن جميع الخلق واحتفظ بها لنفسه فى صندوق صدره .

والآية الثالثة وعيد لمن يحبون أن تشيع الفاحشة فى المؤمنين ، مما يدل على نواياهم الخبيثة وأنهم يكنون لهم غير قليل من البغضاء حتى ليبلغ من بغضهم أنهم يحبون أن تشيع عنهم الفاحشة . وهم ليسوا مؤمنين إذ المؤمن لا يحب لإخوانه أن يشيع عنهم سوء ، بل يحب لهم أن لا يقال عنهم أى سوء . وبدون ريب شيوع أخبار الفاحشة صادقة أو كاذبة يعد فسادا أخلاقيا كبيرا ، إذ قد تؤول إلى ارتكاب بعض الناس لها دون تهيب ، وخاصة أصحاب النفوس الخبيثة أو المريضة فإنهم يسارعون إلى اقترافها ، وقلما ينكفّون عنها . وقد يتسع هذا الاقتراف لفاحشة حتى يوشك أن يصبح وباء ، وينبغى أن تقاومه الأمة الإسلامية بكل ما تستطيع ، والله يقول إن هؤلاء الخبثاء الذين يبغون أن تشيع الفاحشة فى الأمة حتى تفت فى عضدها لهم عذاب أليم فى الدنيا بما يُصبّ عليهم من حدود القذف للمؤمنين والمؤمنات ، وعذاب أليم فى الآخرة بما يصب عليهم من نار الجحيم . وقد رأى الرسول الكريم ببصيرته النافذة أن يقتلع هذه الخصلة الكريهة من نفوس أصحابها ، ولاحظ أن منهم من يتباهى بأنه صنع بالأمس هذا الذنب أو تلك المعصية ، فقال فى الحديث الثالث : كل أمتى مبرءون من ذنوبهم إلا المجاهرين أى المتباهين بارتكاب المعصية ، فيكشفون الستر الذى أسدله الله عليهم . ويذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع ثوابا كبيرا لمن رأى مسلما يقترف ذنبا ، ولم يقل ذلك لأحد ، فستر عليه ، فإن الله يستره فى الدنيا والآخرة .

٥٦ - القناعة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

البقرة ٢٧٣

٢ - وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

النحل ٧١

٣ - إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

الإسراء ٣٠

٤ - وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

الفرقان ٦٧

الأحاديث

١ – عن عبيد الله بن محصن الأنصارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أصبح منكم آمنا فى سِرْبه ، مُعافى فى جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها (رواه الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب) .

٢ – عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أفلح مَن أسلم ورزق كفافا وقنَّعه الله بما آتاه (رواه مسلم والترمذى وابن ماده) .

٣ – عن فَضالة بن عبيد الأنصارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طُوبى لمن هُدِىَ إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع (رواه الترمذى) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس الغنى عن كثرة العَرَض[1] ولكن الغنى غنى النفس (رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه) .

نزلت الآية الأولى فى أهل الصُّفَّة كما مرَّ بنا ، وهم فقراء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة وقبائلهم فى نجد وهاجروا إلى المدينة لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد بنى لهم رُواقا واسعا ألحقه بالمسجد النبوى وسُمِّى باسم الصُّفَّة ، ومنهم المحدِّثان المشهوران أبو هريرة وأبو ذر الغفارى ، ويقول أبو ذر كُنَّا إذا أمسينا جئنا إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر بعض أصحابه أن ينصرف برجل منا ويبقى من بقى معه : نحو عشرة أو أقل فنتعشى معه ، فإذا فرغنا نمنا فى المسجد . وكان ذلك فى صدر أيام الهجرة وسنواتها الأولى ، ثم فتح الله على المسلمين ، فاستغنى أهل الصفة وخرجوا منها . ويقول الله عنهم ﴿أُحْصِروا﴾ أى حُبسوا للجهاد فى سبيل الله إذ كانوا يشتركون فى كل سَرِيَّة أو كتيبة يبعثها الرسول للجهاد ، وكأنهم رصدوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله . وتقول الآية إنهم كانوا ﴿لا يستطيعون ضَرْبا فى الأرض﴾ أى سفرا يضربون فيه الأرض بأرجلهم وحوافر دوابهم ، والمراد سفر للتجارة إذ كانوا فقراء ولم يكن معهم مال يستطيعون الاتجار به وكسب معاشهم ، ويمتدح الله عفتهم عن السؤال ، فهم لا يسألون أحدا إطعامهم ، متحملين – بصبر – الجوع الشديد حتى كان بعضهم – من شدة مسغبته – وهو يصلى وراء الرسول يضطر إلى القعود فى الصلاة من الضعف الشديد . وتقول الآية

---

(١) العرض : متاع الدنيا .

تعرفهم بسيماهم ، أى بمَا يبدو عليهم من أثر الفقر والحاجة ، ويقول أحدهم وهو أبو هريرة : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء يستر بدنه ، إذ عليه ما يستر به عورته فقط إما إزار وإما كساء قد ربطوهما فى أعناقهم ، منها ما يَبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرَى عورته . وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأنه يتمثَّل أهل الصفة : إن من أصبح آمنا فى قومه أو فى نفسه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما تملك الدنيا بحذافيرها . وهى قناعة لا تماثلها قناعة ، ومن يؤتاها يعيش راضيا حامدا ربه . ويكمل الله وصف أهل الصفة بأنهم (لا يسألون الناس إلحافا) ووصفهم بأنهم متعففون وأن الجاهل بحقيقتهم يحسبهم أغنياء يدل على أنهم لا يسألون الناس مطلقا . ويدعو الله فى ختام الآية إخوانهم من المسلمين أن ينفقوا عليهم ، بل أن يتسعوا بإنفاقهم فى وجوه الخير وأنه عليم بما ينفقون ، وسيجزيهم عليه أعظم الجزاء .

والآية الثانية تقول إن الله يشمل برزقه جميع الخلق وإن تفضيل بعضهم على بعض فيه بإرادته ، لا على حسب ما يرجون ولا على حسب ما يستحقون ، فقد تجد عالما مقتَّرا عليه فى الرزق وجاهلا موسعا عليه ، ولا يعرف العالم أسباب التقتير ولا الجاهل أسباب السعة عليه .وبالمثل قد يكون المسلم مضيَّقا عليه فى الرزق والمشرك غنيا وله عبيد كثيرون ، والله – جَلَّ وعزَّ – يذكر ذلك ليرتِّب عليه بقية الآية وأن المشركين الأغنياء لا يرضون أن يُسَوُّوا بينهم وبين ما ملكت أيمانهم من العبيد فيما منحهم الله من الرزق فكيف يرضى الله أن يُسَوىَ بينه وبين عبيد له فى الألوهيةِ ؟ وكيف يشركونهم معه فى سلطانه ؟ وذلك مثل قول الله تعالى فى سورة الروم : ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتكم أنفُسكم﴾ وهو مثل ضربه الله لنفس المشركين العابدين معه أصناما وأندادا معترفين بأنها من عبيده ، فقال لهم إننى أضرب لكم مثلا تشهدونه فى أنفسكم أتقبلون أو ترضون أن يكون ما ملكت أيمانكم من العبيد شركاء لكم فى أموالكم بالسوية بحيث يكونون مساوين لكم ؟ وإذا كنتم لا ترضون ذلك وتخافون أن يقاسمكم عبيدكم أموالكم وأن يتصرفوا فيها تصرفا لا يرضيكم فكيف تفترضون لله أن يشرك عبيده من الأنداد والأصنام فى ألوهيته وفيما يمنحكم من الأموال والأرزاق . وبؤسا لهؤلاء المشركين الأغنياء ، وعلى الرحب الفقراء من أهل الصفة ومن يعيشون عيشة

الكفاف قانعين بما رزقهم الله مهما يكن قليلا ، فإن هذه القناعة تضفى على الإنسان رضا بل سعادة طاغية . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمسك من المال إلا قدر حاجته في يومه ، وفى الحديث أنه كان لا يُقيل مالا ولا يبيِّته أى أنه كان لا يملك من المال ما جاءه صباحا إلى وقت القيلولة فى نفس اليوم ، وما جاءه مساء لا يمسكه إلى الصباح . ومن قوله الحديث الثالث الذى يقول فيه طوبَى أى ثواب عظيم مستطاب لمن كان عيشه كفافا أى بمقدار حاجته وقنع به راضيا مرضيا .

والآية الثالثة تكررت لها فى القرآن الكريم نظائر ردا على ما كان يجول بخواطر بعض المسلمين من أن الله وسَّع الرزق على المشركين فى الدنيا فزادهم شركا وطغيانا بينما ضيَّقه على كثير من المسلمين . ويقول الله فى سورة يونس إن هذا الخاطر دار بنفس موسى إزاء فرعون وملكه المتحضر المترف فى مصر وما أغدق عليه من المال قائلا ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليُضلوا عن سبيلك﴾ والله – تقدس اسمه – يقول إنه ﴿يبسط الرزق﴾ ويوسعه ﴿لمن يشاء﴾ من عبيده ، ويقدره ويقلِّله لمن يشاء منهم ، ولذلك أسباب تقصر عقولنا عن تبينها ، وكل هذا الغنى والمتاع فى الدنيا فان ، والباقى هو ما عند الله من متاع الآخرة .

والآية الرابعة تدعو إلى الاعتدال فى الإنفاق بين الإسراف والإقتار .والإسراف : تجاوز القدر الكافى من المشتهيات ، إذ قد يدعو ذلك الشخص المسرف إلى تناوله مشتهيات وملذات مذمومة . وأيضا فإن ذلك قد يؤدى بالمسرف إلى استنزاف امواله ، فيحاول الحصول على المال بطرق سيئة . والإسراف بذلك مذموم فى نفسه وفيما يترتب عليه . والإقتار : الشح والتضييق الشديد فى النفقه ، وهو إجحاف شديد على الزوجة والأبناء ، وضرره بالشخص نفسه وبأسرته وبذوى رحمه لا يقف عند حد ، وكم من آباء خسروا أبناءهم بسبب شحِّهم المقيت . واللهلذلك يدعو المسلم إلى أن يكون وَسطا فى الإنفاق بين الإفراط والتفريط ، ﴿وكان بين ذلك﴾ أى التوسط ﴿قواما﴾ أى لا عوج فيه . وينبغى أن نضع القناعة نصب أعيننا ، وأن لا نلجأ إلى الشح والبخل طلبا للغنى وكنز المال . وبحق يقول الرسول صلى اللهعليه وسلم كما فى الحديث الرابع إن الغنى ليس فى كثرة المال ، فهذا غنى مادى ، والغنى الحقيقى غنى النفس ، وهو أنفس من أن يقدَّر بمال .

٥٧ - الرضا بالرزق

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

البقرة : ٢١٢

٢ - ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

الرعد : ٢٦

٣ - وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ

النحل : ٧١

٤ - إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٨٥﴾

الذاريات : ٥٨

الأحاديث

١ - فى الحديث النبوى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال : أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا (رواه ابن كثير فى تفسيره) .

٢ - عن المستورد أخى بنى فهد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمِّ . وأشار بالسبَّابة فلينظر بِمَ يرجع ؟ (رواه مسلم فى باب فناء الدنيا ، وابن حنبل فى مسنده) .

٣ - عن الحسن البصرى كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : اقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض فى الرزق . بلاء

يبتلى به كُلا ، فيبتلى من بسط له كيف شكرُه لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوَّله (رواه ابن كثير فى تفسير الآية الثالثة) .

٤ – فى الحديث القدسى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله : يابن آدم تفرَّغْ لعبادتى أملأ صدرك غنىً وأسدّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك غِلاًّ ولم أسدّ فقرك ، (رواه ابن حنبل فى مسنده والترمذى وابن ماجه) .

والله – تبارك وتعالى – يذكر فى الآية الأولى جوده الفياض على عباده بأرزاقهم ، والرزق هو ما يحصل الشخص عليه بعمله لسد ضروراته وحاجاته فى معيشته وحياته من المأكل والملبس والمسكن ، وأطلقه الله فى القرآن مجازا على ما يتناوله الحيوان ودوابّ الأرض صغيرها وكبيرها من الغذاء كما قال فى سورة هود :﴿وما من دابَّة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ . وسمَّى الله الغيث الذى ينصبُّ من السماء رزقا قائلا فى سورة الذاريات : ﴿وفى السماء رزقكم﴾ الذى يحيى الله به الأرض فتجود بثمارها وزروعها . والرزق نوعان : ظاهر لمنفعة الأبدان كالأقوات ، وباطن لمنفعة العقول والقلوب والنفوس من مثل التقوى ، ومثل المعارف والعلوم والآداب ، ويدخل فيه كل كسب للمال عن طريق الأعمال والوظائف والصناعات والتجارات والشركات والزراعة والبيوع والإيجارات والتعليم والتأليف ومزاولة أى مهنة لنفع الجماهير . والله يعطى ويرزق من خلقه رزقا وعطاء كثيرا بدون تعداد فى الدنيا والآخرة ، وهو دائم العطاء ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لبلال مؤذنه : أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، فهو سيظل يجزل لك فى العطاء ، وفى حديث يقول الله – جلَّ شأنه – ابنَ آدم أنفقْ أنفقْ عليك ، أى أنفق مالك فى الخير يهطل عليك الرزق .

ويقول الله – تقدس اسمه – فى الآية الثانية إنه يبسط الرزق ويوسِّعه على من يشاء من عباده المؤمنين والكافرين ، ويقدِره ويقتّره على من يشاء منهم ، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل . وكأنه – عز شأنه – يرد على ما يجول فى خواطر بعض المؤمنين إذ يقولون كيف يبسط الله الرزق على الكفَّار فيزدادون كفرا ، وهلا ضيق عليهم الرزق فى الدنيا كما قال موسى فى سورة يونس لربه : ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربَّنا ليُضلوا عن سبيلك ربَّنا اطْمِسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ فى الدنيا .

ويقول الله فى الآية الثانية عن الكافرين :﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ استدراجا لهم كما قال فى سورة المؤمنون : ﴿أيحسبون أن ما نُمِدّهم به من مال وبنين﴾ إعزاز لهم بل هو استدراج لهم وإمهال ﴿نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ . وقال فى سورة التوبة : ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد اللهليعذبهم بها فى الحياة الدنيا﴾ وكما قال فى سورة آل عمران : ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نُمْلى لهم﴾ أى ما نمهلهم فيه ﴿خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾ . وفى الآية الثانية يحقّر الله متاع الحياة الدنيا بالنسبة لمتاع المؤمنين العظيم فى الآخرة قائلا : ﴿وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع﴾ قليل ، وصوَّر الرسول فى الحديث الثانى هذا المتاع القليل بأنه مثل ما يضع أحد الصحابة إصبعا له فى اليم ويرجعها منه فإنها لا تكاد ترجع بشى .

والآية الثالثة فى اختلاف الأرزاق وأن الله فضَّل فيها بعض الناس على بعض لحكمة إلهية قد يعزُّ علينا أو على البشر معرفتها ، إذ يرون أحيانا جاهلا أحمق موسعا عليه فى الرزق . وعاقلا فاضلا مقترا عليه فى رزقه ، ولا يعرفون الأسباب فى ذلك ، لأنها أسباب إلهية لا يدركونها ، ولذلك نسب الله هذا التفضيل فى الرزق وأسبابه إليه ، فهو – وحده – المتصرف فى تفضيل بعض عباده على بعض فى الرزق ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديثه لأبى موسى الأشعرى ، اقنع برزقك من الدنيا فإن الله فضل بعض عباده على بعض فى الرزق ليبتلى بذلك ويختبر من وسَّع عليه رزقه ليرى كيف يشكره وكيف يؤدى الحقوق التى فرضها عليه فى رزقه الذى أعطاه ، فيخرج زكاته ويبرّ أبويه وأقرباءه والفقراء واليتامى والمساكين .

ويذكر الله فى الآية الرابعة أنه هو ﴿ الرزاق﴾ فهو رازق سواه ، يهب الأرزاق الظاهرة من الأقوات والأموال والأرزاق الباطنة من الإيمان والتقوى وكل ما يخص العقول والنفوس والأفئدة كما مرَّ بنا . ويُروَى أن شخصا سأل بعض النسَّاك من أين تأكل ؟ فأجابه : من خزائنه ، يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الحِجْر : ﴿وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ فقال السائل للناسك مستنكرا : أينزل عليك الخبز من السماء ، فأجابه الناسك : لو لم تكن الأرض له (أى لله) لكان يلقيه من السماء ، فقال السائل له : إنما أنتم قوم ليس عندكم إلا الكلام ، فقال الناسك : لم ينزل من السماء إلا الكلام ،

فقال السائل وقد أفحمه ولزمته الحجة : أنا لا أقوى على مجادلتك ، فقال الناسك : لأن الباطل لا يقوم مع الحق . والناسك يشير بكلمة الأرض إلى أن الإنسان يتوكل على الله ويعمل ويلقى الحب فى الأرض الطيبة لينتظر من ربه الثمرة المأمولة . وليست سعة الرزق تكريما ولا ضيقه هوانا إذ لو كان الناس متساوين فى الرزق لتعطلت الحياة القائمة على اختلاف الأعمال فيها واختلاف الأرزاق ، ونضرب مثلا برغيف الخبز وما يحتاج إليه من زارع لحبات قمحه وحاصد وطاحن وخابز وبائع للخبز ، وكل منهم له رزق يختلف به عن صاحبه ، وكذلك كل ما يحتاج الناس إليه من الارتقاء والتعاون فى جميع أمورهم وشئونهم فى الحياة وفى الحكم وفى السياسة والاقتصاد وفى الفنون والعلوم والتعليم وفى الصناعات والتجارات ، وكلٌ ميسَّرٌ لما خُلق له ، وكل له حظه ونصيبه من الرزق حسب عمله وجهده وسعيه .

٥٨ – العمل الصالح

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

النّحل : ٩٧

٢ – ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾

فاطر : ١٠

٣ – ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

فُصّلت ٣٣

٤ – ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

فُصّلت : ٤٦

الأحاديث

١ – عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة ، يعطَى بها فى الدنيا ويُجزَى عليها فى الآخرة (رواه ابن حنبل فى مسنده ومسلم فى كتاب صفات المنافقين : باب جزاء المؤمن بحسناته) .

٢ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسرٍ يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومَن سَتَر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه (رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء) .

٣ – وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن دَعَا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا (رواه مسلم فى آخر كتاب العلم) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلِّمْ ، وإذا دعاك فأجبْه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عَطِس فحمد الله فشمِّتْهُ ، وإذا مَرِض فعُدْهُ ، وإذا مات فاتبعه (رواه مسلم فى كتاب السلام) .

والله – تقدَّس اسمه – يقول فى الآية الأولى إن من عمل عملا صالحا ذكرا أو أنثى من المؤمنين نعده بأن تكون حياته حياة طيبة . والعمل الصالح هو العمل الخيِّر أو الطيب مما دعا إليه القرآن الكريم ، مما يتصل بعبادة الله وحسن الخلق وبر الجماعة ، أما العمل الصالح فى العبادة فيراد به أداء المؤمن للفرائض الدينية من صلاة وغير صلاة أداءً تشترك فيه الجوارح والقلب . وتتضح فيها قربات إلى الله كثيرة بذكر اسمه وتسبيحه وتمجيده والثناء عليه وخاصة فى الصلاة والصيام والحج . وأما العمل الصالح المتصل بحسن الخلق فمثل الشجاعة والكرم والحلم والصفح والعفو وعزة النفس والرحمة والرفق ، واجتناب الآثام والخطيئات والدنايا والنقائص . وأما العمل الصالح المتصل بالجماعة فعلى رأسه البر بالفقراء والمساكين واليتامى وكل ما يقدمه المؤمن لمجتمعه وأفراده من معروف شاعرا فى عمق بأن لكل فرد فى المجتمع حقا عليه ، حقا فى المعاملة الكريمة ، وحقا فى العون والمساعدة ، وحقا فى التعهد والرعاية ، وحقا فيما منحه الله من مال ، فالمال مال الله ائتمنه عليه ، وينبغى أن لا يمنعه عن أهله فى أسرته الصغرى : أسرة أبويه وزوجته وأبنائه وأقربائه وبالمثل لا يمنعه عن أفراد أسرته الكبرى : أسرة أمته ، وحتى الكلمة الطيبة يقولها لأخيه ، وحتى الوجه البشوش المستبشر يلقاه به ، وحتى ما قد يؤذى أخاه فى الطريق فينحيه عنه . كل ذلك يدخل فى المعروف أو بعبارة أخرى يدخل فى العمل الصالح الذى يحييه الله به حياة طيبة فى الدنيا ، ويجزيه به جزاء حسنا فى الآخرة . وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث الأول : إن الله لا يظلم المؤمن فى حسنة يؤديها ، بل يثيبه عليها الثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة .

والله – عزّ شأنه – فى الآية الثانية يقول إن الكلم الطيب من ذكره وتسبيحه وتمجيده يصعد إليه ، كما يقول إن العمل الصالح يرفعه . ويذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى صورة من العمل الصالح ، كلها تتصل بالمؤمن فمن فرَّج عن أخيه المؤمن كُرْبَةً فى الدنيا فرَّج الله بها عنه كُرْبَة فى الآخرة ، ومن أتاح لمعسر يُسرًا فى عسره جزاه الله بيسر فى الدنيا والآخرة ، وحتى من ستر مسلما على معصية حدثت منه ، ستره الله فى الدنيا والآخرة . وفى الحديث النبوى كل معروف ، وبعبارة أخرى كل عمل صالح ، تؤديه إلى أخيك يرفعه الله بيمينه ، كما جاء فى حديث نبوى عن أبى هريرة : من تصدق بصدقة من كسب طيب – ولا يقبل الله إلا طيِّبا – تلقاها الرحمن بيمينه . فيربِّيها له كما يربى أحدكم فُلُوَّه ، أى مهره المفطوم . والمؤمن فيما يقدم لربه من أعمال صالحة ، يجزيه ربه عليها جزاء مضاعفا ، وهو جزاء استثمارى عظيم .

وتُعلى الآية الثالثة من دعوة المؤمن إلى الله وتوحيده ونبذ الشرك وكل ما يتصل به من شعائر كما تعلى من العمل الصالح يعمله المؤمن مبتغيا به وجه ربه طمعا ورجاء فى جزائه وثوابه . ﴿وقال إننى من المسلمين﴾ اعتزازا وافتخارا بإسلامه وأنه صادق كل الصدق فى اعتقاده . والمؤمن – بذلك – نافع لنفسه ولغيره ، فليس ممن يأمرون بالمعروف ولا يأتمرون به الذين قال الله فيهم بسورة الصَّفِّ : ﴿يَـٰأَيُّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾ فهو ليس من هؤلاء المنافقين الذين نزلت فيهم الآية ، إنما هو من المؤمنين الذين أخلصوا دينهم وأعمالهم لربهم ، يبتغون منه القبول والرضا والثواب والجزاء ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، وهى عدالة ربانية تلقانا دائما فى الشريعة الإسلامية .

ويقول الله – جَلَّ شأنه – فى الآية الرابعة إن من عمل عملا صالحا فنفعه عائد إليه وإلى نفسه ، ومن أساء فوبال إساءته يرجع إليه وإليها . والله لا يثيب أحدا إلا ثوابا يستحقه ، ولا يعاقب أحدا إلا بعمله السيء إذ هو ليس ظالما ولا ظلاما لعبيده . ويذكر الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم فى الحديث الرابع حقوقا ستة للمسلم على المسلم هى : السلام وردُّه ، وقبول الدعوة للضيافة أو الزيارة ، والإخلاص فى النصح ، والزيارة فى المرض ، وتشييع الجنازة إذا مات ، وحتى إذا عطس وحمد ربه يشمِّته بمثل قوله : يرحمك الله . وتكاد تكون كل مواساة المسلم للمسلم حقا وعملا صالحا بجانبه الأعمال الكبرى فى الجهاد إذ يقول الله

فى سورة التوبة عن جهاد المسلمين إنه ﴿لا يصيبهم ظمأ﴾ أى عطش ﴿ولا نَصَبٌ﴾ أى تعب ﴿ولا مَخمَصةٌ﴾ جوع ﴿فى سبيل الله ولا يطئون موطئا﴾ أى لا ينزلون منزلا ﴿يغيظ الكفار. ولا ينالون من عدوٍّ نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين . . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ فى الجهاد وحرب أعداء الله ورسوله ﴿ولا يقطعون واديا﴾ فى السير إلى الأعداء ﴿إلا كُتب لهم﴾ عملا صالحا ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ . ويحث القرآن مرارا وتكرارا أن تسود بين المسلمين أخوة صادقة تقوم على التعاون فى السراء والضراء ، وأن يمد المسلم لأخيه العون وخاصة إذا طلب منه ذلك حتى فى الماعون وهو كل ما يعين الإنسان فى العمل من مثل القدر والإناء والفأس والإبرة والغربال . وتذم سورة الماعون من يمتنعون عن إقراض إخوانهم مثل هذه الأدوات ومثل النار والملح والماء . وعن السيدة عائشة أن الرسول قال : من أعطى لأحد نارا فكأنما تصدق بجميع ما طُبخ بتلك النار ، ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ما طُيِّب به ذلك الملح ، ومن أعطى شَربةً من الماء حيث لا يوجد ، فكأنما أحيا نفسا ، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . والمعروف أو العمل الصالح - بذلك - يشمل أكبر الصور منه كصور الجهاد فى سورة التوبة كما يشمل أصغرها مما يعار حتى الإبرة والغربال والملح والنار والماء . وكل تلك منن على العباد لا تكاد تحصى أو تستقصى .

القسم الرابع

المحظورات



٥٩ - الحلال - الحرام

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾

البقرة ١٦٨

٢ - ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾

المائدة ٣

٣ - ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾

المائدة ٤ ، ٥

٤ – ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يونس ٥٩

الأحاديث

١ – عن سعد بن أبى وقَّاص رضى الله عنه أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال له : يا سعد أطبْ طعامك تكن مستجاب الدعوة (رواه الترمذى فى كتاب المناقب) .

٢ – عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن البحر ومائه ، فقال : هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ مَيْتته (رواه مالك فى الموطأ والترمذى والنسائى) .

٣ – عن عدى بن حاتم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أرسل الكلاب المعلَّمة فيمسكن علىّ وأذكر اسم الله عليها فهل يحل ما تصيده ، فقال الرسول : إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكُل ما أمسك عليك (رواه البخارى ومسلم فى كتاب الصيد والذبائح) .

٤ – بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ثلاثة من أصحابه تنافسوا فى الزهد فقال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل ابدا ، وقال الثانى أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثالث أما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبدا . فبعث إليهم الرسول ، وقال : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ألا إنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى (رواه البخارى ومسلم) .

والآية الأولى تؤكد أن الله أحلَّ للناس كل ما فى الأرض من الطيبات ، والطيب هو ما تستطيبه النفوس من الأطعمة ، لما تجد فيه من اللذة ، ولأنها لا تجد فيه أى ضرر ، وكأن قاعدة الحلال فى الطعام الطيب أنه لا يصيب طاعمه بأى ضرر ، بخلاف الحرام فإنه يكون عادة ضارا بالإنسان . والحلال هو الأصل فى الأطعمة وكان بعض فقهاء القرن الأول الهجرى يتحرج فى الحكم على الشىء أو الطعام بأنه حلال أو حرام ، كما روى

عن النخعى المتوفى بأخرة من هذا القرن إذ كان يكتفى بقوله : هذا كان يستحسنه الصحابة ، وذاك كانوا يتكرهونه . وكان عبد الله بن شبرمة فى النصف الأول من القرن الثانى لا يحكم على شىء أو طعام حكما قاطعا إلا أنه إذا كان حلالا يقول إنه حلال وليس بحرام ، وكان لا يحكم على شىء أو طعام بأنه حرام إلا إذا ثبت ذلك عنه فى الأحاديث الصحيحة . ومن المأثور عن سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ للهجرة أنه كان يقول عن الحلال والحرام : « إن العلم هو أن تحلِّل الأمر أخذا من الأصول ، فإن التضييق سهل لكل أحد » . والفقيه الحق فى رأيه هو الذى يحلِّل للناس الأمر أخذا من الأصول وييسر عليهم ، لا الذى يحرم . واستقر بين الفقهاء قانون عام هو أن الأصل فى الأشياء والأطعمة الإباحة وأنه إذا تردد الفقيه بين الإباحة والتحريم فى شىء أو طعام غُلِّبت الإباحة مادام لا يوجد فيه نص بالتحريم . وإذن يكون الطعام طيبا حلالا ، ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص حين سأله فى الحديث الأول أن يدعو الله له أن يكون مستجاب الدعوة ، فقال له : يا سعد أطبْ طعامك تكن مستجاب الدعوة .

والآية الثانية تذكر المحرمات من الأطعمة ، وهى الميتة من الحيوانات حَتف أنفها دون ذبح أو صيد لما فيها من الضرر الشديد والدم المحتقن ، ويستثنى منها السمك فإنه طعام حلال سواء مات بإعمال سكين فيه أو غيرها أو مات حتف أنفه لقول الله تعالى : ﴿أُحِلَّ لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم﴾ ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم حين سُئل عن البحر ومائه إنه الطهور ماؤه الحِلّ مَيْتته . ﴿والدم﴾ المسفوح أى السائل ، وفى الحديث : أُحلَّت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالسمك والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال . ﴿ولحم الخنزير﴾ إنسيُّه ووحشيُّه . ﴿وما أهلَّ لغير الله به﴾ أى ماذُبح وذُكر عليه اسمُ غير الله من آلهة الوثنيين ، وفى سورة الأنعام : ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسمُ اللهعليه﴾ واختلف الفقهاء فقال بعضهم إنه نهى واجب فلا تحل الذبيحة إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وقال بعضهم إن التسمية لا تشترط بل هى مستحبة فقط ، فإن تركت لا يضر لما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذبيحة المسلم حلال ذكر الله ، أو لم يذكر . ﴿ والمنخنقة﴾ التى تموت بالخنق . ﴿ والموقوذة﴾ التى تضرب بشىء ثقيل حتى تموت .

﴿والمتردية﴾ التى تقع من شاهق أو مكان عال . ﴿والنطيحة﴾ التى ماتت بنطح غيرها لها . ﴿وما أكل السَّبع﴾ أى الحيوان المفترس ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أى إلا ماالحقتموه من هذه الأنواع وذبحتموه . ﴿وما ذُبح على النُّصب﴾ وهى حجارة حول الكعبة كانوا يذبحون عندها وينضحون عليها دماء تلك الذبائح فى جاهليتهم ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ جمع زلم ، وكانت ثلاثة قداح مكتوب على أحدها : افعل ، وعلى الثانى لا تفعل ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، فإن طلع الأول فعلوا الأمر الذى جاءوا لاستقسامه أو طلبه من القداح ، وإن طلع الثالث أعادوا الاستقسام . والله يقول (ذلكم فسق) . وقد انتهى المسلمون عن كل هذه المحرَّمات .

وتذكر الآية الثالثة أن الصحابة كانوا يسألون الرسول عما أُحِلَّ لهم من الطعام ، وأجابت الآية : ﴿أحِل لكم الطيبات﴾ من الأطعمة التى طابت واستلذّها الطاعم ، وكأن القرآن جعل وصف الطيب من الأطعمة لما هو حلال بخلاف المستقذر الذى تعافه النفس فهو حرام . والشعوب تختلف فيما تستطيبه من الأطعمة ، ففى أخبار العرب أنهم كانوا يأكلون الضب واليربوع ، ومن الشعوب من يأكلون الضفادع والسلاحف والقرود ، ومن أهالى الثغور من يأكلون سلاحف البحر ودوابه . والشريعة الإسلامية تتقبل ما تستطيبه الشعوب من الأطعمة ، وترفض من الطعوم ما يضر بالجسد أو بالعقل من المحرمات مثل الخمور والمخدرات . وتقبل الآية صيد الجوارح وهى الكلاب والفهود والصقور وأشباهها التى مرنوها على صيد الحيوانات وعلموها ، وفى الحديث الثالث عن عدى بن حاتم قال : قلت يا رسول الله إنى أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله عليها فقال إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكُلْ ما أمسك عليك . ومثل هذه الأطعمة فى الحل طعام أهل الكتاب مما يجعل ذبائح المسيحيين سائغة للمسلمين .

والآية الرابعة تنهى المشركين عن الكذب على الله فيجعلون الحلال حراما كما فى سورة المائدة : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ فى الأنعام إذ كانوا يحرمون ذبحها جميعا ، والبحيرة : الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن وقيل بل عشرة ، والسائبة : ما جُعلت نذرا لشفاء من مرض وقيل بل تلد عشر إناث متتابعة ، والوصيلة : قيل الناقة تلد أنثى بعد أنثى وقيل الشاة تلد سبع إناث ،والحام فحل الإبل الذى أنتج

عشرة أبطن من صلبه . وتذكر سورة الأنعام أنهم حرموا ركوبها جميعا ، وأنهم جعلوا لله مما خلق من الزروع والأنعام نصيبا ولأوثانهم وسدنتها نصيبا آخر ، وأنهم نذروا للسدنة والنعام زروعا وأنعاما خاصة بهم . وكل ذلك وما يماثله مما قالوا فيه هذا حلال وهذا حرام إنما هو افتراء على الخالق الأعلى . وكان بعض الصحابة - كما مرَّ بنا - صَمَّموا على أن يتزهدوا فى ملاذ الحياة ويعيشوا للعبادة والنسك ، فصمم أحدهم على أن يقضى الليل مصليا ، وصمم التانى على أن يقضى النهار صائما وصمم الثالث على أن لا يتزوج ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك نهيا باتا قائلا : إنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر وأتزوج ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

٦٠ – الزِّنا

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ
عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي
ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا
﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا
وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا


النساء ١٥ ، ١٦

٢ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾

الإسراء ٣٢

٣ – ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم
بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ
عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾

النور ٢

٤ – ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

النور ٣

الأحاديث

١ – عن أبى أمامة أنَّ شابًّا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ائذَن لى بالزِّنا ، فأقبل الصحابة عليه يزجرونه قائلين : مهْ مَهْ أى كُفَّ كُفَّ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أدنوه منى ، فدنا منه قريبا فقال له : اجلس ، فجلس ، فقال له أتحبه لأمك ؟ قال لا والله ، جعلنى الله فداك ، قال الرسول ؛ ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، وقال الرسول : أتحبه لابنتك ؟ قال لا والله يارسول الله جعلنى الله فداك ، قال الرسول : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال الرسول : أفتحبه لأختك ؟ قال لا والله جعلنى الله فداك ، قال الرسول : ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال الرسول أفتحبه لعمتك ، قال لا والله جعلنى الله فداك ، قال الرسول : ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال الرسول أفتحبه لخالتك ؟ قال لا والله جعلنى الله فداك ، قال الرسول ولا الناس يحبونه لخالاتهم . فوضع الرسول يده عليه وقال : اللهم اغفرْ ذنبه وطهر قلبه وأحْصِنْ فرجه (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

٢ – عن الهيثم بن مالك الطائى قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نُطفة وضعها رجل فى رحمٍ لا يحل له (رواه ابن كثير فى تفسير الآية الثانية والسيوطى فى الجامع الصغير) .

٣ – عن عبادة بن الصامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خُذوا عنى خُذوا عنى : قد جعل الله لهن سبيلا (يشير إلى آية سورة النساء المذكورة) البِكر بالبِكر جلد مائة وتغريب عام ، والثَّيِّب جلد مائة والرَّجم (رواه مسلم فى كتاب الحدود) .

٤ – عن بريدة أن ماعز بن مالك الأسلميّ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهِّرنى فردَّه . فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إنى قد زنيت ، فردَّه الثانية ، فأرسل رسول الله إلى قومه فقال

أتعلمون بعقله بأسا أتنكرون منه شيئا ؟ . فقالوا ما نعلمه إلا كامل العقل من صالحينا فيما نرى . فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه ، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله . فلما كان الرابعة وكان متزوجا حفر له حفرة ثم أمر به فرُجم (رواه مسلم فى كتاب الحدود) .

والفاحشة فى آية سورة النساء الأولى الزنا ،ويأتيه أى يفعله وهذه الآية هى الأصل فى اشتراط أربعة من الشهادة على الزنا . وحكم الزانية فى الآية الحبس فى البيت حتى الوفاة ، وحكم الزانى فى الآية التالية بكرا أو منزوجا الإيذاء باللسان شتما وباليد ضربا ، وهذا الحكم فى الزنا بحبس المرأة فى البيت حتى الموت وإيذاء الرجل لم يلبث أن نُسخ بحكم آية سورة النور التالية .

ويحرم الله تحريما باتًّا فى سورة الإسراء الزنا ، وهو إفضاء الرجل إلى امرأة ليست زوجة له ، ويقول ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ أى لا تدنومنه بأى ملابسة وهو تشديد فى النهى عنه ، ويقول فى الآية ﴿إنه كان فاحشة﴾ أى عملا قبيحا أشد القبح ، ويذمُّه قائلا : ﴿وساء سبيلا﴾ أى وبئس الزنا طريقا ومسلكا .

والزنا يؤدى إلى خلل عظيم فى المجتمع إذ يعتدى الزانى على أسرة وينتهك عرضها فى فتاة أو امرأة وقد تفتك به الأسرة . وهو يؤدى إلى إفساد المرأة على زوجها وقد يطلقها كما يؤدى إلى إفساد الفتاة على أهلها ،وقد تحمل المرأة المتزوجة من الزانى ، فتضيع صحَّة النسب وقد تحمل الفتاة ، وتلد ولدا غير شرعى ، وترمى به متبرئة منه ، وأيضا فكل من تُعْرف بأنها زانية لا يقبل أحد على الزواج منها ، وكل تلك صور من فساد شديد . ولذلك كان المجتمع يَعدُّهُ هَوْلاً ما يماثله هول ، وهو هول لا يشفى صاحبه منه إلا أن يقتل الزانى جزاء عمله الفاحش المشين الذى يعد من أكبر الكبائر والجرائم . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى : ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له .

وآية سورة النور التالية فى الترتيب تنسخ حكم الزنا فى آيتى سورة النساء المذكورتين المتضمنتين لحبس المرأة فى البيت طول حياتها حتى الموت ، والإيذاء الموجع للرجل ، فقد نُسخ هذا الحكم سريعا ، وحلَّ مكانه حكم هذه الآية ، وهو جلد الزانى مائة جلدة وخصصته

السنَّة ! بجلد الأعزب غير المتزوج ، أما المتزوج ويسمى مُحْصَنا فجعلت السنة حده الرجم بالحجارة حتى الموت . وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : البِكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيِّب جلد مائة والرجم . والحديث يضيف إلى غير المتزوج تغريب عام أو نفى عام عن بلده لدعارته ، بينما يجعل الرجم حدَّ المتزوج . واتفق الأئمة على أن الزانية لا تغرَّب لأن فى ذلك مضيعة لها ، وأنكر أبو حنيفة التغريب على الرجال أيضا ، لأنه نقل ضار من مكان إلى آخر واحتج بأنه ليس موجودا مع الحد فى الآية . واتفق الأئمة على رجم المحصن أو المتزوج كما فى الحديث الرابع حديث ماعز بن مالك ، ولم يعرف عنهم الجمع بين الجلد والرجم ، ويشهد بذلك حديث ماعزٍ . والخوارج أجمعهم يرون أن حد الزانى متزوجا وغير متزوج هو مائة جلدة ، ويقولون إن الرجم ليس فى كتاب الله فلا رجم . ويقول الله فى الآية الثالثة : إن الحد ينبغى أن يقام إذ شُرع لكم استصلاحًا فلا تأخذكم بهما ﴿رأفة فى دين الله﴾ أى فى حكمه ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ ، والعبارة تهييج لإقامة الحد ، ولإلهاب الغضب ، ويأمر الله أن يحضر عذابهما ﴿طائفة من المؤمنين﴾ تشهيرا لهما وموعظة بعذابهما وازدجارا .

والآية الرابعة تنهى عن زواج الزانية كما تنهى عن زواج المشركة فهما سواء لا يتزوج منهما مسلم ، إنما يتزوج منهما الزانى والمشرك ﴿وحُرِّم ذلك﴾ أى الزواج من الزانية والمشركة ﴿على المؤمنين﴾ .

٦١ - الرِّبا

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ

البقرة ٢٧٥

٢ - يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ

البقرة ٢٧٦

٣ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ

آل عمران ١٣٠

٤ - وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ

الروم ٣٩

الأحاديث

١ - حديث مأخوذ من خطبة حجة الوداع وفيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

٢ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى عليه وسلم :اجتنبوا السبع الموبقات أى المهلكات ، وعدَّ من بينهن أكل الربا (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٣ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن آكلَ الربا وموكله (رواه مسلم والترمذى وزاد : وشاهديه وكاتبه) .

٤ – عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَع ما يَريبُك إلى ما لا يريبك (رواه الترمذى) .

والآية الأولى تتحدث عن أكلة الربا أى المنتفعين به ، والربا : كل قرض يؤخذ به أكثر منه ، وأصل معناه اللغوى الزيادة وفى الشرع الزيادة فى القرض ، كأن يقترض المقترض عشرة دنانير بشرط أن يردها بعد مدة ثلاثة عشر دينارًا ، وهو محرم شرعا ،لأنه يقتضى أخذ مال المقترض بغير عوض يعطيه له صاحب المال ، ولأنه يفضى إلى انقطاع المعروف بين أفراد الأمة الذى عملت الشريعة على قيامه بحيث يكون المسلمون إخوة متعاطفين . وشرعت لذلك مدَّ المحتاجين بأموال الأغنياء عن طريق ما يقدمونه من الزكاة والصدقة لا عن طريق الربا وابتزاز الأغنياء فى الأمة لأموال المحتاجين وأخذها دون أى مقابل . وعلة ثانية هى أن صاحب المال إذا تعود الكسب عن طريق الربا لا يحاول أن يوظف ماله فى عمل تجارى أو صناعى ، وبذلك يعطل انتفاع الأمة وأفرادها بماله عن طريق استثماره فى الأعمال المختلفة . وعلة ثالثة هي أن الغالب فى صاحب المال أن يكون غنيا وفى المقترض أن يكون فقيرا محتاجا ، فلو أصبح الربا مباحا لا ستغلَّ ذلك أصحاب المال وأصبحوا مسيطرين على شطر من الأمة وزادوه فقرا على فقر وضعفا على ضعف بما يسلبون من أمواله . ويقول الله إن أكلة الربا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا قياما مماثلا لقيام من يتخبطه الشيطان أى يصرعه (من المسِّ) أى الجنون أى كقيام المجنون المصاب بالفزع ، وذلك مقدمة العذاب الذى سينزل بهم يوم القيامة لأنهم قالوا (إنما البيع مثل الربا) كأنهم يقولون إن البيع فى التجارات فيه الربح الزائد على ثمن السلعة ، فلماذا الزيادة فى عروض التجارة حلال ، وهى حرام فى الربا ، وفاتهم أن الزيادة فى التجارة إنما هى لجلب السلعة وعرضها على المشترين فلها مقابل . بينما فى الربا لا مقابل لها ﴿وأحلَّ اللهالبيع وحرَّم الربا﴾ أى أحلَّ الله الأرباح فى التجارة بالبيع

والشراء وحرم الربا الذى هو زيادة فى المال لتأخير أجله فى الرد . ويقول الرسول صلى اللهعليه وسلم فى خطبة حجة الوداع فى الحديث الأول : ألا وإن ربا الجاهلية موضوع أى ساقط ، وإن أول ربا أبدأ بإسقاطه ربا عمى عباس بن عبد المطلب ، فإنه ساقط كله .

ويبين الله– جَلَّ شأنه – فى الآية الثانية عاقبة الربا فى الدنيا بعد أن بيَّن عاقبته فى الآخرة ، والمحق هو المحو ، ويمحق الله الربا أى إما أن يسحقه جميعا ، وإما أن يذهب من المال بركته ، فلا ينتفع به صاحبه النفع المأمول ، إذ هو من السبع الموبقات المهلكات كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى ، وقد لعن آكله وموكله فى الحديث الثالث . وقارن الله – فى الآية الثانية – بينه وبين الصدقة التى يسعف بها الغنى المحتاج لها من أبناء الشعب ، فقال إنه يُربى الصدفات أى أنه يزيد فى ثوابها ويضاعفها للمتصدِّق بها ، وفى حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصدَّق بصدقة من كسب طيب – ولا يقبل الله إلا الطيب – فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يُرْبيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوَّه أى مُهْره .

وينهى الله المؤمنين فى الآية الثالثة أن يتعاملوا بالربا كما كان آباؤهم يتعاملون به فى الجاهلية ، إذ كان صاحب المال حين يحل أجل ماله يقول لمستقرضه منه : إما أن تقضى ما عليك ، وإما أن تُربى ، فإذا لم يقضه زاده فى الربا ، وهكذا كل عام ، فكان يتضاعف الربا ، ويتضاعف القرض . وليس الغرض من النهى فى الآية عن الربا المضاعف بحيث يظن ظان أنه إذا لم يكن مضاعفا سقطت عنه الحرمة فإنما ذكر ذلك للتشنيع على آكل الربا ، أما النهى فينصب على الربا مطلقا بدليل آيتى سورة البقرة المارتين .

واختلف المفسرون فى الآية الرابعة هل كلمة الربا فيها تعنى معناها الشرعى المار فى الآيات السابقة وأنها تنهى أغنياء المؤمنين عن مواساتهم لفقرائهم بإقراضهم أموالا يكتسبون بها ، وهو معنى قوله تعالى فى الآية إنه ربا يربو أى يزيد فى أموال الناس الأغنياء ، ويقول إنه لا يربو عند الله ولا يتقبله .وربما نزلت الآية بهذا التفسير قبل تحريم الربا تحريما قاطعا فى سورتى البقرة وآل عمران . وذهبت كثرة المفسرين إلى أن كلمة الربا

في الآية يراد بها معناها اللغوى وأن المراد بها الزيادة فى أموال الغير عن طريق ما يعطونهم من هبات ، وأن الله يقول إن نفع ذلك يعود إليهم دون ثواب عليه من الله .

وكان التحريم القاطع للربا فى سورة البقرة وتوعد صاحبه بالعذاب فى الدنيا والآخرة سببا فى أن يرى الفقهاء أن كل ما يظن أنَّ به شائبة ربا يُعد التعامل به حراما ، ومما قالوه أن كل قرض يجر أى منفعة يعد ربا ، وكان المسلمون يتحرون أن يبعدوا عن كل ما فيه شبهة ربا عملا بالحديث الرابع : دع ما يَرِيُبك إلى ما لا يريبك .وجَدَّت فى هذا العصر مسألة استثمار الأموال فى البنوك وهل تَعدُّ ربا أو لا تعد ، وطال فيها النقاش وكثر الجدل ، والصحيح أنها ليست من الربا المحرم ، لأن المحتاج فيها يحفظ أمواله ويستثمرها ويعود عليه منها فائدة مالية .

٦٢ - الخمر - الميسر

القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

١ - ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ

البقرة : ٢١٩

٢ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ

النساء : ٤٣

٣ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

المائدة : ٩٠

٤ - إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

المائدة : ٩١

الأحاديث

١ - عن عبدالله بن عمر رضى اللهعنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله حرّم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

٢ – عن عبدالله بن عمر رضى اللهعنهما قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم : لُعنت الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

٣ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يشرب (أحد) الخمر حين يشربها وهو مؤمن (رواه مسلم أثناء حديث فى كتاب الإيمان) .

٤ – عن أبى سعيد الخدرى قال الرسول اللهصلى اللهعليه وسلم : لا يدخل الجنة مدمن خمر (رواه ابن حنبل فى مسنده والنسائى) .

والآية الأولى تصف الخمر والميسر أى القمار بأن فيهما إثما كبيرا ومنافع للناس ، والخمر : كل شراب مسكر سواء كان عصير عنب أو ماء نُبذ فيه زبيب أو تمر أو شعير أو غير ذلك مما يسمى بالنبيذ . وقيل إن السائلين عن حكم الخمر فى الآية هم عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالوا يارسول الله أفْتِنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال ، فنزلت هذه الآية فى وصف الخمر وأن فيها إثما كبيرا أى معصية كبيرة لا ترضى الله ، وفيها منافع هى منافع التجارة والربح المالى منها ، وكانت تتجر فيها اليمن والطائف ، وأيضا ربما كانت فيها منافع من المتاع بها واللذة . والميسر : قمار كان يلهو به العرب فى الجاهلية ، وكانوا يتخذون فيه عشرة قداح جمع قِدْح بكسر القاف ، وهو سهم من شجر النبع الذى كانوا يتخذون القِسِىَّ والسهام منه ، وليس فى رأسه سنان ، وسموا القداح العشرة : الفذّ والتوءم ،والرقيب ، والحِلْس بكسر الحاء ، والنافس ، والمسبل ، والمعلّى ، والسَّفيح ، والمنيح ، والوَغْد . والسبعة الأول تربح فلها حظوظ بترتيبها ، والثلاثة الأخيرة لا تربح فليس لها حظوظ ، وتسمّى أغفالا جمع غفل أى ليس له علامة ، أما السبعة الرابحة فلها علامة توضع فى أسفل كل منها . وإذا أرادو المقامرة اشتروا جَزورًا وأجَّلوا ثمنه إلى ما بعدها ويجعلونه عشرة أجزاء بعدد القداح ، ويضعون القداح فى كيس من جلد يسمى الرِّبابة ، وله مخرج ضيق يخرج منه قدحان ، ووكلوا به رجلا يسمونه الحُرْضة ، ووراءه رقيب يأمره بابتداء الميسر قائلا: جَلْجل القداح أى حركْها ، ويخرج قدح باسم مقامر ، وإن كان رابحا أُعطى لصاحبه ، وتعاد الإجالة ، ومن خرجت لهم القداح الأغفال يدفعون ثمن الجزور . وإثم الميسر من إضاعة الوقت وما يحدثه من العداوة والبغضاء بين المتقامرين والبعد عن ذكر الله وعن

التجارة ، وكل ذلك إثم كبير لا يرضى الله . أما المنافع فما يعود على الرابح فى القمار مما قد يوزعه على فقراء القبيلة من نصيبه .

ونزلت الآية الأولى بعد غزوة الأحزاب بأيام ، وكانت قبلها مباحة بشهادة آية سورة النحل النازلة فى مكة وهى قوله تعالى : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكرا﴾ قال بعض المفسرين أى خمرا ، فكان بعض الصحابة يشربونها . ولما نزلت الآية الأولى المذكورة ترك الخمر نفر ممن كانوا يشربونها ، وشربها أو ظل يشربها نفر آخر إلى أن حُرِّمتْ تحريما باتًّا .

وتشير الآية الثانية إلى أن الله- جَلَّ شأنه - لم يحرم الخمر فى الآية السابقة ، وإنما هيأ بها لذلك حتى يكون تحريمها تدريجا ، وبذلك ظل يتعاطاها بعض الصحابة ويقال إن نفرا منهم تعاطوها على طعام ثم قاموا إلى الصلاة فقدموا أحدهم فقرأ بعد الفاتحة سورة (الكافرون) وخلَّط فيها فأنزل الله تلك الآية الثانية ناهيا المؤمنين أن يصلوا وهم سكارى بل ينتظروا حتى يفيقوا من سكرهم ويصلوا أو كما قال - عزَّ شأنه - ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ فإن السكران لا يدرى ما يقول ويخلِّط ويخطئ فى القراءة . وكان الرسول صلى اللهعليه وسلم : إذا قامت الصلاة يأمر مناديًا ينادى فى الناس : لا يقرب الصلاة سكران .

والآية الثالثة فى تحريم الخمر تحريما قاطعا ، وقيل إنها خمر العنب وحده ، وليس ذلك بصحيح إذ تشمل كل مسكر من شراب العنب المخمَّر ومن الأنبذة ، وفى سنن أبى داود عن النعمان بن بشير أن الرسول صلى الله عليه وسلم : قال إن الخمر من عصير العنب والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة . وفى الأشربة بالبخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال إنه قد نزل تحريم الخمر ، وهى من خمسة أشياء : العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل . ويلحق بهذه المسكرات فى عصرنا مسكرات المخدرات وبخاصة من الأفيون والحشيش والكوكايين . وأدَّى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة إذا لم تؤدِّ إلى الاسكار المعتاد ، غير أن الناس فيما بعد تجاوزوا ما لا يسكر إلى ما يسكر ، ومن المجمع عليه بين جمهور الفقهاء أن ما يسكر فقليله حرام ، وقد حدَّ الخليفة عمر بن الخطاب فى الخمر .

وحرمت الآية الميسر أو القِمار مع الخمر ، وألحق الحديث الأول بالخمر والميسر الكَوبة

ويراد بها ميسر الفُرْس من النَّرْد والشطرنج ، وقال الشافعى إذا لم يصحبهما رهان ولم يعطلا عن الصلاة فإنهما مباحان ، لأن الميسر المحرَّم ما يصحبه دفع المال وأخذه . والغبيراء فى الحديث الأول شراب مسكر ، وللرسول صلى الله عليه وسلم : أحاديث كثيرة فى تحريم الخمر والنهى الشديد عن تعاطيها كما فى الحديث الثانى إذ يلعنها ، ويلعن شاربها وساقيها وبائعها ومشتريها وحاملها ومن تحمل إليه وعاصرها ومعتصرها والمنتفع بثمنها . وهو فى الحديث الثالث يقول إن شارب الخمر يُنْزَعُ الإيمان من فؤاده حين يشربها إذ لا يخاف ربَّه الذى حرَّمها تحريما قاطعا ، ويقول فى الحديث الرابع إن مدمنها لا يدخل الجنة ، فقد ظل يعصى الله بشربها فى دنياه مرارا وتكرارا غير آبه بتحريم الله لها وأمره له باجتنابها . والله– جَلَّ شأنه – إنما يريد بتحريم الخمر والميسر أو القمار على المسلمين وعدهما رجسا من عمل الشيطان أن يظل عندهم حكم العقل سليما فلا يدخل عليه ما يذهبه أو يخدِّره أو يعطله أو يدفعهم إلى ضلال وغواية . ومن المؤكد أنه أراد للأمة الإسلامية أن تكون أمة فاضلة إذ حرم عليها الخمر ولم يحرمها على شريعة سابقة ، إعزازا لها . وبالمثل تحريمه عليها القمار حتى لا تنصرف عما يفيد المسلمين فى الحياة . والأنصاب حجارة حول الكعبة كانوا فى الجاهلية يذبحون قرابينهم عندها لآلهتهم ، والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها ، فإن خرج القدح يأمرهم بما يريدون عملوا به وإن نهاهم عنه انتهوا ، والأزلام والأنصاب تتصل بشعائر دينهم الوثنى القديم ، وكل ذلك رجس أى قذر محرم من عمل الشيطان ويجب أن تجتنبوه ليكتب لكم الفلاح فى الدنيا والآخرة .

ويحذر الله – تبارك وتعالى – فى الآية الرابعة من طاعة الشيطان ، فإنه يريد بعصيانكم وإكبابكم على الخمر والميسر – ومثلهما ما جدَّ فى عصرنا من المحدرات – أن تشيع بينكم العداوة والبغضاء بما يسوِّل لكم شرب المسكرات من التفاخر والتحاسد ، والعداء وخاصة بين بعض المتعاطين فى عصرنا للمخدرات من الشباب وآبائهم بسبب حاجتهم إلى النقود . وتسبب المقامرة الغيظ والحسرة والغضب مما يدفع الأفراد فى الأمة إلى التنافر وقد يؤول ذلك إلى عداوة وبغضاء ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا . والشيطان لا يبغى ذلك فحسب بل يبغى أيضا أن يصدكم عن ذكر الله وتلاوة قرآنه وعن الصلاة والتسبيح فيها لله ، ويقول الله للمؤمنين : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ وهو أمر بالانتهاء وتهديد شديد لمن لا ينتهون ، ولذلك رُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سمع هاتين الآيتين ونهايتهما قال : انتهينا انتهينا .

٦٣ - الظلم

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

المائدة : ٤٥

٢ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ

إبراهيم : ٤٢

٣ - إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

لقمان : ١٣

٤ - مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾

غافر : ١٨

الأحاديث

١ - عن أبى ذر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيما يروى عن ربه حديثا قدسيا قال : يا عبادى إنى حرَّمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرَّمًا ، فلا تظالموا (رواه مسلم فى كتاب البر) .

٢ - عن أبى موسى الأشعرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ليُملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته . وقرأ : ﴿وكذلك أَخْذُ ربِّك إذا أخذ القُرَى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ . (رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة) .

٣ – عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظَلَم قِيدَ شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين يوم القيامة (رواه البخارى فى المظالم) .

٤ – عن معاذ رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتَّق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (رواه البخارى فى كتابى الزكاة والتوحيد ، ورواه ومسلم فى كتاب الإيمان) .

وآية سورة المائدة الأولى نزلت تأييدا للقصاص الذى حكم به الرسول لليهود حين استفتوه فى قتلهم لشخص فرفعوا الأمر إليه آملين أن يحكم بأخذ دية فحكم بالقصاص وهو نفس حكم التوراة ، والله – لذلك – يقول لهم إن من لا يحكم بما أنزل الله فى التوراة من القصاص فإنه يعد فى الظالمين ، إذ ظلم أهل القتيل بدون أن ينالوا من القتبل جزاء عدوانه الآثم . وقد شرع القصاص لحكم عظيمة ، حتى يزدجر الناس ولا يرتكبوا هذا العمل الوحشى ، وحتى لا يتمادوا فى أن يسفك بعضهم دماء بعض ، وحتى لا يقتل بالقاتل إلا قاتله ، وحتى لا يترصد أهل القتيل قريبا من عشيرة القاتل أو أسرته فيقتلوه به ، ولذلك يقول الله : ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ . وبذلك كان مَنْع اليهود لعقوبة القصاص المذكورة عندهم فى التوراة ظلم شنيع ، إلا أن يعفو أهل القتيل فيكون ذلك عن طيب نفس منهم وتراضٍ بينهم . وليس معنى ذلك إلغاء القصاص ولا الاستخفاف به فإن من يستخف به أو يلغيه يكون ظالما أقبح الظلم .

ويقول الله لرسوله فى الآية الثانية لا تحسبنَّ أن الله إذا أجَّل الظالمين فلم يعاقبهم توا فى الدنيا أنه غافل عنهم مهمل لهم ولن يعاقبهم على ظلمهم . والظلم فى الآية يشمل ظلم الله بالكفر وظلم الناس بالعدوان عليهم وسلب حقوقهم ، ويقول الله فى الحديث القدسىّ الأول : ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما . ومن أسوأ صور الظلم ظلم الأقارب ، وظلم الضعفاء ، وعقابه شديد ، فإن صاحبه يحرم من نعيم الجنة ويقذف به فى عذاب الجحيم ، ويقول الله فى بقية الآية الثانية عن الظالمين وتأجيله لهم العذاب : ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ من شدة الخوف والفزع فلا تطرف لهم عين ، وهو يوم القيامة ، والظالمون فيه يُرَوْنَ – كما يقول الله عقب الآية

- ﴿مهطعين﴾ مسرعين ﴿مقنعى رءوسهم﴾ مطأطئين لها ذلا (لا يرتد إليهم طَرْفهم) ولا تتحرك جفونهم من شدة الهول ﴿وأفئدتهم هواء﴾ خالية لا يعون شيئا . ثم يعذبهم الله - جزاء بغيهم وظلمهم -عذابا اليما ، وهو ما يصوره بدقة الحديث الثانى إذ يقول الرسول إن الله يملى للظالم أى يؤخره ، كما قال فى آية أخرى : ﴿إنما نُمْلى لهم ليزدادوا إثما﴾ فهو يؤخر عذابه لتكثر آثامه وتكثر ذنوبه ، فإذا كتب عليه الموت وأخذه لم يمهله ولم يفلته . وقرأ الرسول بعد الحديث آية سورة هود : ﴿وكذلك أَخْذُ ربِّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ والمقصود بالقرى قرى قوم لوط وهود وصالح وشعيب ، ممن ارسل الله فيهم هؤلاء الرسل وأمثالهم ، فظلوا يدعونهم إلى الإيمان بالله وهم يكذبونهم ، والله يملى لهم ويطاولهم ، حتى إذا لم يعد إلا أن يعتدوا على رسله أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

والآية الثالثة تقول ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وهو ظلم للنفس إذ يظلم المشرك نفسه ، فيلغى عقله والتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وكأنه لا يبصر شيئا من آيات الله فى الكون ولا يسمع ما يتلو الرسول من آى الذكر الحكيم ويهمل النظر والفكر ، فلا يؤمن بوجود ربه وأنه واحد يدبر الكون بل يعيش معيشة وقتية مادية يقدس أوثانا وأصناما يصنعها بيديه ويقدس آلهة لا حول لها ولا قوة . وهى معيشة حيوانية صرفة ، ليس فيها حياة روحية ولا حياة عقلية ، فأى ظلم للإنسان الوثنى المشرك بربه أشد من هذا الظلم ، وهو ظلم ينتهى به إلى عذاب مؤلم يصلاه فى جهنم : ظلم فى دنياه وظلم فى آخرته . وبجانب ظلمه لنفسه ظلمه لربه ، إذ لا يعترف بوحدانيته ولا بشرائعه التى أنزلها على رسله وخاصة الشريعة الإسلامية ، فضلا عن أنه لا يعبده ولا يتمتع بعبادته وما تغذى به نفسه من المتاع الروحى .

وتنذر الآية الرابعة الظالمين بأنهم لن يجدوا لهم يوم القيامة حميما محبا لهم يشفق عليهم مماهم مقبلون عليه من العذاب ، ولن يجدوا شفيعا يشفع لهم عند الله ، فالجميع يتبرءون منهم ومما يحملون على ظهورهم من جرائم الظلم سواء فى حقوق الله أو فى حقوق الناس . والآية وعيد شديد للظالمين ويزيدها الرسول شدة إذ يقول فى الحديث الثالث

إن من ظلم شخصا قدر شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين أى يصير له الشبر يوم القيامة كطوق فى عنقه ، ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم : من ارتكاب معصية الظلم ، ويكثر من هذا التحذير في أحاديثه وأن مرتكبها يغضب الله ويسخطه ويحرمه من نعيم الجنة فى الآخرة ، ومن أحاديثه المشهورة الحديث الرابع : اتَّق دعوة المظلوم واحذرها إذ ليس بينها وبين الله حجاب . وروى مسلم فى صحيحه بكتاب الإيمان عن الرسول أنه قال : من اقتطع حقا لمسلم بيمين أوجب الله النار له وحرَّم عليه الجنة ، فسأله رجل قائلا : وإن كان شيئا يسيرا يارسول الله ؟ قال وإن كان عودا من شجر الأراك .

٦٤ – الكبر – العُجْبُ

القرآن الكريم
قال تعالى :

١ – ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٣٤)

البقرة ٣٤

٢ – ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾

الفرقان ٢١

٣ – ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٧٢)

الزمر ٧٢

٤ – ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨)

لقمان ١٨

الأحاديث

١ – عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : في حديث قدسي : قال الله عزّ وجل : العز إزاري والكبرياء ردائي ، فمن ينازعني عذبته (رواه مسلم في كتاب البر والصلة) .

٢ – عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من كبر (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٣ – عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء (رواه البخارى ومسلم) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بطرا (رواه البخارى ومسلم) .

والله – فى الآية الأولى يأمر الملائكة بالسجود لآدم لفضله عليهم بالعلم كما أشار إلى ذلك قبل هذه الآية ، فأذعنوا لأمره وسجدوا له ما عدا إبليس أبا الشياطين كما أن آدم أبو الناس جميعا . وأبى إبليس وامتنع أن يسجد لآدم ﴿ واستكبر﴾ أى ازداد فى كبره معتقدا أنه خير منه كما قال فى سورة الأعراف لربه : ﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ وصار إبليس بذلك من الكافرين لاستكباره عن القيام بما أمره الله . ويقول الله فى الحديث القدسى الأول : إن العز والكبرياء أى العظمة مختصان بى لا يشاركنى فيهما غيرى كما لا يشارك أحد شخصا فى إزاره وهو ما يلبسه الشخص من وسطه إلى قدميه ولا فى ردائه الذى يغطى جسده جميعه . ويقول الله فيمن ادعاهما : فمن ينازعنى ويخاصمنى فيهما صار كافرا وعذبته . والله فى الآية الثانية يصف فى سورة الفرقان من طلبوا من الرسول من مشركى قريش رؤية الله أو إنزال الملائكة بأنهم استكبروا فى أنفسهم وتعالوا عن الاستجابة إلى رسول الله وطغوا طغيانا كبيرا . والاستكبار : المبالغة فى الكبر والتمادى فيه ، وهو شعور ذميم بالاستعلاء على الناس . والمتكبر لا يصغى إلى الحق ، بل يركب رأسه ولا يقبل نصحا ولا إرشادا ، ويروى أن أحد المتكبرين فى الزمن الماضى رآه الناس يجلس فى حلقة مقرئ يقرأ بعض آى الذكر الحكيم ولما فرغ المقرئ من قراءته فوجئ مَنْ كانوا فى الحلقة بقوله لهم أتعرفون لِمَ جلستُ إليكم ؟ قالوا جلست لتسمع بعض كلام الله فقال لهم : لا ، إنما أردت أن أتواضع لله بالجلوس إليكم . ومثل هذا المتكبر لا يرجى منه خير ولا ينفع فيه لوم ، وعلى شاكلته كفار قريش الذين كان يعرض عليهم آيات الله رسولهُ محاولا بكل مايستطيع أن يهديهم وينقلهم من ظلمات الوثنية والضلال إلى نور التوحيد لله وهداه فيصموا آذانهم استكبارا واستعلاء . وفيهم وفى أمثالهم من المتكبرين المتغطرسين على الناس الذين ينزلون أنفسهم منهم منازل عليا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحديث الثانى ، وهو أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ويقول رب العزة كما فى الآية الثالثة للمتكبرين : ادخلوا

أبواب جهنم خالدين فيها إلى أبد الآبدين . والمتكبر مذموم عند الناس ممقوت ، ولو أنه فكر فى نفسه ومآله وأنه من التراب وإلى التراب يعود لخفَّض من كبره واستبدل بعتوه وطغيانه لينا ورفقا بالناس فى حديثه إليهم وتعامله معهم .

وعُجْبُ الشخص بنفسه أيضا مذموم إذ يستكثر فضله ويزهو بنفسه ، فإن كان عالما ظن أنه فوق العلماء وإن كان أديبا ظن أنه فوق الأدباء ، وإن كان غنيا تأنق فى لبسه واختال فى مشيه . وينفِّر لقمان ابنه من هذا الزهو والعجب بنفسه فى آية سورة لقمان إذ ينصحه بقوله : ﴿ولا تُصَعِّرْ خدَّك للناس﴾ أى لا تُمِلْ خدَّك مع عنقك معرضا عن الناس كناية عن شعوره باستعلائه عليهم ، وهو تعبير قرآنى بديع ، إذ أصل الصَّعَر داء يصيب البعير فى شِقَّىْ وجهه وعنقه ، فيجعلهما مائلين ، فعبَّر القرآن به عن ميل المعجب بنفسه لخدِّه نعاليا إعراضا عن مكلمه زهوا أو استعلاء ﴿إن الله لا يحب كل مختال﴾ أى ذى خُيَلاء معجب بنفسه (فخور) يفخر بآبائه وبأعماله مدلا بها مزهوا . ويروى أن أعرابيا أتى رسول الله - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - فأصابته رعدة شديدة ولاحظ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال له هَوِّنْ على نفسك يا أخى إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد بمكة ، والقديد لحم يقطع شرائح ويملَّح ويجفَّف فى الهواء والشمس أى أنه ابن سيدة عادية ، وإنما قال الرسول ذلك قطعا لذرائع الخوف فى نفس الرجل ، ودفعا لما قد يستشعر هو من الخيلاء وتذليلا لشعور الاستعلاء ، وتواضعا حميدا بين أصحابه . ومن ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - وهو خليفة ، إذ نادى : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم : ثم قال : أيها الناس : لقد رأيتُنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم ، فَيَقْبِضْن لى القبضة من التمر والزبيب ، فأظل اليوم وأى يوم فقال له عبد الرحمن بن عَوْف : والله يا أمير المؤمنين مازدت على أنْ قصَّرت بنفسك ، فقال عمر ضى الله عنه : ويحك يابن عَوْف إنى خلوت بنفسى فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرِّفها نفسها . ومن أهم أسباب العجب عند بعض الأشخاص كثرة المتزلفين إليه بالمديح ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : ينهى عن مديح الشخص فى وجهه ، وروى عنه أنه قال : إياكم والتمادح فإنه الذبح إن كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب ولا أزكىٌّ على الله أحدا . وينبغى للعاقل أن لا يصدق مدحا مبالغا يوجهٌ إليه إذ قلَّ مدح يكون جميعه حقا وصدقا . وكان أبو بكر

الصديق – رضى الله عنه – إذا مُدح قال : اللهم أنت أعلم بى من نفسى ، ونفسى أعلم بى منهم ، اللهم اغفرْ لى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون . ويقول الله فى سورة النجم آمرا عباده : ﴿فلا تُزَكُّوا أنفسكم﴾ . وهو تحذير للمسلمين من الشعور بالعجب لأعمالهم الحسنة ، أو لأعمال غيرهم كما جاء فى حديث أم عطية فقد مات عثمان بن مظعون فى بيتها فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : رحمة الله عليك ، فشهادتى عليك : لقد أكرمك الله . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يُدْريك أن الله أكرمه ، إنى لأرجو له الخير ، وإنى – والله – ما أدرى وأنا رسول الله ما يُفْعل بى . وقالت أم عطية . فلا أزكى أحدا بعدما سمعت هذا من رسول الله . وشاع هذا الحديث ، فكان الصحابة إذا أثنوا على أحد قالوا لا نعلم عنه إلا خيرا .

٦٥ – شهادة الزور

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾

البقرة ٢٨٣

٢ – ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾

النساء ١٣٥

٣ – ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾

الحج ٣٠

٤ – ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾

الفرقان ٧٢

الأحاديث

١ – عن أبى بكرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : يارسول الله بَلَى قال : الإشراكُ بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال : ألا وشهادة الزور ومازال يكررها مرارا (رواه البخارى فى الشهادات وفى مواضع مختلفة) .

٢ – عن أنس ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكبائر ، فقال : الشِّرْكُ بالله ، وقتل النَّفْس ، وعقوق الوالدين . ثم قال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : شهادة الزور (رواه مسلم فى كتاب الإيمان) .

٣ – عن خريم بن فاتك الأسدى قال : صَلَّى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صلاة الصبح ، فلما انصرف منها (أى قضاها) قام قائما فقال : عدلت شهادة الزور الإشراكَ بالله عزَّ وجَلَّ ثم تلا آية سورة الحج المذكورة (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

٤ – عن زيد بن خالد الجهنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسْألها (رواه مسلم فى كتاب الأقضية) .

والله – جَلَّ شأنه – فى الآية الأولى ينهى عن كتمان الشهادة بعد قوله فى الآية قبلها : ﴿ولا يَأْبَ الشهداء إذا مادُعُوا﴾ لتحمُّل الشهادة ، فيحضرون للنطق بها وإعلانها إحقاقا للحق ، ويجب عليهم أن لا يكتموها ولا يخفوها بقول كلام مبهم ، وزيادة فى التحذير من كتمانها ، يقول الله : ﴿ومَنْ يكتمها فإنه آثمٌ قلبه﴾ أى يكون مذنبا ذنبا كبيرا .

ويأمر الله فى الآية الثانية المؤمنين بأن يلتزموا بالقسط أى العدل فى جميع أحوالهم وأمورهم ﴿شهداء لله﴾ أى تشهدون الشهادة العامة له الصادقة ابتغاء وحه الله بحيث لا يخالطها تبديل ولا تحريف و كتمان ﴿ولو على أنفسكم﴾ أى تشهدون الحق ولو عاد منه ضرر عليكم فإن الله سيجعل لكم فرجا من كل ضيق ، وبالمثل لو عاد منه ضرر على الوالدين والأقربين . وكان العرب فى الجاهلية يجعلون من الحقوق عليهم الانتصار لآبائهم وأقربائهم فأبطلت الآية هذه العصبية ، وأوجبت على المسلم أن ينتصر للحق ولو كان فيه ضرر أو أذى لأبويه وأقاربه . ويقول الله إن كان المشهود له غنيا أو فقيرا فلا تشهدوا لهما إلا بالحق ﴿فالله أولى بهما﴾ منكم وأعلم بما فيه صلاح شأنهما . ويقول : ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أى فلا تتبعوا الهوى والعصبية لأنفسكم وآبائكم وعشائركم لتعدلوا وتأخذوا أنفسكم بالعدل الذى

أوجبه الله عليكم فى جميع أموركم وشئونكم وشئون آبائكم وذويكم ﴿وإن تَلْوُوا﴾ أى تعدلوا عن الصدق فى الشهادة وتحرِّفوا فيها أو تتعمدوا الكذب أو ترفضوا أداءها ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ وهو وعيد لمن يكذب فى الشهادة أو يحرِّف فيها أو يغير ، إذ تصبح شهادة زور أو كذب وباطل وقد شدد الله فى النهى عنهـا كما فى الآية وكما فى الحديثين الأولين إذ قرنهـا الرسول إلى الإشـراك بالله .

والرسول صلى الله عليه وسلم : إنما يصدر فى قَرْنها بالإشراك بالله عن الآية الثالثة إذ جعلها الله قرينة لعبادة الأوثان والإشراك به وجعلها الرسول صلى الله عليه وسلم : من أكبر الكبائر فى الحديثين السابقين ، كما يقرنها بالآية الكريمة فى الحديث الثالث إذ قال : عدلتْ شهادة الزور الإشراك بالله ، وتلا الآية .

ويعدِّد الله فى آخر سورة الفرقان خصال المؤمنين الفاضلة ويذكر من بينها أنهم لا يشهدون فى قول سمعوه ولا فى فعل رأوه شهادة زور كما فى الآية الرابعة ، فهم لا يكذبون فى شهادتهم أبدا بل دائما يقولون الصدق والحق . واللغو : الكلام الغث ، والمؤمنون إذا مروا بأهله انصرفوا عنهم و (مروا كراما) متنزِّهين عما هم فيه من اللغو كما قال تعالى فى سورة القصص : ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين﴾ . وفسرت كلمة يشهدون فى الآية الرابعة تفسيرًا آخر بمعنى يحضرون أى أنهم لا يحضرون الزور أى الباطل من كلام المشركين وملاهيهم وعباداتهم ، أو من كلامهم السفيه عن الرسول والمؤمنين وإذا مروا بهم أعرضوا ومضوا لا يلتفتون إليهم .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : فى الحديث الرابع : ألا أخبركم بخير الشهداء أى الشهود جمع شهيد بمعنى شاهد ، ثم يقول : الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسْألها أى من عنده شهادة لشخص بحق من حقوقه ، ولا يعلم الشخص أنه شاهد له بحقه فيأتيه ويخبره أنه شاهد له . ومثل هذا الشاهد جدير بثناء الرسول عليه . ولا تعارض أو تناقض بين هذا الحديث والحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بشر الشهداء ؟ الذين يشهدون قبل أن يُسْتَشْهدوا أى يطلبوا للشهادة فإن المراد بهم فى هذا الحديث شهداء الزور ، وهم أنفسهم المذكورون فى حديث لأبى هريرة ، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : خير أُمتى القرن الذين بُعثت فيهم ثم الذين يلونهم .. ثم يخلف قوم يَشْهدون ولا يُسْتشْهدون . رُوى هذا الحديث بصور متعددة ، والمراد دائما شهداء الزور الذين ينتظرهم عند الله فى الآخرة عذاب الجحيم الأليم .

٦٦ - الحسد

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ - بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

البقرة ٩٠

٢ - وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ

البقرة ١٠٩

٣ - أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ

النساء ٥٤

٤ - قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾
... وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

الفلق ١ ، ٢ ، ٥

الأحاديث

١ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (رواه أبو داود فى سننه) .

٢ – عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا (رواه مالك فى الموطأ وابن حنبل فى مسنده والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى) .

٣ – عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلَّطه الله على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلِّمها (رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين) .

٤ – عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو يتصدقُ به آناءَ الليل وآناء النهار (رواه مسلم مع الحديث السابق فى كتاب صلاة المسافرين) .

الآية الأولى نزلت فى اليهود ، وهى تسجل عليهم ذمَّ ما صنعوه واعتقدوه من أنهم اشتروا أنفسهم أى ابتاعوها بكفرهم بمحمد وما أُنزل عليه من القرآن ، طلبا للدنيا وإبقاء على ما لهم فيها من الجاه ، وبئس هذا العرض إذ كفروا بالقرآن والإيمان بمحمد مؤثرين المتاع الدنيوى على ما عند الله من النعيم الأخروى ، ويقول الله إنهم اختاروا ذلك ﴿بَغْيًا﴾ وظلما وحسدا ذميما ﴿أن ينزِّل الله من فضله﴾ رسالته ﴿على من يشاء من عباده﴾ غير اليهود ، وكانوا يزعمون أنهم المخصوصون بالنبوة دون العرب وغيرهم من الشعوب ، والله يرد عليهم بأن النبوة فضل ونعمة يسبغها على من يشاء من عباده (فباءوا بغضب) من الله ﴿على غضبٍ﴾ والغضب الأول لكفرهم بعيسى وما أرسل به من الإنجيل ، وقيل بل عبادتهم للعجل ، وهو عجل أبيس الذى كانوا يعبدونه فى مصر مع المصريين كما قلت فى تفسير آيته بسورة البقرة . والغضب الثانى لكفرهم برسولنا وكتابه كما سجلت ذلك عليهم الآية ، ويتوعدهم الله بعذاب مهين أشد الهوان .

وتسجل الآية الثانية على أهل الكتاب وخاصة من اليهود أن كثيرين منهم يتمنون لو رجع

المسلمون بعد إيمانهم كفارا كما كانوا فى الجاهلية يعبدون الأوثان ويشركون بالله ﴿حَسَدًا﴾ للمسلمين على اعتناقهم للدين الحنيف . وهو حسد متأصل فى ذات أنفسهم مستقر فيها استقرارا شديدا ، ويقال إن الآية نزلت فى حُيَيّ بن أخطب وأخيه أبى ياسر اليهوديين ، وكانا من أشد اليهود عداوة للرسول وحسدا على ما أنزل الله عليه من نعمة رسالته العظيمة ، وكانا يحاولان بكل ما يستطيعان رد الناس عن الإسلام فنزلت الآية فيهما وفى أضرابهما ، ناعية عليهم حسدهم للرسول ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وأن رسالة محمد صادقة كل الصدق لما تقوم عليه من التوحيد الإلهى والإيمان بالأنبياء والرسل . ويمكن أن يكون المراد بالحق ما وجدوه عندهم مكتوبا فى التوراة – ومثله فى الإنجيل – عن محمد ودينه الحنيف ، غير أنهم صَمُّوا آذانهم وكفروا به حسدًا وبغيا .

والآية الثالثة نزلت – بالمثل – فى أهل الكتاب وخاصة اليهود منكرة عليهم حسدهم الناس على ما رزقهم الله من فضله . ويمكن أن يكون المراد بالناس الرسول وحسدهم له لما منَّ الله عليه من النبوة العظيمة ، ويمكن أن يكون المراد بالناس المؤمنين يحسدونهم لما منَّ الله عليهم من الهدى والإيمان برسوله ورسالته وقرآنه العظيم . والحسد : تمنى زوال النعم عن صاحبها ، سواء كانت نعمة دنيا ومال أو كانت نعمة دين وصلاح ، ويقول عمر بن الخطاب : ما من أحد عنده نعمة إلا وجدتَ له حاسدا . والحسد خصلة ذميمة من الكبائر العظمى ، لا لما ينطوى عليه من إرادة زوال النعمة عن صاحبها فحسب ، بل أيضا لأنه غضب على قضاء الله وقسمته للنعم والأرزاق بين عباده . ولكل نار ما يطفئها إلا نار الحسد ، فإن شيئا لا يطفئها . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول : إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، ومنه يتولد الحقد على الناس وما أنعم الله به عليهم ، والحقد أصل كل شر .

والحسد أول ذنب عُصِى الله به فى السماء ، وأول ذنب عُصى الله به فى الأرض . أما فى السماء فلأن الله لما علَّم آدم الأسماء كما فى سورة البقرة ولم يعلمها الملائكة قال لهم تكريما لعلمه : ﴿اسْجُدوا لآدم﴾ وكأنه فَضَّله عليهم بسبب علمه ، فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى واستكبر ، ولما راجعه رب العزة عن سبب امتناعه من السجود لآدم قال :– كما فى سورتى الأعراف وصَ : ﴿أنا خير منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين﴾ . وهو حسد منه لآدم : أن يسجد له ، وعاقبه الله عقابا أليما إذ طرده من الجنة والملأ الأعلى مذموما مدحورا . ولعنه هو وذريته من الشياطين وتوعده هو أتباعه ليملأنَّ جهنم منهم أجمعين . أما أول ذنب عُصى

الله به فى الأرض فذنب قابيل أخى هابيل ابنى آدم ، وكان قابيل – كما تقول التوراة – فلاحا يزرع الأرض ، وكان هابيل راعيا لغنم ، وقرَّب كل منهما لله قُرْبانا ، أما قابيل فمن ثمار زرعه ، وأما هابيل فقرَّب من غنمه ، فتقبَّل الله – كما فى سورة المائدة – قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل لأنه كانت له خطيئات ، فجعله ذلك يحسد أخاه هابيل لتقبل الله قرْبانه ، وقال لأخيه هابيل ، ﴿لأقتلنَّك﴾ فقال له : (إنما يتقبَّل الله من المتَّقين) الذين لا يقترفون خطيئات ﴿لئنْ بسطتَ إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يدىَ إليك لأقتلك إنى أخافُ الله ربَّ العالمين﴾ أن ينتقم منى إن أنا ارتكبت هذا الذنب الكبير ، وقال له : ﴿إنى أريد أن تبوءَ بإثْمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ فتردَّد قابيل بين خوفه من ربِّه وقتله لأخيه ﴿فطوَّعتْ له نفسه﴾ أى سوَّلت وحسَّنت ﴿قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ فى الدنيا والآخرة .

ويعلِّم الله رسوله فى الآيات الأخيرة أن يتعوذ به من المخلوقات الشريرة قائلا له : ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ أى الصبح ﴿من شَرِّ ما خلق﴾ من السباع والهوام وكل ما يحدث شرا من الناس وغير الناس ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى الصحابة دائما كما جاء فى الحديث الثانى بأن لا يتحاسدوا ولا يتباغضوا ولا يتنافروا ولا يتقاطعوا إذ هم إخوة وينبغى أن يسود دائما بينهم الإخاء والود الصادق . ويطلب الله فى الآية من رسوله والمسلمين أن يتعوَّذوا من شر الحاسد لا لإضرار حسده بهم ، وإنما لما فيه من شر كامن منطو عليه . والحسد غير الغبطة ، إذ هى تمنى المرء أن يكون له من النعمة مثل من يغبطه دون أن يتمنى زوالها عنه ، وهى المقصودة فى الحديثين الثالث والرابع ، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى الحديث الثالث : لا غبطة إلا فى خصلتين : إنفاق رجل ثرى لماله فى الحق ، وحكمة أو حصافة عن علم وتفقه فهو يعلِّمها ويقضى بها . وكأنه قال فى الحديث الرابع ، لا غبطة إلا فى خصلتين : تلاوة الرجل القرآن فى ساعات الليل والنهار ، وثراء يجعل صاحبه يتصدق بماله ليلا ونهارا .

٦٧ – الكذب

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾

النحل ١١٦

٢ – وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

الأنعام ٢١

٣ – وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

المائدة ١٠

٤ – وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ

الزمر ٦٠

الأحاديث

١ – عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَفْرَى الفِرَى أنْ يُرِىَ الرجل عينيْه مالم ترياه (رواه البخارى) .

٢ – عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم والكذب ،

فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ومايزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا (رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب) .

٣ – وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعظم الخطايا اللسان الكذوب (رواه ابن كثير فى تفسيره) .

٤ – عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ تعمَّد علىَّ كذبا فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار (رواه البخارى فى كتاب العلم) .

الله جَلَّ وعزَّ فى الآية الأولى يحذِّر الكفار من أن يتقوَّلوا عليه مالم يقله ، إنهم يحللون ما يريدون ويحرِّمون ما يشاءون ناسبين ذلك إلى الله كذبا ، ويقول إنهم لا يفلحون ، ومن يفلح منهم فإنه متاع قليل مؤقت فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب أليم . ويقول الرسول إن أفْرَى الفِرَى أى أكذب الكذبات وأسوأها أن يحدِّث الرجل عن شيىء كذبا ، ويقول إنه رآه بعينيه وهو لم يره ، ومثله يكون الكذب له عادة حتى ليقول أبصرت كذا أو سمعت كذا وهو لم يسمعه ولم يبصره . ومن اعتاد الكذب أصبح الصدق عليه صعبا عسيرا حتى لو أراده لم يستطع ، وحتى لكأنما يصبح الكذب الذى تعود عليه طبعا له ، فكلما حدَّث كذب ، مما يصغِّر قدره عند الناس . وقد يؤول به الكذب أنه لوحدَّثهم بخبر صادق لم يصدقوه واتهموه ، وبذلك لا يكون له عند إخوانه حديث مصدَّق . وينبغى أن يكون الإنسان دائما صادقا فى قوله حتى يأنس إخوانه لما يسمعونه منه ويصدقونه ، ولذلك يقول الرسول فى بعض حديثه :« تجنَّبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة » ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لأن يَضَعَنى الصدق خير إلىَّ من أن يرفعنى الكذب » وهما ينهيان عن الكذب حتى لو جَرَّ مغنما أو نفعا . ومن أسوأ صور الكذب ما يسوقه شخص عن عدوٍّ له بغرض التشفى منه ، فينسب إليه قبائح هو برىء منها ظانا أن فى ذلك خيرا له ، والشر لا يأتى بخير .

ويقول الله – تقدس اسمه – فى الآية الثانية إن أظلم ما يفتريه المشركون على الله أكاذيب الشرك به وكل ما يتصل بعقيدتهم الوثنية من آلهة وشعائر ، فقد بلغوا فى ذلك غاية الظلم لربهم ، كما بلغوها فى تكذيبهم لرسوله وما جاء به من آيات الهدى القرآنية .

وسجل الله عليهم أنهم لا يفلحون فى الدنيا إذ خسروا فيها الإيمان به وبرسوله ، ولا يفلحون فى الآخرة لما ينالهم من عذاب النار .ويقول الله – عزَّ سلطانه – فى الآية الثالثة إن الكافرين المكذبين لآيات القرآن هم أحق العاصين بالجحيم ويحذر الرسول فى الحديث الثانى من الكذب وسوء عاقبته ، فإن الكذب يوصِّل إلى الفجور والمراد به فى الحديث الأعمال السيئة . ويقول إن الفجور يوصل صاحبه إلى النار والعذاب الأليم ، ويقول إن الرجل مايزال يكذب حتى يصبح الكذب له عادة ويكتب عند الله كذابا ، وتسقط عند الناس منزلته .

ويتوعد الله فى الآية الرابعة الذين يردِّدون تكاذيب الشرك وأباطيله باسوداد وجوههم يوم القيامة ، وهو إما اسوداد حقيقى وإما كناية عن أنهم يستشعرون حينئذ الغم والكآبة والحسرة كما جاء فى سورة آل عمران : ﴿يوم تبيضُّ وجوه وتسودّ وجوه فأما الذين اسودَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون﴾ والابيضاض لوجوه المؤمنين إما حقيقة ، وإما كناية عن نضرتها واستبشارها ، كما قال الله فى وصفها يوم القيامة : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ . وكما يتَّسم وجه الكذاب فى الآخرة بالكآبة والغمّ يتسم فى الدنيا بالريبة فى كلامه ، ولذلك قالوا الوجوه مَرايا تريك أسرار البرايا . وخطأ جسيم أن يعوِّد شخص لسانه الكذب ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حديثه الثالث : أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، ويبدو أنه حدث فى زمن الرسول أن بعض الأشخاص نقل عنه كلاما لم يصدق فيه ، وآذاه ذلك ، فقال حديثه الرابع المشهور : من تعمَّد علىّ كذبا فَلْيتبوَّأ مقعده من النار . وهو بذلك يتوعد من يكذبون عليه فى مسائل الدين بنسبة أحاديث مكذوبة إليه ، ويقول إن الله سيجزيهم بعذاب أليم فى الجحيم . ويروى بعض المحدثين أن الرسول صلى الله عليه وسلم رخَّص فى الكذب لضرورة ،إذ رُوى عنه أنه قال : لا يصلح الكذب إلا فى ثلاثة مواضع : الحرب فإنها خُدعة ، والصلح بين اثنين ، والرجل يُرْضى زوجته . والكذب على العدو فى الحرب جائز لأنها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم خدعة . ولعل الرسول لا يريد إباحة الكذب الصريح ، إنما يريد المعاريض ، ومن ذلك ما يروى من أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يسير خلف الرسول فى الهجرة

فتعرَّض له بعض من يعرفونه من العرب وسألوه : مَنْ معك ؟ فقال : هادٍ يهدينى السبيل ، فانصرفوا يظنون أنه دليل يرشده إلى الطريق ، وهو إنما يريد هداية سبيل الهدى والرشاد ، فصدق فى قوله . ويروى عن الرسول قوله : إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب . والكذب عامة من أقبح الخصال وأسوئها ، ولا يصدر إلا عن مهانة نفس ، ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سُئل : أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم فقال السائل أفيكون بخيلا قال : نعم ، فقال السائل أفيكون كذابا قال : لا . وناهيك بهذه الإجابة محذرة منه ومن شره ، ودافعة لنا أن نحذِّر أبناءنا منه وأن نحثّهم على أن يكون دائما الصدق دَيْدَنهم مهما كلفهم ، ويؤثر عن يحيى البرمكى وزير هرون الرشيد قوله فى ذمه إن صاحبه لا يستطيع خلاصا من آفته ولا بُرْءًا من دائه ، ورأينا شارب الخمر المدمن ينزع عنها ، واللص السارق يقلع عن سرقته ، وصاحب الكبائر من الذنوب يرجع عنها ، ولم نر كذَّابا تخلَّى عن كذبه وصار صادقا .

٦٨ – اليمين الكاذبة – العفو عن اللغو فى اليمين

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا

البقرة : ٢٢٤

٢ – إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

آل عمران : ٧٧

٣ – لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ

المائدة ٨٩

٤ – اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

المجادلة : ١٦

الأحاديث

١ – عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس أى الكاذبة (رواه البخارى وابن حنبل فى مسنده والترمذى والنسائى) .

٢ – عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك (رواه البخارى فى الأيمان والنذور والترمذى وابن حنبل فى مسنده) .

٣ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفرٌ عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير (رواه البخارى فى كتاب الأيمان والنذور ومسلم فى كتاب الأيمان وابن حنبل فى مسنده والترمذى) .

٤ – عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : أُنزلت آية سورة المائدة ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ فى قول الرجل : لا والله ، وبلى والله (رواه البخارى فى تفسير السورة) .

والآية الأولى تنهى المؤمنين أن يجعلوا الله عرضة لأيمانهم ، واليمين مؤنثة ، وهى الحلف وجمعها أيمان ، ومعنى عرضة : حاجز ، أى لا تجعلوا اسم الله فى أيمانكم حاجزا أو مانعا من أن تقدِّموا برا ، فتحلفوا أنكم لا تأتونه . ويمكن أن تكون عرضة بمعنى معرَّضا أى لا تجعلوا الحلف بالله معرضا لمنع فعل بر أو خير . والآية – بذلك – تنهى عن الإسراع فى حلف من شأنه أن يمنع برا أو خيرا أو طاعة لله حتى لا يتعرَّض الحالف – إذا راجع نفسه – إلى الحِنْث فى يمبنه . ويقول الله تعالى فى سورة النور : ﴿ولا يأتَل﴾ أى ولا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسعة﴾ فى المال ﴿أن يؤتوا﴾ أى لا يَصِلُوا ﴿أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا﴾ إن أداهم إلى هذا الحلف عمل لهم غير صالح أو إساءة*وأذى . وهو غاية الترفق والعطف على من ذكرهم بهذه الآية ، وفى الوقت نفسه نهى واضح للمؤمن أن يجعل اليمين بالله عرضة لأن يمسك عن فعل خير . وأسوأ من ذلك أن يحلف الكاذب على فعل شيىء لم يفعله بأنه فعله أو يحلف على قول له كاذب بأنه صادق ، وأشد من ذلك كله سوءًا حلفه على شهادة زور بأنه صادق وخاصة ما يتصل

بالأعراض والأموال . وجعل الرسول فى الحديث الأول اليمينَ غموسا لأنها تغمس صاحبها فى الإثم ويريد بها اليمين التى يقتطع بها الحالف مال امرئ مسلم من أرض أو غير أرض ، وسوى بينها فى الإتم وبين الشرك بالله وقتل النفس تعظيما لإثمها وحرمته .

والآية الثانية نزلت فى يهود المدينة بدليل ما نعَتهم الله به فى سورة البقرة من مثل : ﴿وأوفوا بعهدى .. ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا﴾ . وعهد الله فى الآية هو عهد موسى لهم فى التوراة بأن يعملوا بها ، وخالفوها ، ويمكن أن تكون الآية عامة لليهود ومن يصنع صنيعهم من المسلمين مخالفين عهدهم لله بالأمانة وما عاهدهم عليه الرسول من عدم التعلق بالمتاع الدنيوى وأن لا يحلفوا كذبا بأثمان زهيدة ، فهؤلاء اليهود ومن يتشبه بهم ﴿لا خلاق لهم فى الآخرة﴾ أى لا نصيب لهم فيها ولا حظ منها . وفى صحيح مسلم وكتب السنن عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، وعدَّ بينهم المنفق سلعته بالحلف الكاذب ، وفى مسند ابن حنبل عن عدى ابن عميرة الكندى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ حلف بيمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقى الله – عزَّ وجَلَّ – وهو عليه غضبان . وفى صحيح مسلم عن إياس بن ثعلبة الحارثى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اقتطع حق امرئ مسلم بيمين فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة .

واليمين إنما يكون برب العزة – جَلَّ جلاله – وقد نهى الرسول عن الحلف بغير الله وعظَّم ذلك فى الحديث الثانى ، فقال إن من حلف بغيره فقد كفر أو أشرك ، ولعله يقصد ما كان العرب يحلفون به قبل إسلامهم من اللات والعزى فإن ذلك يعد ارتدادا عن الدين وكفرا وشركا بالله . وفى الحديث أن الرسول نهى عن الحلف بالآباء وهو ليس نهى تحريم إنما هو نهى كراهة كما ذهب إلى ذلك المالكية والشافعية ، والعامة فى مصر يكثرون من الحلف بحياة الأب وبتربته أو قبره ، وهو مكروه ، وبالمثل كل حلف بغير الله . وفتح الرسول صلى الله عليه وسلم الباب للحالف على فعل شيئ لكى يمضى فى تصميمه أو يعدل نهائيا ويكفر عنه إذا حنث على نحو ما يوضح ذلك الحديث الثالث وأن واجب المقسم بربه إن كان المحلوف عليه هو الخير أن يحنث فى يمينه ويأتيه مكفرًا عنه .

والله – تبارك اسمه – فى الآية الثالثة لا يؤاخذ الحالف باللغو فى يمينه ، بل يعفو عنه ، وقيل هو اليمين فى الهزل ، وقيل فى الغضب ، وقيل هو الحلف على ترك المآكل والملبس

والمشرب مستدلين بقوله تعالى : ﴿لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ . والصحيح أن اللغو فى اليمين هو اليمين الذى يقوله الشخص دون نية وقصد وقد فسرته السيدة عائشة فى الحديث الرابع بأنه مثل قول الرجل : لا والله وبلى والله من غير قصد لتحقيق اليمين . إنما الذى يؤاخذ به الشخص ما عقد ووثق به اليمين من النية والقصد كما قال الله فى آية سورة البقرة : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبتْ قلوبكم﴾ .

ويقول الله – جَلّ شأنه في الآية – إن كفارة اليمين التى صممتم عليها وقصدتموها إطعام عشرة مساكين ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أى مما تطعمون منه أهلكم ﴿أو كسوتهم﴾ من إزار أو عباءة أو ثوب ﴿أو تحرير رقبة﴾ وقد بطل تحرير الرقاب أو العبيد ، فالكفارة إذن بالاختيار بين الإطعام لعشرة مساكين أو كسوتهم ﴿فمن لم يجد﴾ عنده ما يطعم به عشرة مساكين أو يكسوهم ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ قيل متتابعات وقيل يجوز أن تكون متفرقة . وتلك هى كفارة اليمين الشرعية ، وينبغى أن لا تترك بدون تكفير .

والآية الرابعة فى المنافقين الذين يوالون المسلمين فى الظاهر ويهود المدينة فى الباطن ، وهم لا مع اليهود ولا مع المؤمنين (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) وكانوا إذا لقوا الرسول والمؤمنين حلفوا لهم أنهم مثلهم مؤمنون ، وهم يعلمون أنهم يكذبون فى أيمانهم . ويقول الله فى الآية إنهم اتخذوها جُنّةً أى وقاية من مشاعر المسلمين ضدهم ليتمكنوا من صَدّ الناس عن سبيل الله بما يرمون به الإسلام من تهم باطلة يحلفون عليها بهتانا ، كما يحلفون أنهم مؤمنون صادقون ، ويتوعدهم الله بعذاب شديد قائلا : ﴿فلهم﴾ فى مقابلة ما صنعوا من الكذب فى أيمانهم باسم الله العظيم ﴿عذاب مهين﴾ شديد .

٦٩ – الخداع – اللعن – السبّ

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ

البقرة ٩

٢ – وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ

آل عمران ١٨٦

٣ – وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾

الأحزاب ٥٨

٤ – وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

الرعد ٢٥

الأحاديث

١ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن خَبَّب[1] زوجة امرئٍ فليس منا (رواه ابن حنبل فى مسنده وابن ماجة) .

(١) خبب : خدع وأفسد .

٢ – وعنه قال رسول الله صلى الله علية وسلم : مَن غشَّنا فليس منا (رواه مسلم فى حديث بكتاب الإيمان) .

٣ – عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سِباب المسلم فسوق (رواه البخارى فى كتاب الإيمان ومسلم وابن حنبل فى مسنده والترمذى والنسائى) .

٤ – عن ثابت بن الضحاك الأنصارى رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَعن المؤمن كقتله (رواه البخارى فى كتاب الأيمان والنذور) .

الآية الأولى فى المنافقين وخداعهم لله والمؤمنين فى إظهار أنهم يؤمنون بالله ورسوله ويبطنون الكفر . ويمكن أن يفسر خداع الله لهم بأنه إملاؤه لهم وتأجيل عقابهم إلى يوم القيامة ، وخداع المؤمنين بأنهم يتقبلون الظاهر منهم وما يقولون من أنهم مؤمنون وهم متأكدون أنهم يخادعونهم . وهذا التفسير على أساس أن فعل يخادع يقتضى أن يكون الخداع بين طرفين . ويمكن أن يكون يخادع بمعنى يخدع ولا يقتضى مخادعة بين طرفين كما فى مثل عاقبت اللصَّ أى أنهم يخدعون الله والذين آمنوا ، ويقول الله : ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أى أن خداعهم لا يتعداهم فهم إنما يخدعون أنفسهم .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول : من خَبَّب أى خدع زوجة شخص وأفسدها على زوجها فليس من المسلمين لأنه أتى فعلا منكرا أشد الإنكار . والخداع فعل مذموم ، وهو إظهار خلاف ما تخفيه ، ويكون على صور كثيرة ، ومنه التدليس ، يقال دلَّس فى الشئ إذا لم يظهر عيبه ، ودلَّس فى البيع للمشترى إذا لم يبين له عيب مايشتريه . ويستعمله المحدِّثون فى الإسناد ، يقولون دلَّس الراوى للحديث ، إذا رواه عن شيخ كبير عاصره ولم يسمعه منه موهما أنه سمعه منه . هذه إحدى صورتى التدليس عند المحدثين . والصورة الثانية أن يسمى شيخه باسم لا يعرف به . ونُسبت الصورتان من التدليس إلى جماعة من المحدثين فى بعض ماروَوه .

ويحرم الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى الغِشَّ قائلا : مَن غَشَّنا فليس منا أى أن الغش وهو نقيض النصح ليس من أخلاقنا الإسلامية ولا من سُنَّتنا ، إذ هو خيانة وضرب من الخديعة ، بإيصال شر إلى شخص دون علمه ، ومن أسوئه الغش فى البيع كخلط

الرَّدئ بالجيد ومزج اللبن بالماء . ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مرَّ فى السوق على رجل أمامه كومة بُرٍّ أى قمح ، فأدخل يده الكريمة فيها ، فنال أصابعه بعض الليل ، فقال ماهذا يا صاحب البر قال أصابته السماء يارسول الله ، قال : ألا جعلته فوق البر حتى يراه الناس ، مَن غشَّنا فليس منا . ولم أرو الحديث بلفظه إنما رويته بمعناه . وواضح أن تحريم الغش لما فيه من خيانة واضحة .

ويقول الله– تقدَّس اسمه – فى الآية الثانية للمؤمنين إنكم ستسمعون من أهل الكتاب من اليهود أذى كثيرا بالقول مما كان ينظم شعراؤهم أمثال كعب بن الأشرف ، وكان يرثى قتلى قريش فى غزوة بدر ، ويؤذى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويكثر من سبِّ المسلمين . ويقول الله للمؤمنين إنكم ستسمعون من مشركى قريش وغيرهم ما يؤذيكم وكانت معارك الهجاء قد اضطرمت بين شعراء مكة قبل فتحها من أمثال ابن الزِّبَعرى وأبى عزّة وهبيرة بن أبى وهب وأبى سفيان بن الحارث وبين شعراء المدينة من أمثال حسان بن ثابت وكعب ين مالك وعبد الله بن رواحة . وأمر الله المؤمنين فى بقية الآية بالصبر على هذا الأذى قائلا : ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ . وصبروا وفتحت لهم مكة سلما واعتنقت الجزيرة العربية جميعها الإسلام .

ومعنى الأذى فى الآية الثالثة مثل معناه فى الآية السابقة أى أذى القول بدليل قول الله فى نهايتها ﴿فقد احتملوا بهتانا﴾ أى قولا كاذبا وهم من يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأهاج وسباب لم يكتسبوه أى أنه كذب وافتراء عليهم . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم كما فى الحديث الثالث : سباب المسلم فسوق ومعصية كبرى فينبغى أن يحذر المسلم سب أخيه ، حتى لا يقع فى إثم يعاقبه الله عليه غقابا أليما . وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أىُّ الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ، ثم تلا الآية المذكورة . وكما نهى الرسول المؤمن عن سب أخيه الحى نهاه أيضا عن سب أخيه الميت قائلا : لا تسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا من عمل . والله – جَلَّ شأنه يقول فى الآية الرابعة إن الذين يبطلون عهد الله من بعد ميثاقه ولا يوفون به ، وعهد الله : ما أوصى بمراعاته وهو أن لا يعبدوا غيره ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ :

من الإيمان بجميع الأنبياء ﴿ويفسدون فى الأرض﴾ باعتقاد ديانات وشرائع باطلة ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ فى الدنيا والآخرة .

واللعنة فى الآية العذاب والطرد من رحمة الله ، ﴿لهم اللعنة﴾ دعاء من الله عليهم ، وهو دعاء مقدر ومقضى لأن كل شيء بيد الله . ولعن المؤمن لأخيه المؤمن أو لأى شخص : ابن أو غير ابن محرَّم فى الإسلام تحريما باتا ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع إن لعن المؤمن كقتله ، وهو تعظيم لإثم اللعن إذ يجعله كإثم القتل ، حتى لا يلفظ به المسلمون . ويقول فى حديث له : لا تلاعنوا بلعنة الله ولا غضبه ولا بالنار ، ويقول ليس المؤمن بالطعان واللعان . وكما حرم الرسول لعن الإنسان حرم لعن الحيوان ، وقال نضلة بن عبيد الأسلمى : بينما امرأة على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصرت بالرسول صلى الله عليه وسلم وتضايق الطريق بالقوم فأرادت أن تحث الناقة على سرعة السير فزجرتها ، وقالت : اللهم العنها ، وسمعها الرسول ، فقال لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة ، وأخذوا ما على الناقة من متاع ، وتركوها تمشى لا يعرض لها أحد . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم لعن الحيوان رحمة به فإن الإنسان أولى منه بهذا التحريم ، ولذلك جعله الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة يأثم من يلفظه فى مواجهة أى إنسان صغيرا أو كبيرًا قريبا أو بعيدًا إثما كبيرا .

٧٠ – سوء الظن – التجسس

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾

الحجرات ١٢

٢ – ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾

الإسراء ٣٦

٣ – ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

ق ١٨

٤ – ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

الفجر ١٤

الأحاديث

١ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم والظنَّ فإن الظن أكذب الحديث (رواه البخارى فى باب ما ينهى عنه من التحاسد ورواه مسلم بروايات متعددة فى كتاب البر والصلة ، كما رواه مالك وابن حنبل فى مسنده وأبو داود والترمذى)

٢ – عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمةً منكِ: ماله ودمه وأن يُظَنَّ به إلا خيرا (رواه ابن ماجة فى سننه)

٣ – عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه أُتى برجل ، فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا ، فقال : إنا قد نهينا عن التجسُّس ، ولكن إن ظهر لنا شيء نأخذ به (رواه أبو داود)

٤ – عن عقبة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها (رواه ابن حنبل فى مسنده وأبو داود والنسائى) .

والآية الأولى أدب قرآنى عظيم للمسلمين أن لا يظن بعضهم ببعض ظنونا سيئة لأن فى ذلك ما يفضى فى علاقة الرجل بزوجته إلى غيرة الرجل غيرة شديدة عليها ، وقد تؤديه الشبهة الكاذبة إلى الطلاق . وسوء الظن بين الرجال قد يؤدى إلى القطيعة بين الصديقين ، وقد يؤدى إلى ما هو أسوأ أى إلى العداء الشديد . وقد يكون الظن دينيا ، وهو اعتقادات المشركين والمجوس وعبدة الكواكب وعبدة الأوثان ، فكل هؤلاء يتبعون ظنونا مخطئة كما قال تعالى عنهم فى سورة يونس : (وما يتّبع أكثرهم إلا ظنًّا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) ويقول : ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يَخْرصُون﴾ كما فى سورة الأنعام ، ومعنى يخرصون يخمنون تخمينات وظنونا باطلة . والله – فى الآية – ينهى عن الظن السوء مطلقا فى الدين وغير الدين مما يكون بين الأفراد من الأهل والناس ، وهو ما نهى عنه الرسول فى الحديث الأول ، وقال إنه أكذب الحديث ، لأنه اتهام لا يقوم على أساس ، والآية والحديث يدعوان إلى صون عرض المسلم ولا يريدان بالظن الظن الشرعى وهو تغليب أحد الرأيين على الآخر ، وإنما المراد الاتهام الذى لا يسنده دليل . ويدعو الحديث الثانى إلى أن لا يظن المسلم بأخيه المسلم ظن سوء أبدا وأن يظن به خيرا حتى يكون أفراد المسلمين دائما إخوانا لا يظن أحد منهم بأخيه شرا ، إنما يظن به خيرا دائما ، ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تظنن بكلمة خرجت من فم أخيك المؤمن إلا خيرا مادمت تجد لها فى الخير محملا . ويشدد الله فى النهى عن سوء الظن فيقول إنه إثم أى ذنب يستحق العقوبة عليه . وهو زجر شديد عنه . وينهى الله فى الآية الثانية عن أن يقول مؤمن ما ليس له علم به كأن يقول رأيت ولم ير أو سمعت ولم يسمع أو علمت ولم يعلم . ومن ذلك أن يتهم زوجته أو جارته أو جاره بريبة . وهى من أشد الظنون والتهم السيئة المحرمة . ويقول الله تكملة الآية الثانية ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ أى إن السمع والبصر والفؤاد تقع على كل منهم مسئولية شديدة فيما يرمى به شخص أخاه بما ليس له علم يقينى به ، فإن الله سائله عن ذلك كله .

والله – تقدس اسمه – فى الآية الأولى عقب نهيه عن سوء ظن المسلم بأخيه يَنْهَى عن

التجسس ، وهو البحث بوسائل خفية عن عيوب شخص ومعرفة عوراته ، وهو هتك لحرمات الشخص ومحاولة للاطلاع على ما يخفيه . وهو ما يحرمه الإسلام على المسلم أن يتجسس على أخيه ، والإسلام يدعو المسلم إلى الستر دائما على المسلم والنهى البات عن التجسس كما يشهد بذلك ابن مسعود فى الحديث الثالث . ويرفع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع من شأن من يستر عورة لأخيه المؤمن حتى ليجعله كأنما استحيا موءودة من قبرها . وبحق جعل الإسلام التجسس إحدى الكبائر المحرمة ، فلا يجوز أن يتجسس مسلم على غيره فضلا عن أنه لا يجوز له التجسس على زوجته ولا على أبنائه وأقربائه . وعليه ان يذكر أصدقاءه ومعارفه بكل خير ويعرف لهم حرماتهم ويصونهم عن أن يذكروا بأى سوء . والتجسس المحرم هو الذى لا يؤدى نفعا للمسلمين ولا يدفع عنهم أذى وشرًّا بخلاف التجسس على الأعداء وتجسس الشرطة على اللصوص والجناة .

والآية الثالثة تحذير شديد للمسلم ، فإن كل ما ينطق به من قول سواء كان خيرا أو شرا وسواء كان ظنَّ خير أو ظن سوء ، وسواء كان بحثا طيباعن شخص أو بحثا عما لا يجب أن يُعرف عنه تجسسا ، كل ذلك يكتبه ملك مُعَد لمراقبته ويؤاخذ به قائله إن كان بغيا وعدوانا على مسلم . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم برواية ابن حنبل فى مسنده وكتب السنن : عن بلال بن الحارث المزنى : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة .

والآية الرابعة تحذير شديد هى الأخرى للمسلمين أن الله – جل شأنه – يرصد كل ما يأتيه المسلمون من قول أو فعل ، وأنه يجازى كلا بقوله وفعله ، وستعرض الخلائق عليه يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله ، ويجزى كل إنسان بما قدمت يداه . وبدون ريب تحريم الله – عزَّ شأنه – على المسلم هاتين الصفتين الذميمتين من سوء الظن والتجسس إرشاد أعلى منه لتسود الأخوة بين المسلمين ، فلا يظن أخ بأخيه سوءًا ولا يتجنى عليه بأوهام تجول فى خاطره ، وأيضا لا يتجسس ليتعرف على ما يعيب أخاه مما يخفيه ولا يجهر به فإن فى ذلك هتكا لحرمته وأخوته وتعرضا لعقاب أليم من ربه .

٧١ – الغيبة – النَّميمة

القرآن الكريم

قال الله تعالى

١ – ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

الحجرات ١٢

٢ – ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾

القصص ٥٥

٣ – ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

القلم ١٠ – ١٣

٤ – ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾

الحجرات ٦

الأحاديث

١ – عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغِيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : ذِكرُكَ أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه[1] (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب) .

---

(١) بهته : كذبتَ عليه .

٢ – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن حَمىَ مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكًا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم (رواه ابن حنبل فى مسنده وأبو داود فى سننه) .

٣ – عن حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنّة نمّام (رواه مسلم فى كتاب الإيمان والترمذى والنسائى وابن حنبل) .

٤ – عن أسماء بنت يزيد بن السكن : ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبُرءاء العنت (رواه ابن حنبل فى مسنده) .

والله – عز شأنه – ينهى فى الآية الأولى عن الغيبة ، وهى ذكر شخص غائب بما لا يحب أن يُذكر به ، وصوَّرها الله فى صورة شديدة القبح للكف عنها إذ جعلها مثل أكل لحم الأخ المسلم الميت الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ويقول الله إنكم تكرهون ذلك طبعا فينبغى أن تكرهوا مثيلتها من الغيبة شرعا . وهى تعد جرحا كبيرا فى أخوة الإسلام ، إذ إن صاحبها يصيب أخوَّة من يغتابه بطعنة شديدة ، ولو أن الذى اغتيب عرف ما يقوله عنه المغتاب لنشبت بينه وبين من يغتابه عداوة خطيرة ، فضلا عن أن المغتاب يشغل نفسه بما لا يعنيه ، وأولى أن يشغلها بما يفيده وينفعه . وهى تعد من الكبائر المحرمة ، وقد نهى عنها الرسول صَلىَ الله عليه وسلم كما فى الحديث الأول ، ويقول للصحابة : من حَمَى مؤمنا من مغتاب بعث الله إليه ملكا يوم القيامة يحميه من نار جهنم كما فى الحديث الثانى . وله أحاديث كثيرة فى النهى عنها نهيا شديدا كأنه يريد أن يقضى على هذه الخصلة الذميمة قضاء مبرما ، فلا تعود إلى الظهور أبدا بين أصحابه ، فمن ذلك ما رواه البراء بن عازب قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم زاجرا ، حتى أسمع النساء فى بيوتها فقال : يا مَعشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم فإن من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته . والرسول يجعل المغتاب منافقا فقد آمن بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه ، ويقول إن من يتبع عورة أخيه المسلم ليفضحه ويشيع عنه السوء يتصدَّى له الله – جلَّ جلاله – مدافعا عنه ، ويتتبع عورات هذا المغتاب حتى يفضحه فضيحة كبيرة .

وما من أحد يسمع أحاديث الرسول فى الغيبة حتى يقشعِّر بدنه فلا يقترفها أبدا . ويروى أن امرأتين صامتا على عهده وجعلتا تغتابان الناس ، وأُخبر بذلك ، فقال : صامتا عما أُحلَّ لهما أى من الطعام وأفطرتا على ما حرَّم الله عليهما أى من الغيبة . وحرى بالشخص أن ينزِّه لسانه عن ذكر عيوب الناس وأن لا يذكرهم إلا بما فيهم من محامد دون أن يهتك لأحد منهم سترا ، واضعا دائما نصب عينيه الشعار النبوى : أحبَّ لأخيك ما تحب لنفسك . وإذا اغتاب شخص أمامك شخصا ينبغى أن تعرض عنه كما نصت الآية الثانية ، وبذلك تنزِّه سمعك عن استماع الغيبة ، ولا بأس أن تنصح للمغتاب ، وتقول له اتق الله فى صاحبك .

والآية الثالثة تصف النمام الذى يسعى بالنميمة أى الوشاية بين الناس لإفساد علاقاتهم ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أصناف الكفار والمنافقين فى القرآن ولم يذمهم كما ذم النمام فقال عنه إنه كثير الحلف فى الباطل ﴿مهين﴾ كاذب ، عياب للناس ، يسعى بين الناس بالنميمة للإفساد ﴿منَّاع﴾ لكل خير ﴿معتد أثيم﴾ يتناول المحرمات ﴿عُتُلٍّ﴾ أى غليظ فظ ﴿زنيم﴾ دعىٌّ فى قومه لصيق شرير . والنميمة من الكبائر المحرمة التى تقدح فى الرجال ذوى المروءة ، إذ يحاول صاحبها أن يسلب الشريف شرفه والعزيز مكانته فضلا عن إفساده علاقات المودة بين الأزواج والأصدقاء . ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث : لا يدخل الجنة نمام ، ويقول فى الحديث الرابع النَّمامون شراركم ، إذ يفسدون ما بين الأحبة من الأزواج والأصدقاء ، ويبغون وقوع العنت والشر بمن يغتابونهم ، ومرَّ الرسول على قبر ، فقال إن صاحبه يعذَّب لأنه كان يمشى بين الناس بالنميمة . وكم من صديقين تعاديا ومحبين تباغضا وزوجين افترقا ، بسبب سعاية نمام . وقد يقطع الشجر بالفئوس فينبت ، ويقطع اللحم بالسيوف فيندمل ويبرأ ، ولسان النمام لا يندمل جرحه . والنمام لئيم قد يدَّعى على الشخص سقطات ليست فيه ، وحتى إن كانت فيه كان ينبغى أن يسترها لا أن ينشرها ، وفى الحديث : مَن ستر عبدا فى الدنيا ستره الله يوم القيامة . ومَثلُ النمَّام مثل الذباب لا يقع إلا على الجروح ونحوها متجنبا صحيح الجسد وسليمه كذلك النمام يقع على الزلات والسقطات فى الشخص التى تشبه العورات وبدلا من أن يغض نظره عنها يذيعها ، وفى الأمثال كن مِلحا تصلح ولا تكن

ذبابا تفسد . وقد يختلق النمام لمن ينم عنه كلاما لم يقله وعزائم لم يفكر فيها ، وبذلك يكون نماما وكذابا فيجمع رذيلتين ، ويعاقبه الله عقابا أليما .

ويقول الله تعالى فى الآية الرابعة ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ أى فتثبتوا وتحروا غاية التحرى . والآية لطف من الله بعباده إذ تفيد حكم الله بأن النمام فاسق لا يقبل قوله ، وفى قبوله غير قليل من الإثم إذ كأنما قابله يجيزه له ويساعده على نشره ، وينبغى أن ينصحه بأن لا يلوكه حفظا لمن يغتابه من أن يمسه بسوء ، وخشية من الله . والنميمة – بدون ريب – تقطع المودات وتهتك العورات وتضيع الحرمات ، وقد تدفع إلى الإحن والعداوات . وغالبا يكون النمامون كاذبين ، وحتى لو صدقوا أحيانا فإن الله يبغضهم حتى مع صدقهم لما يبغون من الإفساد وزرع الشر بين الناس .

٧٢ – السخرية – الشماتة

القرآن الكريم

قال الله تعالى :

١ – ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾

الحجرات ١١

٢ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ ﴾

النور ١٩

٣ – ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾

الأعراف ١٥٠

٤ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ﴾

الهُمَزة ١

الأحاديث

١ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : بِحَسْب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم (رواه مسلم فى أثناء حديث بكتاب البر والصلة) .

٢ – عن واثلة بن الأسقع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك (رواه الترمذى) .

٣ – عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (رواه البخارى وأبو داود والنسائى) .

٤ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا (رواه البخارى فى باب ما ينهى عنه من التحاسد ومالك فى موطئه وابن حنبل فى مسنده وأبو داود والترمذى) .

والآية الأولى فى السخرية وخصال ذميمة ، والسخرية هى الاستهزاء . ووجَّه الله التحريم إلى الأقوام لأن العشائر فيما يبدو كان يسخر بعضها من بعض احتقارا واستصغارا . وهى محرمة على الأفراد تحريمها على الأقوام ، فلا يسخر أحد من أحد ولا قوم من قوم ﴿عسى أن يكونوا﴾ عند الله ﴿خيرا منهم﴾ وأفضل ، وبالمثل لا يسخر نساء من نساء عسى أن يكن عند الله خيرا منهن . ولا تسخر امرأة من امرأة مهما كانت فقيرة أو محتاجة ، فقد تكون المحتقَرة أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخرة بها ، كذلك الشأن فى الرجال فلا يسخر أحد من أحد ولا يحتقره بأى صورة من الصور مهما كان فقيرا ومحتاجا إلى عونه . ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ من اللمز وهو القدح والعيب .

وجعل الله – جلَّ شأنه – لمز الشخص كأنه لمز لنفسه ، إذ يلمز أخاه المسلم وكأنما يلمز نفسه ويعيبها ويطعن فيها . والله – بذلك – ينفِّر المسلم من عيب أخيه والطعن فيه . ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ السيئة ، والألقاب منها الحسن مثل الرشيد ومنها السيىء مثل الأحول . ويقول الله إن كلا من السخرية والتنابز بالألقاب واللمز فسوقٌ و (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) وهو بذلك يجعل هذه الصفات المذمومة فسوقا لصاحبها بعد أن أكرمه الله بالإيمان ، وهى لذلك من المعاصى التى ينبغى التوبة منها ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ لأنفسهم ظلما بيِّنا . ويجعل الرسول صلى الله عليه وسلم السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فى الحديث الأول شرا ما بعده شر قائلا : بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم بإحدى تلك الصفات الذميمة المعيبة .

ويتوعد الله فى الآية الثانية من يحبون شيوع الفاحشة وما يشبهها فى المؤمنين واشتهار

التحدث بها ، والفاحشة فى الآية يراد بها الأمر المنكر ، كما فى قوله تعالى : ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ . وكل هذه الصفات الذميمة السابقة أمور أنكرها الله على من يأتيها وأوجب التوبة منها لما فى ذكرها وإشاعتها بين المؤمنين من إلحاق الأذى الشديد لمن توجَّه إليه سخريةٌ أو لمز أو نبز ، ويتوعد الله فى الآية من يزاولون هذا العمل السيىء – إن لم يتوبوا – بعذاب أليم .

وينهى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى عن إظهار المسلم الشماتة بأخيه ، مهما كان يعاديه ، حين تنزل به مصيبة ، إذ الواجب أن يتألم بما يألم منه أخوه المسلم ، كما يفرح له بما يفرح به . وعند البَلْوَى ينبغى أن يواسيه حتى لو كانا متباغضين ، ويقول الرسول لمن يشمت بأخيه حين حلول المصيبة به إياك والشماتة به ، فقد يرحمه الله وينحِّى عنه المصيبة التى جعلتك تشمت فيه ، ويبتليك بمصيبة مماثلة . والآية الثالثة تشير إلى قصة رجوع موسى من مكالمة ربه وحمله لألواح التوراة إذ وجد بنى إسرائيل قد ضلوا وعبدوا عجلا كما كانوا يعبدون عجل أبيس فى مصر مع المصريين ،فقال لهم بئس ما فعلتموه من ترك عبادة الله إلى عبادة العجل ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه هرون ممسكا بشعره ليؤله تأنيبا له على عدم أخذ الإسرائيليين بالشدة فى غيبته ، واعتذر له هرون ليكفَّ عن عقابه قائلا : ﴿فلا تشمت بىَ الأعداء﴾ وتجعلهم يفرحون بما أنزلت بى واعفُ عنى ولا تجعلنى فى عداد الظالمين .

والآية الرابعة نزلت فى جماعة من مشركى قريش اعتادوا همز الرسول والمؤمنين ولمزهم بألفاظ بذيئة ، والله جَلَّ شأنه – يتوعدهم بكلمة ﴿ويل﴾ وهى دعاء عليهم بالعذاب يقول : ﴿وَيلٌ لكل هُمَزَةٍ لُمَزة ﴾ الصيغتان بوزن فُعَلة الدال على كثرة وقوع هذا الفعل من صاحبه مثل ضُحكة الدال على كثرة الضحك . والهمزة العيَّاب الذى يكثر من عيب الناس بألفاظ بذيئة وإلصاق العيوب بهم كذبا ، ومثله اللُّمَزة ، وهما صفتان ذميمتان سيئتان منتهى السوء ، ولذلك دعا الله على المتصف بهما بعذاب وعقاب شديد .

وكل هذه الصفات الذميمة من اللمز والهمز والشماتة والتنابز بالألقاب والسخرية تنافى الإسلام الصادق الذى يقوم على المودة والأخوة الصادقة بين المسلمين بحيث لا يصدر

عن المسلم أى قول أو لفظ يؤذى أخاه . ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلَّم – كما فى الحديث الثالث : المسلم الكامل مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، بحيث يعاملهم معاملة كريمة ، وبحيث لا يصدر عنه لهم إلا ما يرضيهم ويسرهم . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الرابع : لا تقاطعوا أى لا تتهاجروا ، وفى حديث : لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فيعرض عنه ، ويترك أداء السلام له ، فوق ثلاثة أيام ، ويقول لا تدابروا أى لا تتعادوا ، ولا تتباغضوا ، ويوصيهم فى الحديث بأن يكونوا إخوانا بحيث يحبُّ كل أخ لأخيه ما يحبه لنفسه .

٧٣ – الحمد لله – الشكر لله

القرآن الكريم
قال الله تعالى :

١ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

الفاتحة ١

٢ - ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

الإسراء ١١١

٣ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

البقرة ١٥٢

٤ - ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

إبراهيم ٧

الأحاديث

١ – عن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله (رواه الترمذى) .

٢ – عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أمر ذى بالٍ لا يُبدَأ فيه بلفظ : الحمد لله فهو أقطع[١] (رواه أبو داود) .

٣ – قال رسول الله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له (رواه البخارى) .

(١) أقطع : أبتر .

٤ – عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى وسلم كان يقوم (يصلى) من الليل حتى تتفطَّر (تتشقق) قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر ؟ قال ، أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا (رواه البخارى فى باب التهجد ومسلم فى باب إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة) .

والحمد ثناء عام يكون ابتداء ، ويكون عن يد أو معروف قدمه شخص لصاحبه فحمده . أما الشكر فلا يكون ابتداء بدون معروف أو جميل قُدِّم لصاحبه بل لابد أن يكون ردًّا أو جزاء لجميل أو معروف . ويخطىء من يظن أن كلا منهما يقع مطلقا موقع الاخر ، والحمد – بذلك – أعم من الشكر . والإنسان يحمد الله مرارا على النعم التى أسبغها عليه والتى لا يمكن لأحد أن يحصيها أو يستقصيها فى نفسه وسمعه وبصره وعقله وجسده وفى حياته وكل ما يصيبه من رزق فى زراعة أو صناعة أو تجارة وفى كل ما ينعم به فى أسرته من بنين وبنات وفى أمته من أمن ورفاهية وحضارة ومدنية .

والله – تبارك اسمه – يحمد نفسه فى الآية الأولى التى يبتدىء المسلمون بسورتها قرآنه الكريم ويفتتحون بها صلاتهم فى كل ركعة يقومونها . وقرن الله هذا الحمد لنفسه فى تنزيله للقرآن قائلا فى أول سورة الكهف ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب﴾ وهى أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض إذ أنزل الذكر الحكيم على رسوله محمد لهداية البشرية ، وأيضا فإنه قرن هذا الحمد لنفسه فى ابتداء خلقه فى فاتحة سورة الأنعام : ﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض﴾ . وحمد الله فى كل هذه الآيات مضمن أمرَ عباده أن يحمدوه ويثنوا عليه ، وكأن الله يقول لعباده معها جميعا قولوا ﴿الحمد لله﴾ . وبالمثل تدعو الآية الثانية إلى تردادها ، ولذلك يرددها المسلمون فى بقاع الأرض كما فى الحديث الأول دعاء لربهم وثناء على نعمه ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثانى إن كل أمر مهم لم يفتتح بكلمة الحمد لله يُعَد أقطع أى أبتر كأنما قُطعت يده ونقصت بركته .

والمسلمون لا يحمدون الله فقط لنعمه الكثيرة التى يضفيها عليهم ؛ بل يحمدونه أيضا حمدا صادرا عن إيمان عميق فى أفئدتهم بجلاله وكماله المطلق الذى يتجلى به الكون تلقاء أبصارهم دون أى خلل أو اضطراب وعوج ، بل مع النظام والتناسق الدقيقين ومع الجمال

الذى بثّه الله فى السماء وكواكبها المضيئة وفى الأرض وزروعها وحيوانها . وإنه لكون يتجلّى بإبداع الخالق وجلاله وعظمته . وفى الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما – كما فى سنن ابن ماجة – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : ياربٌّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت[1] . بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى الله ، فقالا : يا ربَّنا إن عبدا من عبادك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله – وهو أعلم بما قال عبده – ماذا قال عبدى ؟ قالا : قال : لك الحمد ياربٌّ كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها . والحديث النبوى يصور ثواب الحمد لله تصويرا رائعا .

والشكر توأم الحمد ، والله فى الآية الثالثة يقول : ﴿ فاذْكرونى﴾ أى اذكروا نعمى ومحامدى ﴿أذكركم﴾ بما أسبغ عليكم منها ﴿واشكروا لى﴾ هذه النعم الكثيرة . ويعد الله وعدا كريما فى الآية الرابعة أن شكره على ما يتفضل به من نعمه على خلقه .. يجعله يزيدهم منها نعما لا تزال تتجدد مع كل شكر . وللشكر ثلاث صور : شكر بالقلب ، وشكر باللسان وشكر بالجوارح . وشكر الله ينبغى أن يكون بالقلب . لأنه صاحب النعم جميعا كما قال : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ سواء كانت فى السمع والبصر والجسد أو كانت فى الفكر والعقل أو كانت فى المطعم والملبس والمسكن أو كانت فى الزوجة والأولاد أو فى أى وجه من وجوه حياة الشخص ، مما يجعله يشكر ربه من أعمق الأعماق فى قلبه ، كما يجعله دائما يلهج بشكره ، ويردده بلسانه كلما أصابته سراء كما فى الحديث الثالث ، بل فى جميع أوقاته . ولا يشكر المسلم ربه بقلبه ولسانه فحسب ، بل يشكره أيضا بأعماله فى العبادة وبالقروض المالية فى الزكاة والصدقة وكل أعمال البر والخير . والحديث الرابع يصور كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعد العمل فى الطاعات شكرا ، فقد ذكرت فيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول كان ما يزال يكثر من صلاته ليلا حتى تشققت قدماه ، فقالت له متعطفة متلطفة ، لماذا تشق على نفسك بالصلاة مع ما أصاب قدميك من تشقق ، وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر أى كما جاء فى سورة

---

(١) عضلت : استغلقت .

الفتح ، فقال لها قولته العظيمة : أفلا أكون عبدا شكورا لربى على ما أنعم به علىّ . والصلاة بذلك شكر ومثلها كل أنواع العبادات العملية من صيام وزكاة وحج . وكل عمل خيرٍ أو صالح تعمله شكر : فمواساة الفقراءِ شكر لله ، وقضاء حوائج الأهل والإخوان شكر . وينبغى أن نشير إلى أن من أشد ما يحزُ فى نفوس المستحقين للشكر على عمل أدَّوه لأناس رجوهم أن يؤدّوه ، فأدوه لهم ، أن لا يتقدموا إليهم بشكر ولا ما يشبه الشكر ، وهو جحود مرير . وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة أن رسول الله صلى ألله عليه وسلم قال : من لم بشكر الناس لم يشكر الله ، فهو لا يشكر من أحسن إليه ، حتى ربه يجحده ويجحد ما تفضل به من النعم ، إذ الجحود متأصل فى نفسه وهو جحود مقيت للرب ولكل من يؤدى له صنيعة أو جميلا .

وأنا أحمد الله الذى هدانى إلى تأليف هذا الكتاب ، وما كنت لأهتدى إلى تأليفه لولا أن هدانى الله الذى يسبغ على شخصى الضعيف آلاءه ونعمه دائما بمنّه وفضله وإحسانه .



فهرس

الموضـــوع	الصفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

□ في الدراسات القرآنية

● الوجيز في تفسير القرآن الكريم
الطبعة الأولى ١٠٥٢ صفحة

● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات

□ في تاريخ الأدب العربي

● العصر الجاهلى
الطبعة التاسعة عشرة ٤٣٦ صفحة

● العصر الإسلامى
الطبعة السابعة عشرة ٤٦١ صفحة

● العصر العباسى الأول
الطبعة الرابعة عشرة ٥٧٦ صفحة

● العصر العباسى الثانى
الطبعة التاسعة ٦٥٧ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية – العراق – إيران
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

● عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الثانية ٥٥٢ صفحة

● عصر الدول والإمارات
ليبيا – تونس – صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الجزائر – المغرب الأقصى – موريتانيا – السودان
الطبعة الأولى ٧٠٦ صفحات

□ في مكتبة الدراسات الأدبية

● الفن ومذاهبه في الشعر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة

● الفن ومذاهبه في النثر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

● التطور والتجديد في الشعر الأموى
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة

● دراسات في الشعر العربى المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

● شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة

● الأدب العربى المعاصر في مصر
الطبعة الحادية عشرة ٣٠٨ صفحات

● البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات

● الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة

● البحث الأدبى :
طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره
الطبعة السابعة ٢٧٨ صفحة

● الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

● في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

□ في الدراسات النقديـة

- في النقد الأدبى

الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

- فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

□ في الدراسات البلاغية واللغويـة

- البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة التاسعة ٣٨٠ صفحة

- المدارس النحوية

الطبعة السابعة ٣٧٦ صفحة

- تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

- تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحات

- تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

- تحريفات العامية للفصحي

الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحات

□ في مجموعة نوابغ الفكـر العربى

- ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

□ في مجموعة فنون الأدب العـربى

- الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

- المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

- النقد

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

- الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

- الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

□ في التراث المحقق

- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول – الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى – الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

- كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

- الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

* * *

□ فى سلسلة « اقـرأ »

- العقاد — الطبعة الخامسة
- البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية
- الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية
- معى (١) — الطبعة الثانية
- معى (٢) — الطبعة الأولى

رقم الإيداع	١٩٩٧/٢١٩٣
الترقيم الدولى 977-02-5364-2	ISBN

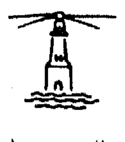
١/٩٦/١٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات القرآن الكريم ، ومن أحاديث السنة الشريفة ، يصور الدكتور شوقي ضيف الأسس الإلهية للحضارة الإسلامية : العقيدية والاجتماعية والأخلاقية .

ويرى المفكر الإسلامي أن المسلمين في عصرنا جديرون بأن يعودوا إلى التمسك في حياتهم بتلك الأسس جميعًا ، ليدين لهم العالم كما دان لآبائهم الأولين .



دار المعارف

٠٣١٦٦٦/٠١